

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد خيضر - بسكرة -
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم الأدب العربي

الأمثال العربية من خلال
فصل المقال في شرح كتاب الأمثال
لأبي عبيد البكري
-دراسة بلاغية-

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي تخصص علوم
اللسان العربي

إشراف :
أ.د/ محمد خان

إعداد الطالبة :
- ليلى جغام

السنة الجامعية: 1426/1425 هـ - 2005/2004 م

الفصل الأول: صور البيان وأشكاله في المثل

1-توطئة

2-مصطلح البيان واضطراب دلالاته

3-البيان فرع من فروع البلاغة

4-أقسام البيان

4-1- التشبيه

4-2- الكتابة

4-3- المجاز

4-4- الاستعارة

5- خلاصة عامة للفصل

1-توطئة:

تكلم رجل عند النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: "كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ؟" فقال: شفتاي، وأسناني، فقال له: "إِنَّ اللَّهَ يَكْرَهُ الْإِنْبِعَاقَ (*) فِي الْكَلَامِ، فَنَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَ رَجُلٍ أَوْجَرَ فِي كَلَامِهِ وَأَقْتَصَرَ عَلَى حَاجَتِهِ".

وسئل النبي ﷺ: فيما الجمال؟ فقال: "فِي اللِّسَانِ"، يريد البيان.

وقال أصحاب المنطق: حد الإنسان: الحي الناطق، فمن كان في المنطق أعلى رتبة كان بالإنسانية أولى.

وقالوا: الروح عماد الجسم، والعلم عماد الروح، والبيان عماد العلم⁽¹⁾.

ويبدو أن كل ذلك - إذا ما تأملناه - يعطي من درجة البيان ويشيد به، ولو أردنا الاستزادة قلنا أن الله سبحانه وتعالى قد فضل البيان، وجعل له مكانة عالية فطبع كتابه (القرآن الكريم) بالإعجاز، ووهب رسوله قدرا وافرا من فصاحة اللسان وبلاغة الكلام فهو إذ يصف نفسه بذلك يقول: "أوتيتُ جوامعَ الكلم".

والبلاغة (البيان) علم أصيل أوجده العرب وطوروه، لكننا قبل الحديث عن نشأته عندهم يجدر بنا الإشارة إلى معنى لفظة البلاغة من حيث الجذر اللغوي.

فالبلاغة لغة من بَلَغَ الشَّيْءُ يَبْلُغُ بُلُوغًا وَبِلَاغًا: وَصَلَ وَأَنْتَهَى وَأَبْلَغَهُ هُوَ إِبْلَاغًا، وَبَلَّغَهُ تَبْلِيغًا، وقول أبي قيس بن الأسلت السلمي:

قَالَتْ وَلَمْ تَقْصِدْ لِقِيلِ الْخَنَى *** مَهْلًا ! فَقَدْ أَبْلَغْتَ أَسْمَاعِي

إنما هو من ذلك، أي قد انتهيت فيه وأنعمت، وتَبَلَّغَ بالشَّيْءِ وصل إلى مراده [...]. والبَلَاغُ والإِبْلَاغُ [...] الإيصال، وكذلك التبليغ، والاسم منه البلاغ [...]. والمبالغة أن تَبْلُغَ في الأمر جهدك [...]. والبلاغة الفصاحة، والبَلُّغُ والبَلِّغُ: البَلِّغُ من الرجال، ورجل بَلِيغٌ وَبَلَّغٌ حسن الكلام فصيح، يَبْلُغُ بعبارة لسانه كُنْهَ ما في قلبه، والجمع بُلُغَاءُ، وقد بَلَّغَ بالضم بلاغة أي صار بَلِيغًا⁽²⁾.

والبلاغة من قولهم بلغت الغاية إذا انتهت إليها وبلَّغْتُها غيري، ومبَلَّغُ الشَّيْءِ منتهاه، والمبالغة في الشَّيْءِ الانتهاء إلى غايته، فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنتهي بالمعنى إلى قلب

(*) وشرح ابن منظور ذلك قائلا: أي التوسع فيه والتكثُر منه، لسان العرب، مادة (بعق)، مج 10، ص 22.

(1) ابن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه وفصله وعلّق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، 1401هـ - 1981م، 1 / 241، 242.

(2) ابن منظور، لسان العرب، مادة (بلغ)، مج 8، ص 419، 420.

السامع في فهمه، وسميت البُلُغَةُ^(*) بُلُغَةً لأنك تتبلغ بها فتنتهي بك إلى ما فوقها، وهي البلاغ أيضاً، ويقال الدنيا بلاغ لأنها تؤدبك إلى الآخرة، والبلاغ أيضاً التبليغ في قوله عز وجل: [هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ] (إبراهيم/ 52) أي تبليغ⁽³⁾.

أما في الاصطلاح فقد اختلفوا في تعريفها بقدر ما اشتغلوا بها وبحثوا فيها، لأن لكل منهم مذهبه ووجهته، وربما تعددت التعريفات عند الواحد منهم، غير أننا سوف نقتصر على بعضها، ومن ذلك ما أورده الجاحظ في معنى البلاغة حيث يقول: «خبّرني أبو الزبير كاتب محمد بن حسان، وحدثني محمد بن أبان ولا أدري كاتب من كان - قالاً:

قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل .

وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.

وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة.

وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة.

وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة .

ثم قال (الجاحظ) ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك، وأحق في الظفر⁽⁴⁾.

وقيل «أن البلاغة هي تأدية المعنى الجليل واضحاً، بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثر خلاب، مع ملائمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطبون»⁽⁵⁾، أي يشترط فيها شرف المعنى وصحته كما ورد في عمود الشعر، فضلاً على فصاحة الكلمة، مما يولد نغماً تطرب له النفس وترتاح لسماعه.

(*) البُلُغَةُ ما يتبلغ به من العيش، وزاد الأزهري: ولا فضل فيه، وتبلغ بكذا أي اكتفى به، لسان العرب، مادة (بلغ)، مج 08، ص 421.

(3) أبو هلال العسكري، الصنائع - الكتابة والشعر -، حققه وضبط نصه مفيد فميحة، دار الكتيب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1401هـ - 1981م، ص 15.

(4) الجاحظ، البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1998م، مج 68/1، ص 01.

(5) السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان البديع، ضبط وتدقيق وتوثيق يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1421هـ - 2000م، ص 40.

وقال الخليل في معنى البلاغة: «أنها كلمة تكشف عن البقية»⁽⁶⁾، وهو -أي الخليل- بذلك يعطينا مفتاح البلاغة لديه، إذ يعتبرها إيماء للمعنى وقصد إليه بأخصر لفظ وأقصر سبيل، وهي عند الجاحظ «إيجاز مع تماسك في الكلام، وشدة اتصال بين أجزائه»⁽⁷⁾.

فالبلاغة إذن هي إيصال المعنى الشريف بالشكل اللائق، وترسيخه لدى السامع، مع ملائمة لحاله ومقامه، لأن ابن المقفع في جوابه عن سألته بشأنها البلاغة يعطي معناها ويرسم حدودها فيقول: «اسم لمعان تجرى في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون خطبا، ومنها ما يكون رسائل، فعمامة هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة»⁽⁸⁾.

والبلاغة في عدد من تعاريفها تقرن بمصطلح الفصاحة، فما حقيقة العلاقة بينهما؟

إن الفصاحة فيما يشير إليه أبو هلال العسكري مأخوذة من قولهم «أفصح فلان عما في نفسه إذا أظهره، والشاهد [على ذلك] قول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء، وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوته فظهر، وفصح أيضا، وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين، وفصح اللحان إذا عبر عما في نفسه وأظهره على جهة الصواب دون الخطأ، وبهذا يكون للفصاحة والبلاغة معنى واحد، إذ كل منهما يعني الإبانة عن المعنى والإظهار له»⁽⁹⁾.

وقال بعض علمائنا: [أن] «الفصاحة تمام آلة البيان، فلهذا لا يجوز أن يسمى الله تعالى فصيحاً، إذا كانت الفصاحة تتضمن معنى الآلة، ولا يجوز على الله تعالى أن يوصف بالآلة، وإنما يوصف كلامه بالفصاحة، لما يتضمن من تمام البيان، والدليل على ذلك عنده أن الأثناع والتتمام لا يسميان فصيحين لنقصان آلتها عن إقامة الحروف، وسمي

الشاعر الأموي زياد بن سليمان مولى عبد قيس "زياد الأعجم" لنقصان آلة نطقه عن إقامة الحروف⁽¹⁰⁾»، فالفصاحة عنده صفة للكلام لا صفة للمتكلم.

وورد في البيان والتبيين أن جماع البلاغة حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخرق بما التبس من المعاني أو غمض، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر⁽¹¹⁾، وهي بذلك

(6) - ابن رشيق القيرواني، العمدة، 1/ 242.

(7) - عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1998، ص 56.

(8) - ابن رشيق القيرواني، العمدة، 1/ 243.

(9) - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر -، ص 16.

(10) - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر -، ص 16، 17.

تشتمل الفصاحة وتحتويها من حيث هي معرفة باللفظ ومجازة إلى ما يمكن أن يدل عليه مع إدراك لحسن موقعه واهتمام بإيصاله لغرضه وإفهامه لسامعه دون ملل.

فالبلاغة إذن ليست في اللفظ وحده وليست في المعنى وحده ولكنها أثر لازم لسلامة تألف هذين وحسن انسجامهما [...] ، لهذا كانت على درجات متفاوتة تعلق وتسفل في الكلام بنسبة ما، تراعى فيه مقتضيات الحال، وعلى مقدار جودة ما يستعمل فيه من الأساليب في التعبير والصور البيانية والمحسنات البديعية ، وأعلى تلك الدرجات ما يقرب إلى حد الإعجاز، وأسفلها ما إذا غير الكلام عنه إلى ما هو دون، إلتحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات العجم وإن كان صحيح الإعراب، وبين هذين الطرفين مراتب عديدة⁽¹²⁾.

وبين هذا وذاك يبقى الخلاف، فمن يرى أنهما [البلاغة والفصاحة] لفظين لمعنى واحد أو من قبيل الترادف ومن يقول أن البلاغة تشتمل الفصاحة أي هي أعم منها أو العكس، و من يجعل البلاغة صفة للكلام والفصاحة صفة للمتكلم، فيقول كلام بليغ أي مصيب لمعناه، وفلان فصيح أي قادر على إيصال ما عنده لغيره وإفهامه معناه.

والبلاغة علم أصيل عند العرب، يضرب جذوره في أعماق تاريخهم كما ذكرنا آنفاً، وذكر كلمة بلاغة يرتبط في الأذهان بعلمها الثلاثة المعروفة عندنا الآن علم المعاني، علم البيان، علم البديع⁽¹³⁾ ، وقد علل القزويني هذا الانقسام في علوم البلاغة بقوله: «أن البلاغة في الكلام ترجع إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد وهذا هو علم المعاني، كما ترجع إلى الاحتراز عن التعقيد المعنوي وهذا هو علم البيان، وأخيراً تهدف إلى تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته، وهذا هو علم البديع»⁽¹⁴⁾.

وقد يتبادر إلى الذهن أن هذه العلوم الثلاثة للبلاغة نشأ كل واحد منها مستقلاً عن الآخر بمباحثه ونظرياته، لكن الأمر ليس كذلك، إنما الواقع أن البلاغة العربية مرت بتاريخ طويل من التطور حتى انتهت إلى ما هي عليه الآن، وأن مباحث علومها كانت مختلطة بعضها ببعض منذ بداية الحديث عنها في كتب الأوائل من علماء العربية⁽¹⁵⁾.

(11) – الجاحظ ، البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، مج 01، 68 / 1.

(12) - السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص 42.

(13) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني- البيان- البديع-، ص 201.

(14) – الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، قدم له وبوبه وشرحه علي بوملحم، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت لبنان، الطبعة الأخيرة، 2000، ص5.

(15) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية.....، ص 201.

وقد أخذت الملاحظات [البيانية] أي البلاغية تظهر عند العرب منذ العصر الجاهلي، ثم مضت هذه الملاحظات تنمو بعد مجيء الإسلام لأسباب شتى، منها تحضر العرب واستقرارهم في المدن والأقطار المفتوحة، ونهضتهم العقلية، ثم الجدل الشديد الذي قام بين الفرق الدينية المختلفة في شؤون العقيدة والسياسة، فكان طبيعياً لذلك كله أن تكثر الملاحظات البيانية والنقدية، تلك التي نلتقي بها في تراجم بعض الجاهليين والإسلاميين في كتاب مثل كتاب الأغاني⁽¹⁶⁾.

ولا ننسى أن البلاغة أو الملاحظات البلاغية القديمة كانت مرتبطة بالنقد في أول عهده، حيث كان الشعراء القدامى يحكمون على الشعر، ويقيّمون أصحابه من خلال النظر في أمور تتعلق بقضايا هي من موضوعات علم البلاغة، كقضية اللفظ والمعنى وأفضلية الواحد منهما عن الآخر، وفي ذلك يرد نصا -يتضمن الفكرة ذاتها- بخصوص النقد القديم حيث يقول صاحبه: «والنقد لا ينفصل أبداً عن البلاغة شقيقته الكبرى، فهو في جزء منه بلاغة محدودة، وفي جزء آخر بلاغة موسعة. لقد نبعا من أصل واحد، وسارا معاً شوطاً بعيداً في المراحل الأولى في تاريخهما، ثم أخذ كل منهما بحكم وظيفته يشق لنفسه طريقاً خاصة، ويكتسب سمات وصفات معينة انتهت بهما إلى الانفصال كعلمين مستقلين، ولكن هذا الانفصال والاستقلال لا يعني الانقطاع التام بينهما، لأن النقد كان ولا يزال يقوم في بنائه على أسس بلاغية»⁽¹⁷⁾.

وبانتقالنا إلى العصر العباسي [في تتبعنا لتاريخ البلاغة] فإننا ننتقل من عصر الملاحظات الشفهية والفورية إلى عصر التدوين، فهنا بدأت بعض المحاولات الأولى لتدوين هذه الملاحظات البلاغية وتسجيلها، كما هو الشأن في كتب الجاحظ وبخاصة كتاب "البيان والتبيين"، وقد ساهمت في هذه النقلة الجديدة عوامل عدة منها تطور الشعر والنثر بتأثير الحضارة العباسية، ورفي الحياة العقلية فيها⁽¹⁸⁾.

وقد كان أبرز من مثل هذا الرقي طائفتين، شكلت كل منهما مدرسة بلاغية أسهمت إلى حد كبير في التأسيس للبلاغة العربية أولاً ثم اغنائها بمختلف الأفكار التي كانت خير معين لها فيما بعد ثانياً، وقد تركتا أثراً بارزاً في تاريخ البلاغة.

(16) - نفسه، ص 201، 202.

(17) - عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1406هـ.

1986م، ص 11.

(18) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية.....، ص 202.

وكانت هاتين المدرستين هما: المدرسة الأدبية ومدرسة المتكلمين (المدرسة الفلسفية) ، وأمرهما قديم -كما هو معروف- فهو ليس وليد عصور متأخرة، وأبو هلال العسكري نبه إليهما في دراسة البلاغة⁽¹⁹⁾.

وقد كان لكل منهما مجالاً تنشط فيه أو تهتم به، فلأولى الشعر الجاهلي والإسلامي أكثر من العباسي، مما جعل أصحابها يستنبطون بعض الخصائص الأسلوبية على نحو ما نجد في كتاب سيبويه من مثل كلامه عن التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتكثير، ونجده أيضاً في كتاب "معاني القرآن" للفراء ، و"مجاز القرآن" لأبي عبيدة⁽²⁰⁾.

في حين اهتمت طائفة علماء الكلام (أو مدرسة المتكلمين) التي ظهرت في العصر العباسي [وكانت هذه المدرسة بدورها من أهم المدارس أو الاتجاهات التي أسست للنقد العربي بحكم اشتراك النقد والبلاغة] بما اهتم به المعتزلة -أهم طوائف علماء الكلام- من حيث كانوا يدرسون تلاميذهم على فنون الخطابة والجدل والبحث والمناظرة في الموضوعات المتصلة بفكرهم الاعتزالي، ويعمق هذا التدريب ويمتد ليشمل الكلام وصناعته وقيمه البلاغية والجمالية⁽²¹⁾.

ويذهب بعض النقاد إلى أن علماء الكلام وخاصة المعتزلة كانوا أكثر أثر من غيرهم] في نشأة البلاغة] لأنهم هم الذين وضعوا أسس علم البلاغة⁽²²⁾ «إذ هم المحتاجين إليها في الدعوة وإقامة الحجج، فوضع منهم بشر بن المعتمر (ت210هـ) صحيفته الخالدة ثم جاء بعده الجاحظ وهو من هو في البلاغة وفنونها»⁽²³⁾.

ولكن هذا لا يعني أن الاتجاه الكلامي كان هو المسيطر بل لاحظ النقاد أن عوامل أخرى غير [الفلسفة والمنطق وعلم الكلام] قد أثرت في البلاغة العربية ، وصبغت أبحاثها بصبغة أدبية، من مثل لقرآن الكريم والكتاب والشعر⁽²⁴⁾ ، ذلك أنها اعتمدت في نقد النصوص الشعرية غالباً من حيث اعتبرت الشقيقة الكبرى للنقد كما ذكرنا، ويبقى كتاب الله أكثر في جل الدراسات خاصة اللغوية منها ، كما كان في النحو وفقه اللغة وعلم الأصوات والدلالة.

(19) - يوسف أبو العدوس، البلاغة والأسلوبية، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة العربية الأولى، 1999، ص 23.

(20) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص 202.

(21) - نفسه ، ص 203.

(22) - عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، ص 31 .

(23) - أحمد أمين، النقد الأدبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1387هـ-1967م، ص 473 .

(24) - يوسف أبو العدوس، البلاغة والأسلوبية، ص 23 .

وإذا بحثنا في تاريخ الدراسات البلاغية وجدنا أن الجاحظ أكبر من أولى عناية فائقة بالبلاغة العربية، فقد ألف كتابه "البيان والتبيين" في أربعة مجلدات ضخام، جمع فيها معظم ما انتهى إليه عصره من ملاحظات بلاغية، سواء [ما خص] علماء العربية بأنفسهم أو نقل إليهم عن آداب الفرس والهند واليونان وغيرهم.

فضلا على أنه أي "البيان والتبيين" قد حفظ لنا قدرا كبيرا من ملاحظات المعتزلة المتصلة بالبلاغة العربية، والتي استقوها من التقاليد العربية من جهة ومن الثقافات الأجنبية التي شاعت في عصرهم وأطلعوا عليها من جهة أخرى [...] ، ومن ذلك أنه أورد بعض التعاريف للبلاغة منسوبة لليونان والفرس والهند⁽²⁵⁾، وهذا لا يدل إلا على مدى سعة الفكر الاعتزالي وسعي أصحابه الجاد والمستمر وراء مهام بعد محلها أو صعب منالها.

2- مصطلح البيان واضطراب دلالاته:

البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك القناع عن المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع⁽²⁶⁾.

وقال صاحب المنطق: حد الإنسان الحي الناطق المبين⁽²⁷⁾، وهو ذاته ما أورده صاحب العمدة في تعريف البلاغة حين قال: «قال أصحاب المنطق حد الإنسان: الحي الناطق، فمن كان في المنطق أعلى رتبة [إنما الرتبة بدرجة الإفهام والإبانة] كان بالإنسانية أولى»⁽²⁸⁾، وهذا يعني أن البيان في التعريف الأول يرادف البلاغة في التعريف الثاني، وبذلك يكون لهما نفس المعنى أو أنهما استعمالا للدلالة على نفس العلم، وذلك ما يفسر ورود البلاغة بمصطلح البيان عند أوائل من اشتغلوا بها.

(25) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية.....، ص 203، 204.

(26) - الجاحظ، البيان والتبيين، مج 1، 1/60.

(27) - نفسه، 1/61.

(28) - ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، 1/242.

فضلا على أنها عرفت بكونها الإبانة عن المعنى وإظهاره، وبذلك فقد كان علم البيان «في اصطلاح المتقدمين من أئمة البلاغة يطلق على فنونها الثلاثة من باب تسمية الكل باسم البعض وخصه المتأخرون بالعلم عن المجاز والاستعارة والتشبيه والكنائية، والغرض منه صوغ الكلام بطريقة تبين ما في نفس المتكلم من المقاصد وتوصل الأثر الذي يريده به إلى نفس السامع»⁽²⁹⁾.

فمصطلح البيان إذن دل على البلاغة في بداية وجودها ونشأتها، ثم صار محورا من محاورها بعدما انقسمت وتفرعت إلى فروع ثلاثة هي البيان، البديع والمعاني، وفي هذه النقطة بالذات قد نطرح سؤالا مفاده لماذا سميت البلاغة بالبيان؟

وأحسب أنني أجيب عن هذا السؤال إذا قلت أن أصل هذا الاصطلاح [ربما يعود إلى الغرض من وضع هذا العلم أو أصل اشتقاقه اللغوي، إذ هو يعني الإبانة عن المعنى وإظهاره، وكان البيان بمعنى كشف الستار وإظهار المخبوء وإيضاحه وإيصاله للمتلقي أو السامع بغرض إفهامه، لكن بعد ذلك كثرت الدراسات البلاغية وتوسعت، وحددت معالم كل جزء منها ورسمت حدوده، فكان البيان أولا ونسب في ظهوره للجاحظ، ثم المعاني وعزيت لعبد القاهر الجرجاني، وأخيرا كان البديع وعد ابن المعتز مؤسسه فيما كتبه الذي أسماه "البديع"، وقيل السكاكي هو مؤسسه في كتابه "مفتاح العلوم".

أما وقد تحددت المعالم، فعلم البيان الذي هو جزء من علوم البلاغة يعرف على أنه علم «يتمكن به من إبراز المعنى الواحد بصورة متفاوتة، وتراكيب مختلفة في درجة الوضوح، فالمحيط بالفن، الضليع من كلام العرب منثوره ومنظومة إذا أراد التغيير عن أي معنى يحول بضميره، استطاع أن يختار من فنون القول وطرق الكلام ما هو أقرب لمقصده، وأليق بغرضه، بطريقة تبين ما في نفس المتكلم من المقاصد، وتوصل الأثر الذي يريده إلى نفس السامع في المقام المناسب، فينال الكاتب والشاعر والخطيب من نفس مخاطبيه إذا جود قوله، وسحرهم ببديع بيانه»⁽³⁰⁾.

(29) - السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ضبط وتدقيق وتوثيق يوسف الصميلي، ص 16

(30) - السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص 216 .

3- علم البيان فرع من فروع البلاغة:

علم البيان هو علم يعرف منه كيف يدل على معنى خارجي يتوسط الوضع والعقل معا والدلالة فيه* إما وضعية محضة أي دلالة اللفظ أو هيئته على ما وضع له، وتسمى مطابقة، كدلالة البيت على السقف والحائط معا، ودلالة هيئة الفعل وهيئة المركب على ما وضعت له. * أو عقلية محضة كدلالة لفظ (ديز) مقلوب زيد إذا سمع وراء الجدار من اللافظ. * أو مشتركة بينهما وهي قسمين، دلالة تضمن وهي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له، كدلالة البيت على السقف وحده، أو الحائط وحده، ودلالة التزام وهي دلالة اللفظ على مصاحب المسمى الخارج عنه، سواء كانت الدلالة بسبب انتقال الفعل من المسمى وحده، أو بواسطة ملفوظ به، أو مقدر معقول، فالأول كدلالة السقف على الحائط، والثاني كدلالة أسد يرمى على الشجاع، والثالث كدلالة الضاحك على الإنسان، بواسطة حكم العقل بأنه لم يوجد من مفهوم الضاحك غير الإنسان⁽³¹⁾.

والبيان أيضا في اصطلاح البلغاء «أصول وقواعد يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة على نفس ذلك المعنى، ولا بد من اعتبار المطابقة لمقتضى الحال دائما، فكرم سعد مثلا يدل عليه تارة بطريق التشبيه بأن يقال: "سعد كحاتم"، ومرة بطريق المجاز بأن يقال: "رأيت بحرا في دار سعد"، وأخرى بطريق الكناية، بأن يقال: "سعد كثير الرماد"، ولا يخفى أن بعض هذه التراكيب أوضح من بعض»⁽³²⁾.

وورد عند العمري أن البيان عند الجاحظ يتنازع مفهومين أو وظيفتين، الأولى أن البيان معرفة وهذا ما يشير إلى الوظيفة الالفهامية، والثانية أن البيان إقناع وهو ما يرتبط بالوظيفة الإقناعية، وذكر أن الوظيفة الثانية هي الصريحة أما الأولى فكامنة⁽³³⁾.

فهو -أي الجاحظ- جعل البيان وسيلة لتحقيق غرضين اثنين، فهو أولا معرفة ومعنى يريد أن يوصله لهذا السامع أو القارئ قصد إفهامه وتوضيح الصورة لديه، لأنه لم يكن مدركا لمعناها قبل ذلك، وهو ثانيا إقناع لهذا المستمع بفكرة ما، مشيرا إلى أن الإقناع غرض ظاهر لأنه صرح به كونه ينطلق من خلفية فكرية تغذيها رؤية فلسفية سادت عصر الجاحظ،

(31) - محمد بن علي بن محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تحقيق عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، 1418هـ.

1997م، ص 149.

(32) - السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة العربية، ضبط وتدقيق وتوثيق يوسف الصميلي، ص 216.

(33) - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1999، ص 194.

وتمذهب هو بها ألا وهي فكرة الاعتزال التي كان أصحابها ينظرون إلى الدين ويفسرونه بالنظر إلى المنطق والفلسفة.

ويقول الجرجاني أن علم البيان لا يبحث في الدلالة العقلية من حيث الوضوح وعدمه، بل من حيث التذاذ النفس بها لكونها متصوفة فيها، ولها مدخل منها، ألا ترى أن قولك: "زيد بحر في العلوم" ليس مثل قولك: "كثير العلوم"، وإنه "كثير الرماد" ليس كمثله "كثير الضيافة" في التذاذ النفس وقبول الطبع⁽³⁴⁾.

4- أقسام البيان:

ويكاد يتحدد عمل البياني أو الدارس لعلم البيان بنوعين من الدلالة هما الدلالة التضمينية والدلالة الإلزامية، وجميع بحوث علم البيان تدور على أساس منهما ويمكن أن نحدد بحوث هذا العلم في:

-التشبيه.

-الكناية.

-المجاز بنوعيه مرسل [أو لغوي] وإسنادي [أو عقلي].

- الاستعارة⁽³⁵⁾.

4-1- التشبيه:

إن إدراكنا لمعنى التشبيه يكون من الوهلة الأولى، وبمجرد سماع اللفظة يتبادر إلى الذهن أنه مأخوذ من المشابهة، وهذه الأخيرة لا تكون في الشيء مفرداً إنما في مقابلة غيره، بالتالي مقارنته به.

ويورد المبرد في معنى ذلك قوله: «وأعلم أن للتشبيه حداً، لأن الأشياء تشابه من وجوه، وتباين من وجوه، فإنما ينظر إلى الشبيه من أين وقع، فإذا شبّه الوجه بالشمس والقمر فإنما

⁽³⁴⁾ - محمد بن علي بن محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تحقيق عبد القادر حسين، ص 151 .

⁽³⁵⁾ - السيد أحمد خليل، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1968م، ص 219، 220 .

يراد به الضياء والرونق، ولا يراد به العظم والانحراق، قال عز وجل: [كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ] (الصافات/49)، والعرب تشبه النساء ببيض النعام، تريد نقاءه ورقة لونه⁽³⁶⁾.
وقد توسع البلاغيون في دراسة التشبيه وأمعنوا في كثرة التقسيمات لأنواعه المختلفة وضروره المتعددة⁽³⁷⁾، فيقسمونه مثلا باعتبار طرفيه، وباعتبار وجه الشبه ثم باعتبار الأداة.

4-1-1-1- تقسيم التشبيه باعتبار طرفيه⁽³⁸⁾:

أ- تشبيه أمر حسي بأمر حسي: وذلك أن يكون المشبه مما يدرك بإحدى الحواس الخمسة وكذلك المشبه به، ونورد لذلك عدد من الأمثلة (الأمثال):
* أَنَا مِنْهُ كَحَاقِنِ الْإِهَالَةِ. (39)
* إِنَّمَا هُوَ كَبُرْقِ الْخَلْبِ. (40)
* لَا تَكُنْ كَالْعَنْزِ تَبْحَثُ عَنِ الْمُدْيَةِ. (41)

ففي المثل الأول يقدر الكلام على الصيغة التالية (أنا من الأمر كحاقن الإهالة) وفيه يشبه موضعه من الأمر ومعرفته به بموضع حاقن الإهالة العالم بموعد ومكان حقنها، والإهالة هي «الودك المذاب الذي لا يحقنه إلا العالم به لأنه يعرف أنها بردت لئلا تحرق الإناء»⁽⁴²⁾، ونجده قد شبه محسوس (أنا) أو العالم بالأمر ب (حاقن الإهالة) وهو محسوس أيضا.
وفي المثل الثاني شبه (هو) [والمقصود به المخلف للوعد] ببرق الخلب من حيث أن المخلف للوعد، يعد ولا يفي كذلك برق الخلب يبرق ولا يأتي بالمطر، فهو من قبيل تشبيه المحسوس (المخلف للوعد) بالمحسوس (برق الخلب)، لأن «الخلب من الخلابة وتعني الخداع والكذب، وقيل مكان أشتهر ببرقه الكاذب فصار يطلق على كل برق لا مطر وراءه»⁽⁴³⁾.

(36) - المبرد، الكامل في اللغة والأدب، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 41/3.
(37) - أحمد خليل، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، ص 224.
(38) - أحمد خليل، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، ص 226.
(39) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، حققه وقدم له إحسان عباس وعبد المجيد عابدين، ص 298.
(40) - نفسه، ص 112.
(41) - نفسه، ص 455.
(42) - نفسه، ص 298.
(43) - نفسه، ص 113.

وكذلك كان التشبيه في المثل الثالث ، حيث شبه شيء محسوس (أنت) بشيء محسوس آخر هو (العنز) في بحثه عن المدينة التي يذبح بها، ويضرب للإنسان يكون سببا في هلاك نفسه أو هو يسعى لضرره.

ب- تشبيه معقول بمحسوس: وهو أن يكون المشبه من الأمور المعقولة، والمشبه به مما يحس أو يدرك بإحدى الحواس، ويمكننا أن نمثّل له بالأمثال الآتية:

* الأرواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا انْتَفَفَ، وَمَا تَنَاطَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ⁽⁴⁴⁾.

* لَوْ كَانَ المَعَكُ رَجُلًا لَكَانَ رَجُلًا سَوْءًا.⁽⁴⁵⁾

* هُمْ سَوَاءٌ كَأَسْنَانِ المَشْطِ.⁽⁴⁶⁾

فالمثل الأول هو حديث نبوي ورد عن الرسول ﷺ في تألف الناس واتفاقهم، حيث شبه الأرواح (المشبه) وهي مما لا يدرك بالحواس بل يتصور ذهنًا، (معقول) بمحسوس هو الجنود (مشبه به)، «والأرواح جمع روح، وهو الذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة، والانتلاف من الألفة أي المحبة والمودة، والاختلاف هو التباعد والتباغض»⁽⁴⁷⁾

وشبه في المثل الثاني المعك وهو مما يعقل بأمر محسوس (رجل السوء) ، والمعك معناه الظلم، أو هو تسميته له.

وفي المثل الثالث مثل للتسوية بين الناس بتساوي أسنان المشط في ترتيبها إلى جانب بعضها البعض، فهو يشبه معقول (التسوية) بأسنان المشط (محسوس)، حيث يصور التسوية في صورة تتابع أسنان المشط واستوائها إلى جانب بعضها مما يوضح المعنى المراد إيصاله، فيصبح شاخصا من خلال صورة الإنسان.

وهذا النوع من التشبيه محبب عند جمهور البلاغيين من حيث كونه يجلي المعنى ويوضحه ، فهو ينتقل بنا من المجرّد إلى المحسوس والمدرّك، فالسكاكي مثلا يضع عددا من

(44) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 261.

(45) - نفسه، ص 379.

(46) - نفسه، ص 197.

(47) - الإمام البخاري، صحيح البخاري، ضبطه ورقمه وذكر تكرار مواضعه وشرح ألفاظه وجمله وخرّج أحاديثه في صحيح مسلم ووضع فهارسه مصطفى ديب البغا، نشر مشترك موفم للنشر الجزائر ودار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع عين مليلة، 1992، كتاب الأنبياء، ج 3 ، باب (3) ، حديث رقم 3158 ، ص 1213.

المبادئ يؤسس عليها قبوله للتشبيه، إذ هو «مقبول لديه إذا ورد مجملاً غير مفصّل، وورد مألوفاً غير غريب، وورد حسياً غير مجرد» (48).

وذهب الرازي في ذات المذهب حيث لا يجوز تشبيه محسوس بمعقول، كما قولك: "الشمس كالحجة في الظهور"، و"المسك كخلق فلان في الطيب"، ويعتبر الرازي هذين المثالين من سخيّف التشبيه، لأن صاحبهما شبه أصلاً بفرع من جهة، ومن جهة أخرى شبه محسوساً بمعقول (49).

ذلك أن الغرض من التشبيه هو إجلاء المعنى وإيضاحه، وهذا لا يتسنى إلا من خلال نقل الذهن من المجرد إلى المحسوس، لأن الثاني مدرك من قبل الفرد، فكان الأجدر أن يقول "الحجة كالشمس في الظهر" و"خلق فلان كالمسك في الطيب"، فالشمس مشاهدة والمسك مشموم.

ج- تشبيه محسوس بمعقول: ويقصد به تجريد المحسوس وإعطاءه طابعاً ذهنياً

معقولاً، كمثل ما ورد في:

* مَا أَنْتَ إِلَّا كَابْنَةُ الْجَبَلِ. (50)

* سَوَاءٌ عَلَيْكَ هُوَ وَالْقَفْرُ. (51)

* فُلَانٌ بَيِّضَةُ الْبَلَدِ. (52)

ففي المثل الأول يشبه الإنسان بابنة الجبل، وهو من قبيل تشبيه المحسوس (الإنسان) بالمعقول (ابنة الجبل) لأن ابنة الجبل هي الصدى، ويضرب للإمعة الذي لا يقول برأيه ولا يتحدث من نفسه بل يتكلم بلسان غيره، ويتبع الناس في آرائهم.

والمثل الثاني يضرب للبخيل الذي لا خير عنده إذا وصف، إذ يشبهه البخيل (محسوس) بالقفر (معقول)، فكما القفر خالي لا ماء فيه ولا نبات كذلك البخيل لا خير عنده.

(48) - السكاكي، مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، مصر، 1356هـ-1937م، ص 166.

(49) - عبد الإله سليم، بنيات المشابهة في اللغة العربية- مقارنة معرفية- دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى،

2001، ص 24، 25.

(50) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 189.

(51) - نفسه، ص 430.

(52) - نفسه، ص 438.

والمثل الثالث يشبه فيه المرء (فلان) وهو ما يدرك بالحواس ببيضة البلد وهي تصور ذهني معقول ، فيه دلالة المدح والثناء.

ويجدر أن نشير إلى أن هذا النوع من التشبيه غير وارد بكثرة في مختلف التمثيلات والشواهد وحتى على مستوى المدونة موضوع البحث، ذلك أن بعض البلاغيين لا يجوزونه، والسبب في ذلك أن الغرض من التشبيه- في الحقيقة- هو إبانة المعنى وتوضيحه، أي تقريب الصورة من ذهن السامع، في حين أن هذا النوع من التشبيه هو تجريد لهذه المحسوسات، فهو بذلك إبعاد للصورة بدل تقريبها وإيضاحها.

ويورد القدماء الرأي نفسه ، حيث يحرص البلاغيون الأوائل على أن يطبع التشبيه بالحسية، لأن وظيفته في نظرهم التأكيد والوضوح والمبالغة في المعاني، فضلا على تزيينها، فهم بذلك يبنون تعميما مفاده أن المشبه به يجب أن يكون واضحا جليا، فاستحسنوا أن يكون محسوسا، رغم ما ورد في النص الشعري القديم، ونقصد بذلك بيت امرئ القيس الذي يقول فيه:

أَيْقُنُنِي وَالْمَشْرِفِي مَضَاجِعِي *** وَمَسْنُونَةٌ زُرُقٌ كَأَنْيَابِ أَعْوَالِ

ويؤيده ما جاء فيه القرآن الكريم من مثل الآية الكريمة التي يصف فيها سبحانه شجرة الزقوم قائلا: [طَأْعَهَا كَأَنَّهَ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ] (الصافات /65)، ورؤوس الشياطين ليست حسية ولا مشهورة أمام الأبصار ، والحال نفسه ينسحب على أنياب الغول.⁽⁵³⁾

وهذا لا يعني نفي تشبيه المحسوس بالمعقول لكن ذلك لم يستحسن بالنظر إلى غرض التشبيه وحال المشبه، ولأن كون المشبه به معقولا هو مما يلبس المعنى ستارا آخر من التجريد، والذي يعني بالضرورة غموضه بدل توضيحه.

د- تشبيه معقول بمعقول: وفيه يتم تشبيه أمر معقول بأمر معقول آخر، أو ما يمكن أن نسميه تجريد التجريد، لأن الشيء المعقول إنما هو مجرد لا ندركه إلا في أذهاننا ولا يمكننا إحساسه، فإذا شبّهناه بمعقول آخر أضفنا له تجريدا جديدا، لكن ربما يكتسب هذا التجريد المضاف معناه من خلال اشتهاره ووجوده كمثل ما ورد في:

* مَالِي إِلَّا دَنْبٌ صَحْرٌ أَوْ مَالِي دَنْبٌ إِلَّا دَنْبٌ صَحْرٌ.⁽⁵⁴⁾

(53) - عبد الإله سليم، بنيات المشابهة في اللغة العربية- مقارنة معرفية-، ص 128، 129.

(54) أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 385 .

* مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ. (55)

* إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا. (56)

* الرِّفْقُ يُمْنٌ وَالْأَنَاءُ سَعَادَةٌ * فَاسْتَأْنِ فِي رِفْقٍ تُلَاقٍ نَجَاحًا (57)

فالمثل الأول يضرب للذي يعاقب من غير ذنب ارتكبه، فيشبهه ذنبه وهو مما لا يدرك (معقول) بذنب صحر (المشبه به)، ويقدر القول بـ: (ذَنْبِي كَذَنْبِ صَحْرٍ)، والذنب (الثانية) غير محسوسة إلا أنها اكتسبت معناها من قصة صحر التي اشتهرت وعرفت، فكان وجه الإيضاح في هذا التشبيه ليس المشبه به نفسه إنما شيء اقترن به (صحر) وأشتهر بين الناس حتى صار معروفًا يدرك معناه لمجرد ذكره.

ومواعيد في المثل الثاني مشبه به حذف مشبهه لأن تقدير القول (مواعيده كمواعيد عرقوب) الذي يضرب في مخاطبة المخلف لوعوده، فالمواعيد هنا معقول أدرك معناه لإشتهار عرقوب ومعرفة الناس لقصته.

والمثل الثالث هو عبارة عن حديث نبوي ورد عن النبي ﷺ (إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا)، حيث شبه البيان هنا بالسحر، وما يقصد بهذا التشبيه هنا الفعالية أي أن مفعوله كمفعول السحر لأنه «يجلب القلوب ويغلب على النفوس ويؤثر عليها»⁽⁵⁸⁾، فالبيان أمر من المعقول والسحر كذلك، وإنما يتضح المشبه من خلال المشبه به لما للثاني من فعل وتأثير.

أما في البيت الشعري فيجمع النابغة ثلاثة أمثال تتضمن تشبيهين من قبيل تشبيه معقول بمعقول، حيث يشبه الرفق باليمن والأناة بالسعادة، والرفق من الترفق بالشيء أي الاعتناء به واليمن هو البركة، وكأنه يقول أن الرفق فيه بركة أو هو يترك البركة وهي النماء والزيادة، أما الأناة فجاء معناها في لسان العرب أنها «التؤدة وآنيت الشيء أحزن وقال ابن بري وشاهده الرفق يمن والأناة سعادة»⁽⁵⁹⁾.

ونلاحظ أنه في كلا التشبيهين ورد المشبه به والمشبه من الأمور المعقولة أو رغم ذلك فقد تضمن كل منهما معنى ربما كان مجردا غير أنه مصيب لهدفه وحامل لفكرة رائعة كما هو

(55) – نفسه، ص 113 .

(56) – نفسه، ص 16 .

(57) – أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 328 .

(58) – الإمام البخاري، صحيح البخاري، ضبطه ورقمه وذكر تكرار مواضعه وشرح ألفاظه وجمله وخرج أحاديثه في صحيح مسلم ووضع فهارسه مصطفى ديب البغا، كتاب النكاح، ج 5، باب الخطبة، حديث 4851، ص 1976.

(59) – ابن منظور، لسان العرب، مادة (أني)، مج 14، ص 49.

حال الأمثال، وغرضه كما يبدو الإرشاد وإسداء النصيحة مثلما توضيحه تكملة البيت (فأستأن في رفق تلاق نجاحا).

4-1-2- تقسيم التشبيه باعتبار أداة التشبيه:

وهو تقسيم ثاني للتشبيه تراعى فيه الأداة من حيث الذكر والحذف، وأداة التشبيه «كل لفظ بدل على المماثلة والاشتراك، وهي حرفان وأسماء وأفعال، وكلها تفيد قرب المشبه من المشبه به في صفته»⁽⁶⁰⁾، فالحرفان هما (الكاف وكأن)، والأسماء هي (مثل وشبه وما اشتق منهما)، ثم الأفعال وهي من مثل (علمت) نحو علمت زيدا أسدا، و(ظننت) نحو ظننت زيدا أسدا⁽⁶¹⁾، ويقسم البلاغيون التشبيه باعتبار الأداة إلى نوعين:

أ- التشبيه المرسل: وهو تشبيه ذكرت فيه الأداة سواء كانت حرفا أو اسما أو فعلا،

ويمكننا التمثيل لذلك من خلال الأمثلة الآتية:

* أَغْدَةٌ كَغَدَّةِ الْبَعِيرِ وَمَوْتًا فِي بَيْتِ سُلُوبِيَّةٍ. (62)

* كَأَنَّ بِرَحْلِهَا بَاتَتْ فَقَمَّ. (63)

* كَأَنَّمَا فُذَّ سَيْرُهُ الْيَوْمَ. (64)

* كَانَتْ عَلَيْهِمْ كَرَاغِيَّةِ الْبِكْرِ. (65)

فالكاف في المثل الأول وضعت للتشبيه، ويروى في أصل هذا المثل أن بنو سلول كانوا أذل العرب وأحطهم مكانة لاتصافهم باللؤم، وهو أخس الصفات على الإطلاق، وكان كل من اتصل بهم أصابه ما فيهم، لذلك كان الموت عندهم ذل⁽⁶⁶⁾، وضرب بالموت عندهم مثلا لمن اجتمعت فيه خلتي إساءة.

(60) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني- البيان- البديع، ص 271 .

(61) - محمد بن علي بن محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، ص 166 .

(62) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 374.

(63) - نفسه، ص 226 .

(64) - نفسه، ص 172 .

(65) - نفسه، ص 458 .

(66) - خير الدين شمسي باشا، معجم الأمثال العربية، 433 / 1 .

أما في المثل الثاني فقد استعملت أداة تشبيه مخالفة هي (كأن)، ويظهر أن هذا المثل مقتطع من كلام سابق، و (فقم) اسم ناقة، ويجوز أن نقدم في هذا المثل ونؤخر فنقول (كأن فقم باتت برحلها)، ومعنى ذلك أنها لم تشعر أحدا عندما كان صاحبها يضع متاعه عليها فلم ترغو، وقد يضرب هذا المثل لمن يفعل الأمر ولا يحس به أحدا، «ويرى أكثر علماء العربية أن كأن مركب من الكاف وإن وقالوا أن الأصل في (كأن زيد أسدا) (هو) (إن زيدا كالأسد) ثم قدم حرف التشبيه للاهتمام به وفتحت همزة (إن) لدخول الجار (الكاف) وما بعد الكاف جريها»⁽⁶⁷⁾. و(كأن) كما هو معروف من أخوات (إن) تدخل على الجملة الاسمية (برحلها باتت فقم) فتتصب المبتدأ أو يسمى اسمها وتبقى الخبر مرفوعا ويسمى خبرها، وتفيد معنى التشبيه، لذلك قلنا أن هذا المثل يقدر بصيغة (كأن فقم باتت برحلها)، أو على تأويل آخر (فقم كالباتة برحلها) أو (فقم كالتى باتت برحلها) أو (كأن فقم التي باتت برحلها).

وجاءت أداة التشبيه في المثل الثالث (كأنما) وهي حرف تشبيه لم يرد كثير مثل بقية الحروف والأسماء والأفعال الأخرى، ويظهر أنه مركب من (كأن) و(ما) أو من (الكاف) (إنما)، وفيها معنى (كأن) منفردة إذ صيغة المثل (كأنما قد سيره اليوم) تدل على أنه ابتداء شبابه اليوم، ويضرب للشيخ المسن إذا أظهر تصرف الشباب أو تزيا بزى الأحداث، وقال الزمخشري «يضرب لمن لا يتغير شبابه على طول الزمان»⁽⁶⁸⁾.

ويظهر أن هناك محذوف هو المشبه الذي يقدر في المعنى فنقول (كأنما الشيخ قد سيره اليوم) أو (الشيخ كمن قُدَّ سيره اليوم)، وهنا نجد يشبه حال الشيخ في أنه ذاك بحال الشاب المكتمل قوة وفتوة.

ويرد المثل الرابع متضمنا أداة التشبيه (الكاف)، والتي تعتبر من أشهر أدوات التشبيه وأكثرها استعمالا ودلالة على معنى المشابهة، حيث يضرب المثل «للشؤم يجتلبه إنسان على من سواه»⁽⁶⁹⁾ فيقال (كانت عليهم كراغية البكر)، وراغية البكر هي ناقة ثمود التي عقروها فكان ذلك مجلب الشؤم والسوء لهم⁽⁷⁰⁾، وتاء التأنيث في (كانت) هي المشبه ويقصد بها كل ما يجلب الشؤم والسوء يشبه بناقة ثمود.

(67) – عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني.....، ص 273 .

(68) – خير الدين شميمي باشا، معجم الأمثال العربية، 2/ 1816، 1817.

(69) – أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 458.

(70) – خير الدين شميمي باشا، معجم الأمثال العربية، 2/ 1811، 1812.

ويعتبر هذا النوع من التشبيه أي المرسل أوضح التشبيهات وأجلاها ، لأنها تتوفر على جل عناصر التشبيه (المشبه، المشبه به، الأداة)، كما أنها أي الأداة في التشبيه «تحافظ على استقلال الطرفين [طرفي التشبيه]، وترد توهم التداخل الكلي أو التفاعل بينهما»⁽⁷¹⁾.

فضلا على أن التشبيه المرسل له قدرة أكثر من غيره في توضيح الصورة للسامع من خلال جمعه بين الطرفين تربط بينهما أداة التشبيه ، التي تحمل في نفسها معنا يكمله ظهور الطرفين في تشكيل لغوي واحد، مما يولد إدراكا لدى السامع أو الملتقى لهذه الصورة، بالتالي ترسيخه في الذهن، والذي بدوره يأتي بعد التشخيص الذي يمارسه صاحب التشبيه بكونه يقرن صورتين تعمل الثانية على توضيح الأولى.

ويظهر ذلك أكثر في تشبيه محسوس بمحسوس لكنه يؤدي دورا أفضل في حال تشبيه معقول بمحسوس ، وينقاض هذا الدور إذا ما كان المشبه محسوسا والمشبه به معقول، أو جاء الطرفان معقولين، وذلك أن الأمور العقلية لا يدركها إلا ذوي الأفهام وربما أدت إلى الغموض- بدل الإيضاح- عند من هم دون ذلك مستوى.

ب- التشبيه المؤكد:

وهو عكس النوع السابق، حيث يعرف على أنه تشبيه حذفته منه الأداة، حتى كأن المشبه والمشبه به شيئا واحدا لأنهما يتطابقان ويتمثالان في كل الصفات وقد نجده في تقسيم لاحق تحت تسمية (التشبيه البليغ) ونمثل لذلك بعدد من الأمثال:

* هُوَ السَّمْنُ لَا يَخْمُ.⁽⁷²⁾

* المَاءُ مَلَأُ أَمْرِي.⁽⁷³⁾

فالمثل الأول يضرب للرجل النافع الذي لا يضر وهو خالص من كل شيء، فيشبهه بالسمن الذي لا يخم أي الذي لا يفسد ، وأورد الميداني في معنى ذلك : خم اللحم يخم خموما إذا أنتى شواء كان أو طبيخا⁽⁷⁴⁾، وجاء تشبيه الرجل (هو) بالسمن الذي لا يخم أي هو باق

(71) - عبد الإله سليم، بنيات المشابهة في اللغة العربية - مقارنة معرفية-، ص 26.

(72) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 192.

(73) - نفسه، ص 518.

(74) - الميداني، مجمع الأمثال، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، طبعة منقحة جديدة، 472 / 2.

على دوامه وعلى حاله لا يتغير ولا تؤثر فيه الظروف كالسمن الصافي الذي لا تفسده ظروف الطبيعة وتغير الفصول.

لكن التشبيه هنا لم يقع بالأداة، إنما ورد بدونها حيث نحس أن المشبه به والمشبه يوشك أن يكونا شيئاً واحداً وأن تتطابق صفاتهما، لولا أن خاطر يرد بعدم تماثلها، فالرجل رجل والسمن سمن، ولعل ما جعل صاحب التشبيه يفعل ذلك هو شدة إعجابه بالرجل حتى أنه أراد أن يبلغ به مبلغاً كبيراً في المدح والثناء، لأن الغرض كما هو ظاهر مدحي إلى درجة المبالغة. وورد المثل الثاني كذلك في شكل تشبيه حذفته منه الأداة، وذكر فيه الطرفان في صيغة (الماء ملك أمري) أي أن الماء ملاك الأشياء ودليل ذلك قوله تعالى: [وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ] (/) ، أي أن الماء له حكم وجود الأشياء لما له من فضل في دوامها، ونرى أن المثل جعل الماء ملكاً، وله حق الحكم في الأمور، وربما كان هذا المثل من أكثر الأمثال ارتباطاً بالبيئة العربية القديمة ، حيث كان الناس يحلون ويرحلون مراعاة لمواطن الماء والكلاء.

وذلك هو مغزى المثل حيث يصبح الماء ملك أمر الرجل فهو الذي يوجهه ويرفع من قدره أو يحط به، ويحييه أو يميته، وكما يظهر أن أصل المثل في هذا الموضوع وأن مورده يعود إلى ترحال العرب ومقامهم، ولعلنا لا نلمح مبالغة كبيرة مثلما نجدها في باقي التشبيهات المؤكدة لأن الأمر يرجع إلى عنصر أساسي في حياة البشر، وقد يضرب المثل لغير ذلك على سبيل التكنية والإنابة.

ونلاحظ أن هذا النوع من التشبيه فيه الكثير من المبالغة في وصف الأشياء، وقد ورد ذلك كثيراً في الأمثال، لأن المبالغة تطبع هذا النوع من الكلام لأغراضه المتعددة من مثل النصح والإرشاد وإعطاء العبرة والتمثيل للمواقف، كما نجد أن من هذه المبالغات ما ورد على غير هذه الصيغة في شكل أفعال تفضيل وصيغ المبالغة الأخرى من مثل فعال، مفعول فعيل.

4-1-3- تقسيم التشبيه باعتبار وجه الشبه:

تتاولنا تقسيم التشبيه من حيث طرفيه ثم من حيث أداة التشبيه، ونحن الآن نقسمه -
إتباعاً لما أورده علماء البلاغة- من حيث وجه الشبه.

وجه الشبه هو المعنى الذي يشترك فيه طرفا التشبيه تحقيقاً أو تخيلاً، والمراد بالتحقيق هنا أن يتقرر المعنى المشترك في كلا الطرفين على وجه التحقيق [...] ، وذلك نحو تشبيه

الشعر بالليل ، ووجه الشبه هنا هو السواد ، وهو مأخوذ من صفة موجودة في كل منهما وجودا حقيقيا، وإن كان من فرق في وجود الصفة ، فهو في درجة قوتها وضعفها، والمراد بالتخييل أن يمكن وجود الصفة في المشبه به إلا على سبيل التأويل والتخييل كقول القاضي التنوخي:

وَكَاَنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا *** سُنُّنٌ لَاحَ بَيْنَهُنَّ إِبْتِدَاعٌ⁽⁷⁵⁾

ووجه الشبه- كطرفي التشبيه- قد يكون حسيا كالحمرة في تشبيه الخد بالورد [...] وقد

يكون عقليا كمطلق الهداية في قوله **ع**: «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بَأْيِهِمْ اِقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ»⁽⁷⁶⁾.

ويقسم علماء البلاغة التشبيه بالنظر إلى وجه الشبه، إلى قسمين أيضا :

أ- التشبيه المجمل:

وهو ما حذف فيه وجه الشبه ، فذكر التشبيه مجملا لا تفصيل فيه، بل يكتفي فيه بذكر المشبه والمشبه به دون تفسير لصفة إشتراكهما (وجه الشبه).

ونوضح ذلك أكثر إذا ما مثلنا له بعدد من الأمثلة كقول العرب (كَمُسْتَبْضِعِ التَّمْرِ إِلَى هَجْرٍ)⁽⁷⁷⁾، والمستبضع صاحب البضاعة أي البائع، وتعني عملية نقله للسلعة من مكان إلى آخر قصد بيعها، أما هجر فهي اسم مكان يقال أنه «مثل خبير في كثرة نخلها»⁽⁷⁸⁾، وقال الميداني أنه مثل مبتذل.

ونجد أن المشبه محذوف مقدر في مضرب المثل لأنه يضرب للذي ينقل الأشياء من مكان تعز فيه إلى مكان تكثر فيه ويريد بيعها، كذلك حال من ينقل التمر إلى هجر ويبغي بيعه فيها، وهي مما يكثر فيه النخل، ولاشك أن في هذا المثل دلالة على قلة الإدراك والذكاء، إلا أن ذلك لم يذكر فصار مما هو مخفي أو محذوف، وأداة التشبيه هنا واضحة هي الكاف [أشهر مما عرف من أدوات التشبيه].

وورد أيضا في أمثال العرب ومما هو مأثور عنهم قولهم (كَمُبْتَغِي الصَّيْدِ فِي عَرِيْسَةِ الْأَسَدِ)⁽⁷⁹⁾، فالمشبه كما هو حال سابقه مقدر فيما يضرب فيه المثل لمن يطلب المحال ، أو

⁽⁷⁵⁾ - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية: علم المعاني - البيان - البديع، ص 277.

⁽⁷⁶⁾ - نفسه، ص 279، 280.

⁽⁷⁷⁾ - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 413.

⁽⁷⁸⁾ - الميداني، مجمع الأمثال، 129/2.

⁽⁷⁹⁾ - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 363.

الحاجة تؤدي صاحبها إلى الهلاك، أما المشبه به فهو (مبتغي الصيد في عريسة الأسد)، وربما نلاحظ أن التشبيه هنا وقع في الفعل، أي أن الذي يطلب المحال كمن يريد الصيد في عريسة الأسد التي يقصد بها عرينه أو بيته.

ونلاحظ أن وجه الشبه هنا لم يذكر، إنما يمكن أن يفهم من خلال مضرب المثل، وربما كان ذلك تميزاً وانفراداً في حالة وقوع التشبيه المجمل في المثل لا نجده في غيره من الصيغ والفنون، لما لمضرب المثل من دلالة قوية قد تطابق في أحيان كثيرة مورد المثل وقصته الأصلية.

وتقول العرب أيضاً في من يطلب الخلاص من مصيبة فيجد نفسه قد وقع فيما هو أدهى منها (كَالْمُسْتَعِيثِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ)⁽⁸⁰⁾، ويورد الميداني بشأن هذا المثل أنه «يضرب للمرء يجمع الخلتين من الإساءة»⁽⁸¹⁾، فالمستعيث هو من يطلب الغيث أو النجدة، والرمضاء من الرمض وهو شهر الحر، قديماً ومنه جاء رمضان لاشتداد العطش فيه، والنار معروفة .

والظاهر أن (المستعيث من الرمضاء بالنار) هو المشبه به، والمشبه مقدر في معنى المثل أو مضربه، والكاف حرف التشبيه وأداته، أما وجه الشبه فهو محذوف لما يوضحه هذا النوع من التشبيه (المجمل).

وأحسب أن معنى المثل ومضربه على غير ما أورده الميداني، لأننا نقول فيمن اجتمعت فيه الخليتين من الإساءة (أَكْسَفًا وَإِمْسَاكًا) وهو مثل آخر ورد في ضمن ما تناولناه من أمثال في المدونة، أو نقول (أَحْسَفًا وَسُوءَ كَيْلَةٍ) وهو مثل معروف أيضاً، أما في حال هذا المثل فهو يضرب للرجل يطلب الخلاص من مصيبة فيقع فيما هي أدهى منها، فيكون للذي سار إلى حتفه بنفسه، وذلك يؤيده ما أورده العسكري من حيث إنه مثل يضرب للرجل يطلب منه الخيار بين أمرين (أحلاهما مر كما يقال) أو للذي يستنجد بما هو أشد مما هو فيه⁽⁸²⁾.

يمكن القول في آخر هذا الحديث أن التشبيه المجمل لا يعني بالضرورة عدم وجود وجه الشبه إنما عدم الوجود هنا يقتصر على عدم ظهور وجه الشبه في صيغة أو أسلوب التشبيه كما نجده مثلاً في نحو: (الوجه كالشمس في الاستدارة) فوجه الشبه هنا ظاهراً وهو (الاستدارة)

(80) – ورد هذا المثل في فهرس الأمثال في آخر كتاب "فصل المقال في شرح كتاب الأمثال" لأبي عبيد البكري، لكنني لم أجده في الصفحة المشار إليها (ص3).

(81) – الميداني، مجمع الأمثال، 2/ 125.

(82) – خير الدين شمسي باشا، معجم الأمثال العربية، 1215/2.

، هذا ما يقصد فيه بالحذف في حالة التشبيه المجلد إلا أن هذا الحذف يبقى في الظاهر فحسب، بينما نجد ما يدل عليه على مستوى المعنى والسياق. ويبدو ذلك واضحا في حالة المثل لتمييزه بصورة خاصة ، لأن بنيته اللغوية والمعنوية تتفرد بصفات لا توجد في غيره من أنواع الكلام الأخرى، وفي الغالب يقدر وجه الشبه في مضرب المثل .

ب- التشبيه المفصل:

وسمي بالمفصل لأن التشبيه فيه واضح بكل عناصره، ففيه المشبه والمشبه به وأداة التشبيه ووجه الشبه، ونمثل لذلك بالأمثال الآتية:

* إِنَّ الْعَالِمَ كَالْحَمَّةِ يَأْتِيهَا الْبُعْدَاءُ وَيَزْهَدُ فِيهَا الْقُرْبَاءُ. (83)

* كَالْأَشْقَرِ إِنْ تَقَدَّمَ نُحِرَ وَإِنْ تَأَخَّرَ عُقِرَ. (84)

* مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ تُمِيلُهَا الرِّيحُ مَرَّةً هَاهُنَا وَمَرَّةً هَا هُنَاكَ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ الْمُجْدِيَةِ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى يَكُونَ إِنْجِعَافُهَا مَرَّةً. (85)

فالحمة في المثل الأول تعني العين الحارة يستشفى بمائها، ويضرب هذا المثل للعالم يضيع في بلده وبين أهله، حيث يشبه بالعين الحارة التي يأتيها البعداء ويزهد فيها القرباء، ووجه الشبه متضمن في عبارة (يأتيها البعداء ويزهد فيها القرباء).

ونلاحظ أن وجه الشبه في هذا المثل قد أعطى لمعناه وضوحا أكثر ودلالة أوسع، بحيث يمكن أن يستعمل في مواقف مشابهة لمضربه، وذلك ما أضفناه وجود وجه الشبه، فلو أننا قلنا (إن العالم كالحمة) وحذفنا وجه الشبه لألبسنا المثل غموضا وإبهاما وكان مقتصرًا على العالم دون غيره.

وكذلك كان حال التشبيه في المثل الثاني (كالأشقر إن تقدم نحر وإن تأخر عقير)، فالأشقر اسم الفرس الذي قيل بشأنه أن كان مجففا أي مجلا بالديباج والزينة وذكر أن التجفاف قد يكون سلاحا أو آلة تقي الفرس الجراح⁽⁸⁶⁾، ويضرب هذا المثل للرجل تجتمع فيه الخلتين من

(83) – أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 303.

(84) – نفسه، ص 376.

(85) – نفسه، ص 7.

(86) – أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 376.

الإساءة يشبه بالأشقر أدى به كونه مجففا إلى النحر أو العقر، فهو هالك لا محالة كالرجل تؤدي به صفة الإساءة إلى الهلاك، فالرجل المضروب بشأنه المثل هو المشبه والأشقر الذي ذكر هو المشبه به ووجه الشبه متضمن في (إن تقدم نحر وإن تأخر عقر)، والنحر والعقر كلاهما يعني القتل لكن الطريقة لكل منهما تختلف، فالنحر هو الذبح بالسكين وليس بغيره والعقر هو الضرب بآلة حادة في موضع الذبح.

وورد التشبيه كذلك في المثل الثالث بمثل ما ورد في سابقه حيث ذكر وجه الشبه ذكرا واضحا وجليا، وهو كما يظهر حديث نبوي أثر عليه **ع** حين مقارنته بين المؤمن والكافر، وقد عمد فيه إلى تشبيه كل منهما بما يمثله ويجلي صورته، فالمؤمن جعله كالخامة وهي الغضة الرطبة من الزرع أول ما يستقل على ساق⁽⁸⁷⁾، تميلها الريح مرة هاهنا ومرة ها هناك ووردت في الصحيح تقيئها (ة) وتعدها مرة⁽⁸⁸⁾.

وذلك أن المؤمن مرزأ في نفسه وأهله وولده وماله⁽⁸⁹⁾، لكنه رغم ذلك يثبت ويصمد لأنه يعرف أن كل هذا إنما هو اختبار وامتحان من عند الخالق، وفي المقابل وعلى اعتبار المقارنة نجد الكافر كالأرزة المجذبة على الأرض حتى يكون إنجعافها، والأرزة شجر معروف وهو من أصلب الخشب، والمجذبة الثابتة القائمة، والإنجعاف هو السقوط والإنقلاع، فهو أي الكافر لا يمتحن في شيء مما يليه [لأنه بدوره لا يحس بذلك الامتحان ولا وقاية له لتجاوزه]، فشبّه موته بالإنجعاف حتى يلقي الله بذنوبه كاملة⁽⁹⁰⁾، وورد في الصحيح «كالأرزة لا تزال حتى يكون إنجعافها مرة واحدة أي تبقى قائمة لا تلين حتى يكون إنقلاعها مرة واحدة»⁽⁹¹⁾.

ونلاحظ أن هذا المثل يعطينا صورة كاملة للتشبيه، يقارن فيها الرسول **ع** بين النقيضين ممثلا لكل منهما بهيئة تمكّن من إدراك وفهم المعنى أو ذلك ما يصبو إليه الرسول **ع** من وراء هذا الحديث، وهذا الأسلوب (أي المشابهة) كثر إيراده في الأحاديث النبوية لأنها تحمل رسالة تحاول إيصالها مستعملة شتى الطرق والوسائل والتشبيه إحداها، كذلك كان حال الآيات القرآنية التي كثيرا ما أوردت هذا النوع من التمثيل كما جاء في قوله تعالى يتحدث عن المنافقين]

(87) - نفسه، ص 7.

(88) - الإمام البخاري، صحيح البخاري، كتاب المرض، ج 5، باب كفارة المرض، حديث 5319، ص 2137.

(89) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 8.

(90) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 8.

(91) - الإمام البخاري، صحيح البخاري، كتاب المرض، ج 5، باب كفارة المرض، حديث 5319، ص 2137.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ] (البقرة /17).

ونلاحظ أن التشبيه المفصل رغم وضوحه وتوفر كل عناصره إلا أنه من الناحية البلاغية ربما أعتبر أقل قيمة لأن هذا التفصيل قد يكون ليس ضروريا في أحيان كثيرة. وقد يقسم التشبيه -إضافة إلى ما سبق- إلى أنواع أخرى وباعتبارات مختلفة عن السابقة، أشهر منها عند البلاغيين أربعة:

أ-التشبيه البليغ: وهو ما حذف منه الأداة ووجه الشبه معا، ولنا أن نمثل له بالأمثال

الآتية:

* السِّرُّ أَمَانَةٌ. (92)

* العِدَّةُ عَطِيَّةٌ. (93)

* الْمُؤْمِنُ مِرَاةٌ أَخِيهِ. (94)

* تَرَكَهُ تَرَكَ ظَنِي ظِلَّهُ. (95)

* ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصِّرَاطُ سُوْرٌ فِيهِ أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ، وَعَلَى تِلْكَ الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: ادْخُلُوا الصِّرَاطَ وَلَا تَعُوجُوا. قَالَ: فَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورُ حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي هُوَ الْقُرْآنُ. (96)

فالمثل الأول يضرب في حفظ اللسان في كتمان السر وترك النطق به⁽⁹⁷⁾، فيشبه السر بالأمانة لما له من قيمة وخصوصية، لكن هذا التشبيه يقع بدون الأداة ولا ذكر وجه الشبه، فالمشبه (السر) والمشبه به (الأمانة) يصيرا شيئا واحدا إلى درجة التطابق، ونلاحظ أن هذا المثل إنما المقصود به النصح والإرشاد والتوجيه.

(92) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 56.

(93) - نفسه، ص 84.

(94) - نفسه، ص 275.

(95) - نفسه، ص 267.

(96) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 6.

(97) - نفسه، ص 56.

وشبه في المثل الثاني العدة بالعطية، ونسبت العدة إلى الموعدة وقيل هي الوعد، وروى علماؤنا أن هذا المثل هو حديث مرفوع ، وروي عن عوف بن النعمان الشيباني أنه قال في الجاهلية الجهلاء: لأن أموت عطشا أحب إلي من أن أكون مخالفا للموعدة⁽⁹⁸⁾، وقد جاء هذا التشبيه بغير الأداة، ويظهر أن معنى المثل يشير إلى أن الوعد بالعطية أحيانا خير من العطية نفسها ، أو هو يماثلها لأنه يعطي الأمل بالعطية، ويقول المثل الشعبي "اللّي خَرَجَتْ مِنْ الفُومِ تَشَمَى دَيْنٌ"⁽⁹⁹⁾، وحذف الأداة من التشبيه يولد تمازجا بين المشبه والمشبه به، ولعل الغرض من ذلك إعلاء قيمة الوعد بالشيء لأن الواجب فيه الوفاء به.

وكذلك كان الحال في المثل الثالث (المؤمن مرآة أخيه)، والمثل الرابع (تركته ترك ظبي ظله)، وأيضا في الخامس الذي هو عبارة عن حديث نبوي ، فالمؤمن (مشبه) يشبه بالمرآة يتضح فيه ما يتصف به أخيه ، و ينعكس في تصرفاته، وذلك ما للمؤمنين من تقارب في السلوك والصفات، إلا أن هذا التشبيه وقع بغير الأداة ، لما للدين من أثر في الناس يجعلهم يتماثلون ويتشابهون ولأجل هذا كانت المبالغة التي تتولد من حذف الأداة، وكان ترك الظبي لظله (مشبه به) في المثل الرابع لأنه أي الظبي إذا ترك ظله لا يعود إليه أبدا، فهذا المثل يضرب في الحديث عن هجران المرء صاحبه.

أما في الحديث النبوي فالإسلام وحدود الله ومحارم الله (كل منها مشبه به) ، ذكر على سبيل التأويل وإعطاء الحديث بعدا تفسيريا إيضاحيا في تقريب الصورة لمن يتلقى الحديث ليفهمه ويتعظ به، فالصراط والسور والأبواب المفتحة أمور محسوسة شبهت بأمور عقلية لغرض تجريدتها (الإسلام، حدود الله، محارم الله)، وربما كان الأمر عكسيا، وكان ذلك من قبيل ما يسمى بالتشبيه المقلوب أو الطرد كما أطلق عليه ابن الأثير.

ونلاحظ أن هذا النوع من التشبيه فيه الكثير من المبالغة، وربما كان غامضا لعدم ورود وجه الشبه، كما يعتبر التشبيه البليغ «أعلى مراتب التشبيه في البلاغة وقوة المبالغة ، لما فيه من ادعاء أن المشبه هو عين المشبه به، ولما فيه من الإيجاز الناشئ عن حذف الأداة والوجه معا ، هذا الإيجاز الذي يجعل نفس السامع تذهب كل مذهب..»⁽¹⁰⁰⁾، وهذا ما أشرنا إليه

(98) - نفسه، ص 84.

(99) - قادة بوتارن، الأمثال الشعبية الجزائرية - بالأمثال يتضح المقال، ترجمة عبد الرحمن حاج صالح، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر العاصمة، الجزائر.

(100) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني، ص 299.

بالتداخل بين المشبه والمشبه به مما يولد المبالغة، ويذهب إلى الغموض لعدم وجود التفصيل مع حذف وجه الشبه.

ب- التشبيه التمثيلي:

ويقصد به ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد أمرين أو أمور [...] ولا يشترط فيه كون الصورة حسية أو معنوية⁽¹⁰¹⁾، أي أن وجه الشبه لا يظهر مباشرة في صيغة التشبيه بشكل كلمة أو عدة كلمات، إنما هو عدد من العناصر يجمعها المتلقي لرسم وجه الشبه، ونوضح ذلك من خلال ما يرد في الأمثال الآتية:

* هَا أَنَا ذَا أَمُوتُ حَتَفَ أَنْفِي كَمَا يَمُوتُ الْبَعِيرُ. (102)

* أَصْبِرُ مِنْ عَوْدِ بَدْفِيهِ الْجَلْبُ. (103)

* أَهْوَنُ مَظْلُومٍ سِقَاءُ مَرْوَبٍ. (104)

ففي المثل الأول يشبه موته بموت البعير، ووجه الشبه (حتف أنفه)، ويضرب في من يسعى بأمور يكون فيه نهايته أو هلاكه، وقد لا يكون بمعنى الموت الفعلي، إنما هو بمعنى الخسارة أو خيبة الأمل، ووجه الشبه هنا منتزع من الموت، وليس أي موت إنما هو موت يسعى الميت إليه.

والمشبه في المثل التالي محذوف هو (أنا) مقدر في لفظ المبالغة (أصبر) أي (أنا أصبر من عود بدفيه الجلب)، ودفيد أي جنبيه، والعود أي الواحد من الخيل المسن والجلب آثار الدبر أو الجرب⁽¹⁰⁵⁾.

وورد أن هذا المثل جزء من بيت شعري قاله حلحلة ابن قيس بن أشيم عندما طلب منه

الصبر:

أَصْبِرُ مِنْ عَوْدِ بَدْفِيهِ جُلْبُ * * * قَدْ أَثَّرَ الْبِطَانَ فِيهِ وَالْحَقْبُ (106)

(101) - نفسه، ص 280، 281.

(102) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 440.

(103) - نفسه، ص 498.

(104) - نفسه، ص 184.

(105) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 498.

(106) - خير الدين شمسي باشا، معجم الأمثال العربية، 335/1، 336.

فهو أي صاحب المثل إذ يتحدث عن صبره يقابل بين صورته في الصبر وصورة العود الذي بجذبيه الجرب يعاني من آثاره ، وهو رغم ذلك صامد صابر وجلد، ومن هنا ينتزع وجه الشبه، ويبدو ماثراً وصادقاً في ذلك، لأنه في تصويره لصبره ذاك مقارناً إياه بصبر الخيل المسن يعاني الجرب في جنبه وليس في جنب واحد.

وورد التمثيل في المثل الثالث بصورة أخرى (أهون مظلوم سقاء مروّب)، حيث يقابل بين هو أن المظلوم الإنسان وهوان شيء آخر هو السقاء المروّب أي «الذي يسقى منه قبل أن يمحض وينزع زبده»⁽¹⁰⁷⁾، ومعنى الظلم هنا أن يسقى أو يشرب قبل أن يروّب، وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ويضرب هذا المثل للرجل الذليل المستضعف الذي يقابل هوانه بهوان سقاء مروّب .

والتمثيل من أكثر صور التشبيه استعمالاً لما له من قدرة على توضيح المعنى وإبرازه من خلال تشخيصه في صور تتكامل في مجموعها لتجلي المعنى ، وتزيد الكلام جمالاً وبلاغة.

ج- التشبيه الضمني:

أحياناً لا تظهر صورة التشبيه كاملة بل يلمح المشبه والمشبه به لمحا في أثناء الكلام ويسمى التشبيه في هذه الحالة ضمناً أي أمراً متضمناً⁽¹⁰⁸⁾، وبيان ذلك أن الكاتب أو الشاعر قد يلجأ عند التعبير عن بعض أفكاره إلى أسلوب يوجي بالتشبيه من غير أن يصرح به في صورة من صور المعروفة⁽¹⁰⁹⁾، وذلك أن التشبيه في هذه الحالة لا يظهر في شكله العادي والمعروف من حيث ورود المشبه أولاً ثم المشبه به تتوسطهما أداة التشبيه ويليها وجه الشبه، ونوضح ذلك من خلال الأمثال الآتية:

* إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا. (110)

* سَوَاءٌ عَلَيْكَ هُوَ وَالْقَفْرِ. (111)

(107) - نفسه ، 697 / 1.

(108) - السيد أحمد خليل، المدخل إلى البلاغة العربية، ص 229.

(109) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني.....، ص 296، 295.

(110) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 16.

* قَدْ اتَّخَذَ فُلَانٌ الْبَاطِلَ دَعْلًا. (112)

* لِذِي الْحِلْمِ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تُفْرَعُ الْعَصَا * * وَمَا عَلَّمَ الْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْلَمَ (113).

فالبيان في الحديث النبوي يقابل بالسكر بغرض المشابهة بينهما، لكن الأمر لم يكن ظاهر فلم يقل الرسول ρ البيان كالسكر، إنما صيغة الحديث تدل على المشابهة، وذلك لوجود قرينة هي قرينة الفعل، أو أن البيان فعله كفعل السكر من حيث جلب القلوب والغلبة على النفوس والتأثير عليها (114).

ويضرب هذا المثل في استحسان المنطق وإيراد الحجة البالغة (115)، مما يدل على الإعجاب بالبيان، لكننا نلمس في هذا الإعجاب تحذير خفي من فعل البيان في مقابلته بالسكر، لأن السكر في الغالب يستعمل في إلحاق الضرر وينجم عنه الفساد، فالرسول ρ في حديثه هذا معجب بالبيان لكنه لا يخفي خوفه من تأثيره، لذلك يقابله بالسكر.

أما المثل الثاني (سواء عليك هو والفقير)، فيضرب للبخل الذي لا خير عنده إذا نعت، بمعنى أنه بمنزلة القفار المحملة (116)، والقفار من القفر وهو المكان الخالي من العباد والخيرات، هنا تدل على البخل (المشبه) والفقير (المشبه به)، واستعملت لفظة (سواء) للمساواة بينهما بقرينة هي الانعدام والخلو، فالبخل يخلو من صفات الكرم وتتعدم عنده العطفية، والفقير يخلو من العباد، وينعدم فيه الخير، ولا تظهر المشابهة أو التشبيه بصورة واضحة فيه إنما تستفاد من فهم صيغة المثل وتحليل عبارته.

فهو من قبيل التشبيه الضمني الذي لا تظهر فيه عناصر التشبيه بشكل واضح، بل تفهم من صيغته، فحسب وكأنه يقول لك (هو كالقفر) أو (البخل كالقفر) أو (استفادتك منه كاستفادتك من القفر) أو (عطاءه كعطاء القفر)، إلى غير ذلك من الصيغ التي قد تعوض هذا المثل من حيث المعنى.

(111) - نفسه، ص 430.

(112) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 381.

(113) - نفسه، ص 148، البيت منسوب إلى المتلمس الضبيعي (جرير بن عبد العزى، أو عبد المسيح من بني ضبيعة من (ربيعية) شاعر جاهلي من أهل البحرين وهو خال طرفة بن العبد (من أصحاب المعلقات) (البيت من بحر الطويل).

(114) - الإمام البخاري، صحيح البخاري، كتاب النكاح، ج 5، ، باب الخطبة، حديث 4851، ص 1976.

(115) - خير الدين شمسى باشا، معجم الأمثال العربية، 611/1.

(116) - خير الدين شمسى باشا، معجم الأمثال العربية، 1331/2.

ويظهر التشبيه الضمني في المثل الثالث حيث يشبه الباطل بالدغل، والدغل نبات متلف⁽¹¹⁷⁾، يسهل الاختباء فيه، وهذا المعنى يصبح قرينة المشابهة بين الباطل والدغل، حيث يصير معنى المثل اتخذ الباطل كستر لكل أعماله، أو صار الباطل كأنه الستر لكل أعماله، فالباطل هو المشبه والدغل أو الستر (المشبه به)، ووجه الشبه مأخوذ من معنى الدغل، ويضرب هذا المثل لمن جعل الباطل مطية لنفسه يركبها كلما أنى له الكذب والخداع، ظنا منه أنه رداء يستره ويحجبه عن هم حوله ويمنعهم عنه.

أما البيت الشعري فيربط فيه التشبيه الضمني بين طرفيه الصدر والعجز، ويضرب هذا المثل للرجل الجزل الرأي الذي يستشفى برأيه، ومعناه أن للحكيم قبل اليوم قرعت العصا ذلك أن المرء ناقص لا محال حتى لو كان حكيما فإنه يحتاج إلى قرع العصا من حين لآخر لتتبيهه، وقول ذلك بالعجز في قوله (وما علم الإنسان إلا ليعلما)، حيث نلاحظ المشابهة بين قرع العصا للحكيم رغم ذكائه وفطنته، وتعليم الإنسان، ولكل في ذلك غرض هو الانتباه والاتعاظ والحيلة وهذا هو وجه الشبه فيما يبدو.

وربما كان هذا النوع من التشبيه لا يرد كثيرا في الأمثال أو أنه كان مميزا لنوع واحد منها هو ما يسمى بالأمثال الحكمية، لأنه صعب الفهم لا يدركه كل الناس ولا يفهمه إلا القليل منهم، سواء من يستعمله أو من يتلقاه، ولأن صورته (التشبيه) لا تظهر مباشرة ولا يفهم مغزاه إلا بعد التحليل.

(117) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 381.

ونصل في الختام إلى أن الفائدة من التشبيه هي على حد قول ابن الأثير: «أنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه أو التفتير منه، ألا تر أنك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا حسنا يدعو إلى الترغيب فيه [والعكس]...»⁽¹¹⁸⁾، وذلك ما لمسنا تحققه في شكل المثل، لأن التشبيه فيه كان أحد الأمور والميزات التي حققت له قبولا ووضوحا وفهما ، بالتالي تحققا وشيوعا في مختلف المستويات.

4-2- الكناية:

إن المراد بالكناية من ظاهر لفظها هو ذكر الشيء بما ينوب عنه، أو يدل على معناه دون تصريح باسمه، ويعرفها الجرجاني بقوله: «أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه، مثال ذلك قولهم: هو طويل النجاد يريدون طويل القامة وكثير رماد القدر يعنون كثير القرى (أي المضياف) ...»⁽¹¹⁹⁾، فهي إذن-أي الكناية- لفظ يطلق ولا يراد به ظاهر معناه إنما يوضع لمعنى أراداه واضعه.

كما يعرفها ابن الأثير بقوله: «حد الكناية الجامع لها هو أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، والدليل على ذلك أنها تتحدث عن شيء وتريد غيره فيجوز بذلك إرادة المعنى الذي تتحدث عنه والذي تريده»⁽¹²⁰⁾.

فالكناية عن ابن الأثير إذن لها معنيان ، حقيقي هو في أصل وضع اللفظ، ومجاز في استعماله وإرادة معنى آخر به ، ويجوز -في رأيه- حملها على المعنيين الحقيقي والمجازي. ويقول إبراهيم النظام: «يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام، إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة»⁽¹²¹⁾.

(118) - ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، 1/ 378.

(119) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، حققه وضبطه وعلق عليه محمد رضوان مهنا، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، ص 92.

(120) - ابن الأثير، المثل السائر، 2/ 182.

(121) - الميداني، مجمع الأمثال، 14/1.

وبالربط بين ما سبق من تعريف الكناية وبين ما جاء في مقولة النظام نحاول أن نستعرض وجود الكناية في عدد من الأمثال العربية ، مبرزين لمواضعها ومحللين لمعانيها وما ترمي إليه، ولأن أصحاب البلاغة لم يذكروا للكناية نوعا واحدا إنما قسموها إلى أنواع عدة نركز عليها تحليلنا.

جاء في كتب البلاغة أن الكناية تقسم باعتبار المكنى عنه إلى ثلاثة أقسام تتمثل في أن المكنى عنه عندهم: قد يكون صفة، وقد يكون موصوفا، وقد يكون نسبة⁽¹²²⁾، فتأتي الكناية بذلك كناية عن صفة، كناية عن موصوف وكناية عن نسبة، فالأولى يطلب بها تعيين الصفة، والمراد بالصفة هنا هو الصفة المعنوية كالجود والكرم والشجاعة وأمثالها لا النعت نحو: بعيدة مهوى القرط أي طويلة الجيد ، ولهذا يعدل عن التصريح بهذه الصفة إلى الكناية عنها، والثانية يطلب منها الموصوف وتكون مختصة به لا تتعداه حتى يحصل الانتقال منها إليه، والثالثة أي كناية النسبة ما يراد فيها إثبات أمر لأمر آخر أو بعبارة أخرى هي تخصيص الصفة بالموصوف⁽¹²³⁾.

أما وقد عرّفنا -الآن- بالكناية وشرحنا أقسامها ننتقل إلى تطبيق ذلك في مستوى الأمثال وفق تقسيم ارتأيناه وذكرناه في المدخل عند الحديث عن نظام ترتيب الأمثال في المدونة، وقد أشرنا إلى أن هذه الأمثال قد تأخذ تبويبا آخر مخالفا لما وردت عليه لكونها تنقسم تلقائيا إلى خمسة أنواع، نثرية وشعرية وحكمية وسائرة وأحاديث نبوية.

أولا- أمثال نثرية:

وهذا النوع كان غالبا على الأنواع الأخرى، وجاء في جلّه مبنيًا على التكنية، لأن المثل في بعض تعاريفه تكنية من غير تصريح، وربما كانت الكنايات في هذا النوع أكثر من أن تحصى، إلا أننا سوف نمثل لبعضها على سبيل الاستشهاد والتدليل ، مشيرين في كل مرة إلى

(122) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص 406.

(123) - نفسه، ص 406-413.

نوع الكناية من حيث أنها تدل على صفة أو على موصوف أو على نسبة، ونذكر لذلك الأمثال الآتية:

* أَرْهَدُ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ. (124)

* تَجُوعُ الْحَرَّةُ وَلَا تَأْكُلُ بِثَدْيِهَا. (125)

* النَّمْرَةُ إِلَى النَّمْرِ تَمْرٌ وَالذُّودُ إِلَى الذُّودِ إِبِلٌ. (126)

* إِنَّهُ لَشَرَّابٌ بِأَنْفَعِ. (127)

* بِفُلَانٍ نُقْرُنُ الصَّعْبَةَ. (128)

* إِنَّ مَنْ بِالنَّجْفِ مِنْ ذِي قُدْرَةٍ لَقَرِيبٌ. (129)

* تَلَبَّدِي تَصِيدِي. (130)

فالزهد في المثل الأول يعني الانصراف عن ملذات الدنيا على إطلاقها، لكن معناه في سياق المثل الزهد في أيدي الناس أي اجتناب الطمع فيما يملك الناس ولا نملك، وورد في المثل أن ذلك ما يحقق محبة الناس واحترامهم وتقديرهم، وهو شيء أكثر من أن يقدر بثمن، ويبدو أن في المثل كناية عن صفة حميدة هي القناعة والاستكفاء بما لدى المرء مهما قل، وجاء الحث عليها من خلال قرنها بغرض آخر يتحقق من خلالها هو محبة الناس للترغيب فيها، والظاهر أن المثل نصحي إرشادي .

أما في المثل الثاني فإن الحرّة عكس الأمة، وهذا استعمال مرتبط بحالة اجتماعية (حالة العبيد) كانت سائدة في وقت ما حين نشوء الأمثال لأن المثل فصيح، فلو كان شعبيا لقلنا أن الحرّة تعبير شعبي يطلق على المرأة التي تحذق عمل الأمور المنزلية خاصة، ومعنى المثل أن الحرّة يهون عليها أن تبق جوعا خيرا من تأكل من ثمن إرضاع أبناء غيرها لما في ذلك من معنى الخسة في الاكتساب، وهي نفسها الصفة التي يكنى عنها بالمثل ويتضمن هو معنى

(124) – أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 410.

(125) – نفسه، ص 289.

(126) – نفسه، ص 282.

(127) – نفسه، ص 152.

(128) – نفسه، ص 132.

(129) – نفسه، ص 453.

(130) – نفسه، ص 168.

الاحتراس منها من خلال قرننها بالحرّة، وفي ذات المعنى يقول عنتره بن شداد⁽¹³¹⁾ ، معتزاً بنفسه منزها إياها عن خسيس المكاسب:

وَلَقَدْ أَبَيْتُ الطَّوَى وَأَظْلُهُ *** حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكَلِ

وجاء المثل الثالث (التمرة إلى التمر والذود إلى الذود إبل) يحتوي كناية عن صفة أخرى هي الحث على إصلاح المال أو بمعنى آخر المثابرة على جمعه مهما ابتداء جمعه بالقليل ، ذلك أن التمرة وهي مما قل من الملك إذا جمعت مع غيرها كثرت وصارت تمرا يباع أو يحفظ فيؤتي فائدته، كذلك الذود وهو القليل من الإبل، فقول «ثلاثة إلى تسعة وقيل اثنان فما فوق لأن الاثنين مع مثلها جمع، وأطلق أيضا على الناقة الواحدة»⁽¹³²⁾ ، والمهم في ذلك أن هذا المثل بمثابة الحث على ضرورة إصلاح المال وتتميته وترك إضاعته وإنفاقه في غير وجوهه.

أما المثل الرابع فقد كان كناية من نوع آخر ، حيث كني فيه عن موصوف فقيل (إنه لشراب بأنقع)، وشراب على وزن فعال أي كثير الشرب وكأنه ظل يشرب مدة طويلة حتى صار خبيرا ، ولم يكن يشرب من مكان واحد بل من أماكن متعددة، مما ولد لديه خبرة ومعرفة بأكثر من مكان، وهذا ما دلت عليه لفظة (أنقع) وهي جمع مفردة نقع وهو الماء الراكد ومنه المستنقع .

فالمثل هنا كناية عن موصوف (كثير التجارب)، خبير الكثرة ما مر به مما أعطاه حنكة ورزانة، ويبدو أن هذا المثل يحتمل أكثر من تأويل فنقول إنه شراب بأنقع كناية عن أن هذا الشخص ليس من السهل خداعه أو استغفاله من باب المدح، وقد يكون للعكس أي من باب ذم المرء والتحذير من مكره وخداع طبيعه .

والمثل الخامس كذلك من نوع الكناية عن الموصوف حيث يدل على موصوف متمكن وشجاع ذو فطنة وذكاء، وتقول العرب حين ذاك (بفلان تقرن الصعبة) أي ذكر فلان يقترن بذكر الصعب من الأمور، أو هو دائما ملازم لكل صعب مستحيل، ويذكر في معجم الأمثال أنه يضرب للرجل إذا كان نافذا في الأمور قويا عليها نهّاضا بها، ويراد به أنه يذل المستصعب

(131) – نسب هذا البيت لعنتره في كثير من كتب النقد العربي القديم ومواضع الاستشهاد به ، و ذكر أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) عند سماعه إياه قال: والله ما ذكر لي أحد من الجاهليين وأحببت أن أراه مثلما أحببت أن أرى عنتره (البيت من وزن الكامل).

(132) – ابن منظور، لسان العرب، مادة (ذود)، مج 3، ص168، 169.

منها⁽¹³³⁾، وتقول العامة في مثل ذلك (دَبْرُو عَلَى الْجُرْحِ يَبْرِيه)⁽¹³⁵⁾ عندما تصف الرجل النافذ العمل الكثير المواهب.

وعلى خلاف الأمثال السابقة جاء المثل السادس والسابع في شكل ما أسمىناه بكناية النسبة أو تخصيص صفة بموصوف، ففي السادس نسبت القدرة لله في قول العرب (إن من بالنجف من ذي قدرة لقريب)، وذلك حين انتشار داء الطاعون بالكوفة، وكانت النجف منطقة قريبة منها ففر الناس إليها خوفاً من الطاعون، فقال لهم شريح هذا القول وصار بعد ذلك مثلاً يتداوله الناس للأحداث والأقدار وأن لا ملجأ منها لديار⁽¹³⁶⁾، ولذلك يشير المثل القائل (عِنْدَمَا تَشَاءُ الْأَقْدَارُ تَعْمَى الْأَبْصَارُ)، ويدل ذلك عن تخصيص الله سبحانه وتعالى بالقدرة على كل شيء ولا مفر من إرادته، فإنما يقول للشيء كن فيكون بإذنه.

وينسب في المثل السابع صفة التلبد للساكت حتى يرى فرصة يغتتمها فقال (تلبدي تصيدي)، والتلبد هو اللصوق بالأرض لختل الصيد، أي احتل حتى تتمكن وتظفر⁽¹³⁷⁾ ويظهر أن هذا المثل يضرب في الإشارة إلى الساكت عن الأشياء أو الصابر على المصائب حتى يأتيه وقت الغنيمة والفوز.

ثانياً - الأمثال الشعرية:

ويقصد بذلك أن المثل قد يضمن في بيت من الشعر أو أن بيت الشعر قد يتضمن أكثر من مثل، وتكون فيه الكناية كما تكون في النثر، بل وفيه أوضح وأدل، وخير ما نمثل به على ذلك ما يلي:

فَتَى كَأَنَّ يُدْنِيهِ الْغِنَى مِنْ صَدِيقِهِ *** إِذَا مَا هُوَ اسْتَعْنَى وَيُبْعِدُهُ الْفَقْرُ⁽¹³⁸⁾
 لَا تَنْتَهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ *** عَارَ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ⁽¹³⁹⁾
 فَتَى لَا يُحِبُّ الزَّادَ إِلَّا مِنَ النَّقَى *** وَلَا الْمَالَ إِلَّا مِنْ قَنَا وَسُيُوفِ⁽¹⁴⁰⁾

(133) - خير الدين شمس باشا، معجم الأمثال العربية، 777/1.

(135) - قادة بوتارن، الأمثال الشعبية الجزائرية.....، ص 72.

(136) - خير الدين شمس باشا، معجم الأمثال العربية، 611/1.

(137) - نفسه، 877/1.

(138) - أبو عبيد البكري، فصل المقال.....، ص 290، البيت للنايعة الجعدي (طويل).

(139) - نفسه، ص 93، البيت المتوكل الليثي (كامل).

(140) - نفسه، ص 165، ذكر البكري أنه لفارعة بنت طريف ترثي أخاها (طويل).

أَعْلَمُهُ الرَّمَايَةَ كُلَّ حِينٍ *** فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي (141)
 إِنَّ بَنِي صَبِيَّةٍ صَيْفِيُونَ *** أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رَبِيعِيُونَ (142)

فالبيت الأول معناه أن هذا الفتى كانت المصلحة تقربه من صديقه وليس حق الصداقة ولا المحبة، فإذا كان صديقه ذو مال يستفيد منه اقتراب منه وزاره وتكلف عناء الذهاب إليه وأحسن معاملته، ونبذه لذهاب المصلحة والفائدة منه.

فهذا المثل يحتوي كناية عن صفة يتصف بها هذا الصديق إن صحت تسميته كذلك وهي صفة سيئة، ولذلك فإن الكناية هنا ترمي إلى التعريض لمن اعتبروا التعريض تابعا للكناية وغرضا من أغراضها إلى جانب التلميح والرمز، فهو إذن يعرض به من خلال هذه الصفة السيئة التي يذكرها فيه أو يضمنها معناه على سبيل التكنية على معنى الخسة والنذالة وسوء تقدير معنى الصداقة.

أما البيت الثاني فهو كناية عن صفة سيئة في المرء ، هي تعبير الرجل صاحبه بشيء هو فاعله، وفي ذات المعنى ترد آية قرآنية في قوله تعالى: [أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ] (البقرة/ 44)، وهذا المثل هو من باب الحكمة لأنه يحث على قيمة أخلاقية من وراء معناه، ثم هو ورد بصيغة النهي الذي يفيد النصح والإرشاد، وذاك حال الحكماء يأمرهم بفعل الشيء أو ينهون عنه لكن على سبيل تضمينه شيئا آخر لا يخرج عن كونه نصحا ، إما بتوبيخهم وإما بلفت انتباههم إلى شيء لم يعرفوه.

في حيث جاء المثل الثالث مكنيا على موصوف من خلال ذكر ما يميزه عن غيره بأنه فتى لا يحب أي نوع من الزاد إلا التقى والورع - والزداد هو ما يحمله المسافر معه يعينه على قطع المسافات - ، وأنه لا يريد من المال إلا القنا والسيوف ، والقنا من القناة وهي الرماح أو ما يماثلها، فهو إذن ممن يتصفون بالتدين أولا ثم بالشجاعة ثانيا ، وذلك خير ما يزين المرء ويكسبه احترام الناس وتقديرهم.

وفي البيت الرابع ينسب صفة إلى موصوف أنكر جميل من ساعده وشد أزره عندما كان محتاجا إليه، وهو لم يقصد الرماية بحد ذاتها إنما قصد الجميل على إطلاقه وربما مثل بها

(141) - نفسه، ص 420، نسب هذا البيت لمالك بن فهم (وافر).
 (142) - نفسه، ص 222، قيل لأكثم بن صيفي وقيل لسعد بن مالك (رجز)

لأنها ترتبط بحياة العرب ، حيث يؤثر عن النبي ﷺ أنه قد أورد بشأن ذلك حديثا مضمونه يتلخص في تعليم الأبناء السباحة والرماية وركوب الخيل، لأنها عادات شريفة تسمو بقيمة المرء وتعزه وتصونه، وتعلمه الاعتماد على النفس والدفاع عنها ، خاصة وأن الوقت وقت حروب وغزوات، وهذا ما يزيد من ارتباط المثل كما أشرنا - في المدخل - بحياة العرب وانبثاقه عنها.

ومضمون المثل واضح لا يحتاج إلى شرح، ذلك أنه يخبر عن معلم نقل ما عنده لتلميذه ، فلما أدرك التلميذ أنه مقتدر وعالم بخبايا الصنعة رد الجميل لمعلمه بأن آذاه بواسطة ما علمه إياه، ذلك ما ألم المعلم ، وهذا ما يبدو واضحا في البيت الشعري من أن الشاعر باعتباره ناقل هذه التجربة - سواء كان هو صاحبها الفعلي أو رويت له - يظهر الألم والحسرة ، وتقول العامة في مثل ذلك (اللِّي تَكْبِرْ بِيَهْ لَا تَكْبِرْ عَلَيْهِ) أي لا تزدر من كان ساهم في ترقيتك⁽¹⁴³⁾، ونقول أيضا في حياتك اليومية (عَلَّمْنَاهُمْ الشَّحَاذَةَ سَبَقُونَا لِلْبِيَانِ).

ويأتي المثل الأخير من الأمثال الشعرية الذي ورد على لسان سليمان بن عبد الملك - ويروونه لغيره - ، لأنه أراد أن يجعل الخلافة في ولده، فلم يكن له من ولد يومئذ إلا ما ولد في الحداثة، وكانوا صغارا إلا ما كان من أمهات الأولاد، فقد كان فيهم من قد بلغ، إلا أنهم كانوا لا يعتقدون إلا لأبناء المهائر^{(*) (144)}.

والمثل كناية عن نسبة حيث تتسب صفة الصفيون للأولاد الذين ولدوا لأبيهم على كبر، والربيعون للذين ولدوا لأبيهم على شباب، أي وهو في ربيع عمره⁽¹⁴⁵⁾، ونلمس في المثل معنى التحسر والخيبة، فسليمان بن عبد الملك كبر ولم يجد من يخلفه على كرسي

الخلافة من بنيه، لأنه للأسف كل أبنائه الذين من الممكن أن يستخلفوه لم يبلغوا سن الرشد بعد.

(143) - قادة بوتارن، الأمثال الشعبية الجزائرية.....، ص 86.

(*) - المهائر ج م مهيرة وهي الحرة وهي ضد السريرة وهي الأمة.

(144) - أبو عبيد البكري، فصل المقال.....، ص 222.

(145) - خير الدين شمسي باشا، معجم الأمثال العربية، 569/1

ونلاحظ أن هذه الكنايات التي وردت على اختلاف أنواعها (صفة، أو موصوف أو نسبة) قد أضفت على أسلوب الأبيات جمالا خاصة، وزادتها وضوحا، فضلا على ما أكسبتها من لذة ومنتعة يحسهما القارئ أو المستمع، رغم أنها تتطلب جهدا لإدراك معناها.

ثالثا - الأمثال الحكمية:

وهي ما جاء من الأمثال في صورة حكم، أو هي حكم جرت مجرى الأمثال، حتى صار من الصعب التمييز بينهما وبين الأمثال في أحيان كثيرة، ويميل هذا النوع إلى المباشرة في المعنى، لأن أصحابه أناس يرتقون إلى درجة العلماء فنجد لغتهم بسيطة، يحاولون النصح والإرشاد غالبا، فيستعملون عبارات قصيرة، لكنها مصيبة لمعناها ونمثل لذلك بـ:

* كَيْفَ تُبْصِرُ الْقَدَى فِي عَيْنِ أَخِيكَ وَتَدْعِ الْجِدْعَ الْمُعْتَرِضَ فِي حَلْقِكَ. (146)

* لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ بِأَخِيكَ (147).

* إِنَّ السَّلَامَةَ مِنْهَا تَزُكُّ مَا فِيهَا (148).

* مَقْتَلُ الرَّجُلِ بَيْنَ فِكَيْهِ (149).

* الْبِطْنَةُ تَأْفُنُ الْفِطْنَةَ (150).

* كَيْفَ تُوقَى ظَهْرَ مَا أَنْتَ رَاكِبُهُ؟ (151)

ففي المثل الأول كتابة عن استتكار صفة معيبة تكون لمن يلتفت لعيب أخيه وينسى عيبه، وفي ذلك معنى المثل الشعبي (البُعِيرُ مَا يَعْبا غَيْرُ بَذْرُوَّةٍ صَاحِبُو) (152).

أما عن معنى المثل فالقذى هو ما يتكون في العين من رمص وغمص، وقيل ما يقع في العين وما ترمي به، وذكر صاحب اللسان أن المثل يضرب لمن يرى الصغير من عيوب الناس

(146) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 95.

(147) - نفسه، ص 95.

(148) - نفسه، ص 323.

(149) - نفسه، ص 23.

(150) - نفسه، ص 409.

(151) - نفسه، ص 453.

(152) - قادة بورتان، الأمثال الشعبية الجزائرية.....، ص 219.

ويعيرهم به وفيه من العيوب ما نسبته إليه كنسبة الجذع إلى القذى*⁽¹⁵³⁾، أي أن ما فيه من العيوب مقارنة بما يعيب به غيره كحجم القذى بالنسبة الجذع.

وتقول العرب في من يشمت بغيره إذا ما أصابتهم مصيبة أو ابتلاهم الله ببلائه (لا تظهر الشماتة بأخيك)، ويبدو أن هذا المثل بحاجة إلى اكتمال، وفعلا إذا ما بحثنا وجدنا له شطره الثاني، والذي يحوى بدوره معنى التحذير من عاقبة هذه الشماتة (فِيَعَا فِيهِ اللهُ وَيَبْتَلِيكَ)، مما يدل على أن هذا المثل جاء كناية عن صفة رذيلة اتصف بها بعض الناس، فيحث على تجنبها ويحذر من عاقبتها، لأن المثل يمكن حمله على تقدير القائل (احذر الشماتة بأخيك فعسى أن يعافيه الله ويبتليك)، وفي ذات المعنى تقول العامة (سَلِّمْ تَسْلِمَ كَانِكَ طَالِبُ تَفْهِمٍ وَلَا تَضْحَكْ يَا وَلَدِي عَلَيَّ رَبِّ بِالْيَةِ لَا تَجْرَحُلُوْ حَاطِرُوْ بِخَبَارِ الْهَمِّ قَادِرُ رَبِّ يُعَذِّبُكَ وَيُعِيفُ عَلَيْهِ).

أما في المثل الثالث فيكنّي عن موصوف هو الدنيا في قوله (إن السلامة منها ترك ما فيها)، حيث الهاء هنا في (منها) و(فيها) تدل على الدنيا لأن هذا المثل شهر من بيت شعري لسابق البربري في ذم الدنيا يقول فيه:⁽¹⁵⁴⁾

النَّفْسُ تَكْلُفُ بِالْدُنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ *** أَنْ السَّلَامَةَ مِنْهَا تَرَكَ مَا فِيهَا

وفي ذلك يقول أبو نواس:

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ *** لَهُ عَن عَدُوِّ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ

ونلمس في المثل تحذير من الانبهار بزخرف الدنيا، وحث على اجتناب مطامعها ولذاتها، فهي دار أمل لا دار قرار كما يقول الإمام علي - كرم الله وجهة -، وما هي إلا جسر نمر عليه في سبيل الوصول إلى مكان آخر هو مستقرنا ومقامنا كما ذكر في القرآن الكريم.

كذلك جاء المثل الرابع كناية عن موصوف آخر هو اللسان حيث تقول العامة: (لسانك حصانك إن صننته صانك وإن خننته خانك)، وورد التحذير من اللسان أيضا في الحديث النبوي حيث يقول **ع**: "وَهَلْ يَكْبُ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ"، ذلك أن اللسان ابتلاء لصاحبه إذا لم يحفظه.

(153) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (قذي)، مج 15، ص 174.

(154) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 323.

ويأتي المثل الخامس فيضرب لمن غير استغناؤه عقله وأفسده، وتقول العرب حين ذلك (البطنة تأفن الفطنة)، والبطنة من امتلاء البطن بالطعام، ويقصد بها هنا المال والفطنة هي الذكاء وتعني هنا العقل، وتأفن أي تذهب، ومعنى المثل بذلك المال ينقص العقل ويفسده، وتظهر فيه كناية عن نسبة حيث يخص البطنة والإستغناء بذهاب العقل، ذلك أن الذي يجمع المال يركض وراء مجد دنيوي مما يولد لديه طمعا يعمي بصره وبصيرته بالتالي ذهاب عقله. وأيضا يتضمن المثل الأخير (السادس) كناية عن نسبة حيث يخص فيها القدر بإعطاء الحكم الذي لا يمكن تجنبه، فيأتي دالا على معنى الاستتكار المشوب بالنفي أي (لا يمكن أن توقي ظهر ما أنت راكبه)، ويضرب هذا المثل في المرء لا يمكنه تحدي الأقدار في كل ما تأتي به سواء كان خيرا أم شرا ويقول الشافعي في ذلك: (155)

دَعِ الْأَيَّامَ تَفْعَلْ مَا تَشَاءُ *** وَطِبْ نَفْسًا إِذَا حَكَمَ الْقَضَاءُ
وَرِزْقَكَ لَيْسَ يُنْقِصُهُ التَّائِي *** وَلَيْسَ يَزِيدُ فِي الرِّزْقِ الْعَنَاءُ

ويقال في ذات المعنى (لا يَنْفَعُ حَذْرٌ مِنْ قَدَرٍ).

ويظهر أن غرض كل ما سبق من الأمثال الحكيمة إنما هو تقويمي تعليمي خلقي يهدف إلى إعطاء العبرة وإسداء النصيحة، وليس ذلك بغريب فالحكم تحمل خلاصة تجربة أناس أدركوا الحياة بتمامها، وهم إضافة إلى ذلك تميزهم رجاحة العقل وسداد الرأي وحب الخير للناس، بالتالي الصدق في نصحتهم وهديتهم.

رابعا- الأمثال السائرة:

وسميت كذلك لأنها تعرف أكثر من غيرها، وتسير بين الناس، وتتميز في الغالب بقصر العبارة فضلا على ميزات المثل الأخرى، ونمثل لذلك بـ:

* أَنْجَرَ حُرٌّ مَا وَعَدَ (157).

* لَبِسْتُ لَهُ جِلْدَ النَّمْرِ (158).

* إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهَنْ (159).

(155) - الشافعي، ديوان الشافعي، جمعه وعلق عليه محمد عفيف الزعبي، مؤسسة الزعبي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص 15، 16.

(157) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 85.

(158) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 480.

(159) - نفسه، ص 235، 236.

* الْحَدِيثُ ذُو شُجُونٍ⁽¹⁶⁰⁾.

* عَادَتْ لِعِثْرِهَا لَمِيسُ⁽¹⁶¹⁾.

* لِكُلِّ جَوَادٍ كِبُوءَةٌ⁽¹⁶²⁾.

* إِنَّكَ لَا تَجْنِي مِنَ الشُّوكِ الْعِنَبِ⁽¹⁶³⁾.

* سَدَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ⁽¹⁶⁴⁾.

فالمثل الأول يضرب في حين المطالبة بإنجاز الوعد والوفاء به⁽¹⁶⁵⁾، وكأنه يقول له أو في بعهدك الذي قطعت أو إذا كنت حرا فأوفي بما عدت، فهكذا عهدنا الحر إذا قطع وعدا وفي به، فهو بذلك يكني على صفة أو قيمة خلفية سامية هي صفة الوفاء بالوعد إنما هو لم يذكرها بل كنى عليها بعبارة (أنجز حر ما وعد).

ويظهر في المثل الثاني أن لبس جلد النمر كناية عن صفة العداوة، فهو أي قائل المثل لم يصرح بالعداوة لشخص ما إنما كنى عنها بقوله لبست له جلد النمر، والعرب تكني عن أحوال السباع التي هي عليها بلبس هذه الجلود، فإذا أرادوا الشدة والجرأة قالوا: جلد النمر لأنه أجزأ السباع وأعداها وأخفاها وثبا وأذكاها قلبا وهو يقتل الأسد⁽¹⁶⁶⁾، وقد يقاس على هذا أن يقال ليس له جلد الذئب وليس له جلد الأرقم لأن هذا كله مثل قولهم ليس لهم جلد النمر، إذ العداوة محتملة في الجميع وكذلك (قلب لهم ظهر المجن) كناية عن تغيير المودة عداوة⁽¹⁶⁷⁾.

ومتلما ورد في المثليين الأول والثاني جاء في الثالث والرابع، حيث كان كل منها يتضمن كناية عن صفة لم يصرح بها هي المسايرة في المثل الثالث والاتساع في الرابع.

أما في المثليين الخامس والسادس فيكّني عن موصوف يتضح في الخامس في قولهم (عادت لعثرها لميس) للذي يرجع لعادة سيئة لعادتها وتركها⁽¹⁶⁸⁾، وتقول العامة (عادت ريمة لعادتها القديمة)، وكذلك في المثل السادس (لكل جواد كبوة)، والكبوة هي العثرة، ويظهر أن هذا

(160) - نفسه، ص 67.

(161) - نفسه، ص 397.

(162) - نفسه، ص 43.

(163) - نفسه، ص 379.

(164) - نفسه ص 67.

(165) - خير الدين شمسي باشا، معجم الأمثال العربية، 633/1.

(166) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 480.

(167) - ابن الأثير، المثل السائر، 194 / 2.

(168) - خير الدين شمسي باشا، معجم الأمثال العربية، 1513/2.

المثل مقتطع من حوار بين اثنين أو أكثر، يخطأ أحدهم وقد عرف بالصواب عند أصحابه فيلومه بعضهم ، فيدافع واحد منهم قائلاً (لكل جواد كبوة)، لأن كل شيء يفتقر إلى الكمال - سبحان من تكمل فيه الصفات- ويروى أن هذا المثل قد حذف منه شطره لأن أصله (لِكُلِّ جَوَادٍ كَبْوَةٌ وَلِكُلِّ عَالِمٍ هَفْوَةٌ*) (ولِكُلِّ صَارِمٍ نَبْوَةٌ*)⁽¹⁶⁹⁾، ومما عرف عندنا (لكل جواد كبوة ولكل فارس عثرة).

في حين كان المثل السابع كناية عن نسبة وكذلك الثامن، فالسابع (إنك لا تجني من الشوك العنب)، يدل على أن الشوك لا يجنى منه العنب باتخاذ الشوك رمز للشر والعنب رمز للخير، فالخير لا يكون إلا من أصل طيب والشر لا يعطي إلا الشر، حيث يضرب هذا المثل للشخص السيئ لا تتوقع منه الفعل الحسن.

وكان المثل الثامن كناية عن فوات الوقت واستحالة الرجوع في القرار، أي أن ضربة السيف قد سبقت اللوم عن القتل ويضرب المثل في كل موقف فات فيه أوان الندم واستحال الرجوع عن الأمر، وربما نلمس في هذا المثل اندفاع العرب الأوائل بأخذ حقوقهم ولو بحدود سيوفهم كما قالوا.

ونلاحظ من كل ذلك أن المثل السائر يقارب أحيانا شكل الحكمة وفكرتها لأن مضمونه يكاد يكون خلاصة تجربة يعبر عنها بفكرة ثاقب ورأي سديد من مثل (لكل جواد كبوة، أنجر حرما وعد، إذا عز أخوك فهن).

خامسا - الأحاديث النبوية:

وهي أقوالا صدرت عن الرسول ﷺ وصار يتمثل بها في مختلف المواقف فسارت وعرفت أكثر من غيرها، وأصبحت في حكم الأمثال، تستعمل ويراد بها معان مختلفة، ومن مثل ذلك نجد:

* إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى (170).

* مَنْ أُرِلَتْ إِلَيْهِ نِعْمَةٌ فَلْيُكَافِئْ عَلَيْهَا، فَإِنْ لَمْ يَفِدِرْ فَلْيُظْهِرْ تَنَاءً حَسَنًا (171).

(*) - الهفوة هي الزلة أو الخطأ لأن العالم بشر مقطور على النقص.

(*) - النبوة تجافي السيف عن الضريبة أي خطأه في إصابة الهدف.

(169) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 43.

(170) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 13.

(171) - نفسه، ص 207.

* الْحَرْبُ خُدْعَةٌ⁽¹⁷²⁾.

* لَا تَرْفَعِ عَصَاكَ عَلَى أَهْلِكَ⁽¹⁷³⁾.

* لَا تَتَرَاءَى نَارَهُمَا⁽¹⁷⁴⁾.

* إِنْكُمْ لَتَكْتُمُونَ عِنْدَ الْفَرَعِ وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ⁽¹⁷⁵⁾.

* إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءُ الدِّمَنِ⁽¹⁷⁶⁾.

* أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا⁽¹⁷⁷⁾.

إن الأحاديث النبوية وسيلة من وسائل الهداية طالما استعملها ديننا الحنيف في سبيل شرح بعض القضايا الخامسة بالأمور الدينية والدينية، وكانت ذا فعالية من حيث أنها صادرة عن خير خلق الله جميعا ، ممن اتصفوا بالبيان وفصاحة اللسان، ومن جملة ما كانت تتضمنه هذه الأحاديث بعض الصفات التي أمرنا ديننا الحنيف بها وحثنا عليها أو نهانا عن الاتصاف بها، لكنها لم تكن لتذكر مباشرة في بعض الأحيان لذلك كان الرسول ﷺ يوظف التكنية عليها دون التصريح بها، وذلك ما نلاحظه في الأحاديث السابقة التي جرت مجرى الأمثال في الاستعمال بين الناس، ففي الحديث أو المثل الأول يكتفي النبي ﷺ عن المُلح في طلب الشيء بالمسافر الذي يطيل السفر والترحال فيقول (إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهر أبقى)، فالمنبت هو المنقطع عن أصحابه في السفر، لأن البت من القطع، والظهر هي الدابة التي يسافر عليها، ويضرب لمن يبالغ في طلب الشيء ويفرط فيه حتى ربما يفوته على نفسه⁽¹⁷⁸⁾، ويقصد النبي هنا المنقطع للعبادة الذي يجدُّ فيها إلى درجة إلحاق الضرر بنفسه وإيذائها⁽¹⁷⁹⁾، ونقول أن الشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده كذلك الجد إذا كان مبالغا فيه ضرر بدل أن ينفع.

وفي الحديث الثاني يكتفي الرسول ﷺ عن صفة حميدة هي الاعتراف بالجميل لمن قدم الخدمة لك ، ومعنى الحديث إذا قدمت إليك خدمة فلتجازي من خدمك إياها، فإن لم تقدر فأظهر

(172) – نفسه، ص 14.

(173) – نفسه، ص 17.

(174) – نفسه، ص 16.

(175) – نفسه، ص 271.

(176) – نفسه ص 14.

(177) – نفسه، ص 215.

(178) – خير الدين شمسي باشا، معجم الأمثال العربية، 612/1، 613.

(179) – أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 13.

له ذكرا حسنا لمعروفه بالاعتراف به وبجميله، ولا تقل أن هذه النعمة من عند الله ولا فضل للبشر فيها، وأذكر في مثل ذلك أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بأن نشكر من أجرى الله نعمته على يديه فأصابنا بخيرها ، وكذلك جاء المثل الثالث (حديث) مكنيا عن صفة هي حسن التدبير في الحروب واستعمال الحيلة في قوله **ع**: "الحرب خدعة"⁽¹⁸⁰⁾.

وجاء في الحديث الرابع أمر النبي **ع** بصفة محمودة يحث عليها رجال الإسلام هي أدب التعامل مع الزوجة في قوله (لا ترفع عصاك على أهلك)، وهو لا يقصد ضربهن بالعصا إنما يكني بذلك عن الأدب [في معاملتهن]⁽¹⁸¹⁾.

ونرى النبي **ع** في الحديث الخامس يكني عن أهل الإسلام وأهل الشرك (كناية عن موصوف) بقوله: "لا تتراءى نارهما" ، أي لا يكون سكن المسلمين مقارب لسكن المشركين، بحيث يرى كل منهما نار الآخر، هذا ما أورده بعض من شرح المثل، وقيل عني به التميز بينهما⁽¹⁸²⁾، وأظنه يقصد البعد ، وربما قصد الصفات المتخالفة ولم يقصد النار ، إنما فسرت كذلك أن ديار العرب قديما كانت تظهر في الليل خاصة بواسطة النيران التي توقد أمامها ليستدل بها، الضيوف والقاصدين لما عرف به العربي من الكرم والجود.

وفي المثل السادس يتحدث الرسول **ع** عن الأنصار ويكني عنهم بقوله (إنكم تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع)، أي أنهم منزهون عن الطمع وحب المال لرفعة قدرهم وعزة نفوسهم.

وفي شأن اختيار الرجل للمرأة قصد الارتباط يشير الرسول **ع** إلى قضية مهمة في قوله (إياكم وخضراء الدمن)، والدمن ما تدمته الإبل والغنم من أبوالها وأبغارها، لأن ربما نبت فيها النبات الحسن فيكون منظره حسنا أنيقا ومنبته فاسدا.⁽¹⁸³⁾

وهو أي الرسول **ع** يكني بخضراء الدمن على المرأة الجميلة في المنبت السوء وذلك من قبيل الكناية عن الموصوف، وتقول العرب فيما يقارب ذلك من المعنى (إياك وعقيلة الملح)

(180) - الأمام البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد، ج3 ، باب الحرب خدعة ، حديث 2866 ، ص1102.

(181) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 17.

(182) - نفسه، ص17.

(183) - خير الدين شمسي باشا ، معجم الأمثال العربية ، 739/1.

وهي الحسناء في المنبت السوء، وعقيلة الملح اللؤلؤة تكون في البحر فهي حسنة وموضعها⁽¹⁸⁴⁾.

أما في المثل الثامن فينسب مآزرة المؤمن للمؤمن، ويكني عليها بنصرته ظالما أو مظلوما، وهو لا يقصد بالحديث ظاهر معناه، حتى أنه يعقب على هذا الحديث حين يقول أحد السامعين (نصره مظلوما فكيف نصره ظالما قال: أن ترفعوا يد ظلمه)، وورد في الصحيح «قال: "تأخذ فوق يديه"»⁽¹⁸⁵⁾.

ويبدو أن الكناية من خلال كونها لونا من ألوان البيان لم تستعمل هكذا لدون سبب أو غاية، إنما توظيفها يخضع لعدد من الغايات يربوها المبدع في توظيفه إياها، وقد ذكر لها أصحاب البلاغة عددا منها أهمها:

أ- إثبات المعنى والمبالغة فيه⁽¹⁸⁶⁾، ذلك أن المثل إنما يحمل فكرة معينة يريد مستعمله أن يوصلها في موقف أو حالة ما، قد تكون هذه الفكرة بسيطة إلا أن بناء المثل وفق صورة الكناية أعطاها دلالة خاصة، فقول العرب مثل (مقتل الرجل بين فكيه) كما ذكرنا يكني عن موصوف هو اللسان، بالتالي فمعناه (مقتل الرجل في لسانه) إلا أن التكنية كانت أوضح وأجمل وأثبت للمعنى، وهو إضافة إلى ذلك يضفي مبالغة على معنى المثل خاصة في كلمة (مقتل) التي استعماله لإظهار قيمة اللسان وشدة خطره إذا أسيء استعماله.

ب- إن المثل في الغالب لا يراد به ظاهر معناه، ذلك أن مضرب المثل قد يختلف في أحيين كثيرة عن مورده، فقول العرب (ضرب أخماسه بأسداسه) مثلا يعني في أصله المماكرة والخلافة وهي «أن يضم المرء خلاف ما يظهر»⁽¹⁸⁷⁾، إلا أن استعماله ومضربه يبتعد عن كل ذلك، إذ أننا نذكره عند اختلاط الأمر والحيرة في إيجاد مخرج فنقول فلان يضرب أخماسه بأسداسه، أي يحاول الخروج من مأزقه دون فائدة تذكر، مما يجعل أثره في النفس أوقع وحمله للمعنى أخف وأستر، وكذلك تكون الكناية بأن تظهر معنى وتريد غيره، مما يجعل المتلقي يسعي لمعرفة هذا المعنى المخفي، وبوصوله إليه يشعر بمتعة خاصة.

(184) - ابن الأثير، المثل السائر، 194/2.

(185) - الإمام البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم، ج3 باب أعن أخاك ظالما أو مظلوما، حديث 2311-2313، ص 1213.

(186) - ابن عبد الله شعيب، البلاغة العربية الواضحة- علم البيان-، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص210.

(187) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 105.

ج- إن وقوع المجاز بشتى أنواعه في المثل يكسبه قدرة على تجسيم المعاني وتشخيصها خاصة في التشبيه والكناية، مما يعطيها حيوية وحركة تبهر السامع وتحدث فيه انفعالا عجيبا يولد فيه إعجابا كبيرا بهذه الأمثال.

د- إن استعمال الكناية في الكلام عامة وفي المثل خاصة غرضه التكنية عن بعض المواقف والأمور التي يفضل عدم التصريح بها خوفا من شيء ما.

هـ- قد تتضمن الأمثال بعض المعاني لا يمكن أن يصرح بها لما فيها من الفحش والبذاءة والاستهجان مما جعلنا في الكثير من المواقف نلجأ إلى حذفها لأنها مما يخدش الحياء ، لأننا في إطار إعطاء معانيها وإظهار مخفيها والتصريح بما كني عليه فيها^(*).

بين الكناية والتعريض:

إن إدراجنا لهذا العنصر في بحثنا ليس لغرض قضية الاتفاق أو الاختلاف بين الكناية والتعريض إنما لوجود أمثال تدل على معنى التعريض في ضمن ما احتوته المدونة.

إن كثيرا من النقاد والبلاغيين ممن قرنوا الكناية بالتعريض، ولم تظهر في كلامهم معالم واضحة لكل منها، حتى يبدو من خلال تناولهم لذلك أنهما شيء واحد أو هما لفظتان مترادفتان، ويذكر بعضهم أن الذي جعلهم يقرنون الكناية بالتعريض كما جاء في تصورهم أن دلالة الكناية كدلالة التعريض في أن كلا منهما لم يصرح فيه بالألفاظ الدالة على المعنى المقصود⁽¹⁸⁸⁾.

ويورد صاحب جوهر الكنز في ذلك نصا يقول فيه «[إن] قول امرئ القيس [في معلقته]

وَقَدْ أَعْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا *** بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلٍ

فإنما أراد أن يصف الفرس بالسرعة، وأنه جواد فلم يتكلم باللفظ بعينه ولكن بأردافه [بكناية]. وقيل إنه قد تتلازم الأمور وتترادف حتى يكون الشيء لازما لأمر، وذلك الأمر لازما لأمر آخر وريفا له، فإن كثرت الأرداف والوسائط فإنه يكون خفيا جدا، كالألغاز والتعمية التي

^(*) قد تم إستنباط هذه الغايات للكناية (إثبات المعنى والمبالغة فيه- التلميح وأثره النفسي-التجسيم-التعمية والتغطية- التسامي-الترفع) من كتاب ابن عبد الله شعيب، البلاغة العربية الواضحة، علم البيان وتطبيقها على المثل. ص 210- 216 .
(188) - ابن عبد الله شعيب، البلاغة العربية الواضحة- علم البيان-، ص 205.

تراض بهما الأذهان. فما وقع من هذا الباب لقصد سمي كناية أو تعريضا إذا قارب الظهور وأما إذا أوغل في خفائه سمي لغزا أو رمزا»⁽¹⁸⁹⁾.

فهو - أي ابن الأثير - هنا إذ يشرك الكناية والتعريض في إرادة القصد ومقاربة الظهور يعتبرهما شيء واحد أو هما مترادفان، وهو فوق ذلك يستعمل (أو) في الربط بينهما وهي مما يفيد التخيير.

غير أن ذلك لا ينفي أن هناك من حاول التفريق بين الكناية والتعريض من مثل ابن رشيق القيرواني في العمدة، فعلى الرغم من أنه جعلهما من أنواع الإشارة، جعل للكناية صفات وباعد بينهما وبين التعريض⁽¹⁹⁰⁾.

كذلك نجد ضياء الدين ابن الأثير من كتابه (المثل السائر) قد فرق بينهما، وذلك ما نفهمه من قوله في تعريف الكناية «الكناية يتجاذبها جانب الحقيقة والمجاز ويجوز حملها على كليهما معا بعكس أقسام المجاز الأخرى التي لا يجب حملها إلا على المجاز»⁽¹⁹¹⁾، وهو في مقابل ذلك يورد تعريفا خاصا بالتعريض «وأما التعريض فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي - فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب والله إنني محتاج وليس في يدي شيء وأنا عريان والبرد قد آذاني، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب وليس هذا اللفظ موضوعا في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجاز إنما دل عليه من طريق المفهوم»⁽¹⁹²⁾.

ويشير صاحب المثل السائر إلى جانب ذلك أن كثير هم من أخلطوا بين الكناية والتعريض، فمثلوا للكناية بأمثلة التعريض والعكس، من مثل ابن شان الخفاجي والعسكري. ورغم ما تقدم من الآراء بشأن التفرقة بين الكناية والتعريض إلا أننا نجدتها تقترن به من خلال كون كل منها لا يصرح فيه بالدلالة، بل تكئني بوسائط سواء كثرت أو قلت، وصور التكنية في ذلك تنقسم إلى أقسام ثلاثة إضافية إلى الكناية المشار إليها:

(189) - ابن الأثير، جوهر الكنز - تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة-، تحقيق محمد زغلول سلام، الناشر منشأة المعارف

بالأسكندرية، شركة الأسكندرية للطباعة والنشر، مصر، ص 106، 105.

(190) - ابن عبد الله شعيب، البلاغة العربية الواضحة- علم البيان، ص 205.

(191) - ابن الأثير، المثل السائر، 182/2.

(192) - نفسه، 186/2.

أ- التعريض:

وأحسب أن أمثلة ذلك كثيرة في الأمثال ذلك أنها تضرب للاعتبار والموعظة والنصيحة، وخير ما نمثل به لهذا النوع الأمثال الآتية:

* أَحْشَفًا وَسُوءَ كَيْلَةٍ. (193)

* أَسْمَعُ جَعَجَعَةً وَلَا أَرَى طَحْنًا. (194)

* أَسْمِنُ كَلْبَكَ يَا كَلْبُكَ. (195).

* إِذَا سئِلَ أَرَزَّ وَإِذَا دُعِيَ انْتَهَرَ. (196).

* أَحْشُكَ وَتَرَوْتُنِي. (197)

* أَكْسَفًا وَامْسَاكًا. (198)

* تَحْقِرُهُ وَيَنْتَأَى. (199)

فالمثل الأول يضرب في مخاطبة من تجتمع فيه صفتين سيئتين، فالحشف هو الرديء من التمر، وسوء الكليلة إنقاصها، وفي ذلك تعريض بمن تكون فيه الصفتين قصد توبيخه.

كذلك المثل الثاني تعريض ببخل البخيل، لأن الجعجعة هو صوت الرحي يكون دون وجود الطحين، وقيل تعريض بالجبان يوعد ولا يوقع والبخيل والبخيل يعد ولا يفي.

والمثل الثالث يضرب للمعروف يوضع في غير أهله فيردونه بعكسه، وفيه تعريض بالرجل تعطيه من خيرك باستمرار فلا يعترف لك بل يخونك (ياكلك)، وقد مثل بالكلب لما عرف عليه من الوفاء لصاحبه من جهة وإشارته إلى اللئام من الناس من حيث صفته بنكران الجميل من جهة أخرى، وهو مما سار بين الناس وعرف، وكذلك كان المثل الرابع تعريضا بصفة البخل.

وفي المثل الخامس، أحشك أي أطمعك الحشيش اليابس، وتروثني أي ترمي علي الروث وهو فضلات الحيوان، وفيه تعريض بالذي يسيء إلى الناس بعدما أحسنوا إليه.

(193) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 374.

(194) - نفسه، ص 448.

(195) - نفسه، ص 419.

(196) - نفسه، ص 407.

(197) - نفسه، ص 418.

(198) - نفسه، ص 375.

(199) - نفسه، ص 169.

أيضا جاء المثل السادس تعريضا بصفة البخيل يكون وجهه عابسا، فيستنكر الناس منه ذلك ويوبخوه، وقد تؤخذ بمعنى اجتماع الصفتين من السوء كما في المثل الأول.

في حين أن المثل السابع والأخير ويضرب لمن يُحتقر أمره وهو عظيم ومعناه أنك تزدريه لسكوته وهو يجاذبك⁽²⁰⁰⁾، وورد ذات المعنى في قول الشاعر:

لَا تَحْفَرَنَّ صَغِيرًا فِي مُخَاصِمَةٍ *** إِنَّ الْبَعُوضَةَ تُدْمِي مُقَلَّةَ الْأَسَدِ

ويضرب لمن لا يكثر له وهو يأتي بالبوائق، ويقارب في معناه المثل القائل (تَحْسَبُهَا حَمَقَاءٌ وَهِيَ بَاخِسٌ)⁽²⁰¹⁾، وفي ذلك معنى التعظيم وهو من أغراض التعريض.

ونلاحظ أن للأمثال السابقة في التعريض غرض واحد هو التحقير والتوبيخ باستثناء المثل الأخير الذي يفيد معنى التعظيم، وذلك ما يتوافق مع ما وضعتة العرب من وجوه ومواطن في استعمال التعريض، إلى جانب الاستعطاف والاستحياء وتجنب الخشن من الحديث والاحتراس والاستدراج والملاطفة.⁽²⁰²⁾

ب - التلويح:

وذلك عند كثرة الوسائط وبعده ظهور المعنى، ومن مثل هذا نجد العرب تقول:

* إِنَّ الْجَبَانَ حَنْقُهُ مِنْ فَوْقِهِ⁽²⁰³⁾.

* إِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ⁽²⁰⁴⁾.

* مَنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ⁽²⁰⁵⁾.

* يَدَاكَ أَوْكَتَا وَفُوكَ نَفَخَ⁽²⁰⁶⁾.

* اشْتَرِ لِنَفْسِكَ وَلِلْسُوقِ⁽²⁰⁷⁾.

* الْقَيْدُ وَالرَّتْعَةُ⁽²⁰⁸⁾.

* كُلُّ فِتَاةٍ بِأَبِيهَا مُعْجَبَةٌ⁽²⁰⁹⁾.

(200) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ص 169.

(201) - خير الدين شمسى باشا، معجم الأمثال العربية، 837/1.

(202) - ابن عبد الله شعيب، البلاغة العربية الواضحة - علم البيان، ص 207-209.

(203) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 439.

(204) - نفسه، ص 137.

(205) - نفسه، ص 14.

(206) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 458.

(207) - نفسه، ص 309.

(208) - نفسه، ص 54.

ففي المثل الأول يلوح إلى معنى أن حذر الجبان لا يفيد، فكثرة حرصه قد تجلب إليه الأخطار كما في قول زهير: (210)

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَلْقَاهَا (*) *** وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلْمٍ

ذلك أن خوفه ليس بمانع عليه الخطر ولا منجيه، وقوله (حتفه من فوقه) أي من حيث لا يدري ولا يتوقع.

وقول العرب (إنما المرء بأصغريه) وتكلمته (قلبه ولسانه) يضرب فيمن له نباهة وذكر ولا منظر له (211)، فاللسان إشارة إلى القول والكلام بما يتميز به من بيان، والقلب إشارة للجوارح والإحساس، ويقول دعبل الخزاعي في ذلك: (112)

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا الْأَصْغَرَانِ لِسَانِهِ *** وَمَعْقُولُهُ وَالْجِسْمُ خَلْقٌ مُصَوَّرٌ

وكأنه يقول أن المظهر أو الحجم لا يعني شيئاً في مقابل اللسان والقلب اللذان هما جوهر الإنسان ولبه، ويقابل المثل القائل (أَنْ تَسْمَعَ بِالْمُعِيدِي خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ). (113) أما المثل الثالث فهو حديث نبوي يشير إلى الربا حيث يقول (من لم يأكله أصابه من غباره)، والغبار تلويح إلى قليله وضئيله.

والمثل الرابع قول سائر يلوح إلى أن لكل مسؤوليته فيما هو تحت يده وإمرته، ويتحمل بذلك ما ينجر عن فعل هو من قام به، وقصة المثل معروفة .

وفي قولهم (اشتر لنفسك ولل سوق) تلويح بالنصيحة وضرورة الحذر في شراء السلعة، فالمرء عند شرائه للشيء يضع في حسبان أنه سوف يبيعه في يوم ما، لذلك يجب أن يختاره جيداً لئلا يمتنع عليه بيعه إن أراد، وفي ذات المعنى تقول العامة (إشري لليوم اللي تبيع).

ويشير في المثل الموالي إلى الراحة في قوله (القيد والرتعة) فالقيد معروف وهو الوثاق أما الرتعة فهي الاتساع في الخصب (214)، والمثل يدل على الراحة والمتعة وقلة الأشغال لأن

(209) - نفسه، ص 218.

(210) - ورد في معلقة زهير بن أبي سلمى بغير رواية (يلقاها) (الطويل).

(*) - وتروى ينلنه .

(211) - خير الدين شمسى باشا، معجم الأمثال العربية، 663/1.

(112) - نسب هذا البيت لدعبل الخزاعي (الطويل)، ومعناه أن الجسم خلق من عند الله ولا يعني في قيمة الإنسان وجوهره شيئاً إنما العبرة باللسان والمعقول.

(113) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 135.

(214) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (رتع)، مج8، ص 113.

الرجل أسر عند أناس اعتنوا بأكله وشربه فعاد إلى أهله بديننا وكان عهدهم به نحيفا فسألوه فقال (القيد الرتعة) (215).

وكان المثل الأخير إشارة إلى أن المرء معجب بمن هم أقرب إليه كالفتاة تعجب بأبيها مهما كان طبعه، وتقيّم كل واحد مقارنة به، ويضرب هذا المثل للرجل يعجب برهطه وعشيرته. (216)

ونمثل لذلك بقول القائل:

فَلِمَ تَلَمَّ الْمُحِبِّ عَلَى هَوَاهُ *** فَكُلُّ مُنِيَمٍ كَلِفٌ عَمِيدٌ
ظَنَّ حَبِيبَهُ حَسَنًا جَمِيلًا *** وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبُ مِنَ الْقُرُودِ

ج - الرمز:

ويسمى كذلك إذا أوغل معناه وتمثل له بما يلي:

- * أُمُّ أَدْرَاصٍ (217).
- * أُمُّ أَرِيْقٍ. (218)
- * أُمُّ حَبُوكَزٍ. (219)
- * مَوَاعِيدُ عُرْفُوبٍ. (220)
- * ذَنْبُ صَحَرٍ. (221)
- * دَفُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمٍ. (222)
- * أَحْمَقُ مِنْ دُعَّةٍ. (223)
- * أَعَزُّ مِنَ الْأَبْلَقِ الْعَفُوقِ. (224)
- * أَعْيَا مِنْ بَاقِلٍ (225).

(215) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 54، 55.

(216) - الميداني، مجمع الأمثال، 2 / 108.

(217) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 478.

(218) - نفسه، ص 478.

(219) - نفسه، ص 478.

(220) - نفسه، ص 113.

(221) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 486.

(222) - نفسه، ص 485.

(223) - نفسه، ص 495.

(224) - نفسه، ص 493.

(225) - نفسه، ص 996.

الأدراص ج م درص وهو ولد الفأر واليربوع والقنفذ والأرنب والهرة والكلبة... (226)، وتوضع رمزا لوقوع الشر والبلاء وأم أريق أصلها من الحيات (227)، يرمز بها للشدة والدهاء. أما حبوكر فبلدة بأعلى حائل من بلد قشير بها قفاف ووهاد، فمن مشى فيها كلما تخلص من وهدة سار إلى أخرى (228)، لذلك وضعت رمزا للبلايا والمصائب تتابع الواحدة تلو الأخرى.

وفي المثل الثالث أتخذ عرقوب ومواعيده رمز لإخلاف العهد وعدم الوفاء به لما كان من عرقوب وإخلافه لوعده قطعه لأخيه.

أما ذنب صحر فكان رمز لكل من عوقب بدون ذنب اقترفه كما عوقبت صحر لا لشيء إلا لأنها امرأة وأما فعلت ما يستحق العقاب فنالها مثل الذي نال أمها لغير جريرة منها. أما عطر منشم فجاء رمزا للشؤم والبلاء، فنجد زهير مثلاً قد وظفه في ملعقته حين قال: (229)

تَدَارَكُنْمَا عَيْسًا وَذُبْيَانَ بَعْدَمَا *** تَفَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنَشَمٍ

ومعناه في المثل وصلوا إلى أوج العداة والنزاع.

وفي المثل السابع جعلت دغة رمزا للحمق، ذلك أنها وصلت إلى منتهى الصفة وأبلغها فقيل أحقق من دغة، ودغة اسم امرأة عرفت قصتها قديما. (230)

وفي المثل الثامن والتاسع جعل الأبلق العقوق رمزا للعز وياقل رمزا للعين، فالأبلق العقوق هو حصن السموأل (231)، أما ياقل فهو رجل عرف بالعي وهو العجز في إتيان الحجة (232).

(226) – خير الدين شمسى باشا، معجم الأمثال العربية، 531/1.

(227) – نفسه، ص 531/1.

(228) – نفسه، 532/1.

(229) – ورد هذا البيت في معلقة زهير بن أبي سلمى (الطويل)، ومنشم إسم امرأة عطارة إشتري قوم منها جفنة من العطر وتعاقبوا أو تحالفوا وجعلوا آية الحلف غمسهم الأيدي في ذلك العطر فقاتلوا العدو الذي تحالفوا على قتاله فقتلوا عن آخرهم، فتظير العرب منه وسار مثلاً، وقيل: بل كان عطارا يشتري منه ما يحنط به الموتى فسار المثل بعطره.

(230) – أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 495.

(231) – نفسه، ص 493.

(232) – نفسه، ص 496.

وفي الأخير نقول أنه رغم هذا التقسيم الذي أجريناه على الأمثال في سبيل عرض ما تحتويه من كناية وبشتى أنواعها، ثم ما تضمنته من تعريض وتلويح ورمز، إلا أنه لا يمكن الجزم بهذه التقسيمات، لأننا تبينناها في هذه الدراسة لغرض واحد هو تبيان ما تتميز به الأمثال العربية فيما يخص الكناية وما يتبعها من تعريض ورمز وتلويح،

4-3- المجاز:

إن لفظ المجاز مأخوذ من الجذر اللغوي جاز أو جوّز، ونقول أجاز الشيء وجوّزه إذا أعطاه رخصة أن يستعمل في غير ما وضع له، ونقول هذا أمر جائز أي ليس بحرام، وتجاوزت الخطأ إذا تغاضيت عنه.

ومن المعروف أن لفظة المجاز تستعمل في مقابل الحقيقة، ونقول هذه حقيقة وهذا مجاز، فالحقيقة هي أصل وضع الأمر، والمجاز هو وضع جديد أتخذ للشيء واعتبر تجوّزا على أنه الحقيقة.

فلفظة المجاز إذن قبل أن تكون مصطلحا بلاغيا هي استعمال لغوي ورد في أكثر من موضع، وعرفت أولا في أمور الدين، فكثيرا ما نقول جاز هذا الأمر أن يكون كذا، وجاز في الوضوء أن تفعل هذا إلى غير ذلك من أمور الدين، أما ونحن في إطار الدراسة البلاغية فإنه يجدر بنا أن نشير إلى معناها عند علماء البلاغة، ونلتزم به.

يمكن القول بداية أن مصطلح المجاز هو مصطلح أخذ أكثر من دلالة عند علماء اللغة عامة وعلماء البلاغة خاصة، فمنهم من أطلقه على لبيان ونعني بذلك التشبيه والكناية والاستعارة والمجاز المرسل والعقلي، ومنهم من قال أن المجاز أوسع من ذلك ومنهم من أطلقه على مصطلح الاستعارة، ومن أفرد له نوعا خاصا قسّمه إلى نوعين هما المجاز المرسل والمجاز العقلي، ولكل ذلك شواهد وأقوال لعدد من المختصين بعلم البلاغة.

إن ابن الأثير في حديثه عن الحقيقة والمجاز يقول: «وهذا الفصل مهم كبير من مهمات علم البيان، لا بل هو علم البيان بأجمعه فإن تصاريف العبارات على الأسلوب المجازي فوائد كثيرة [...]، وأما المجاز فهو ما أريد به غير المعني الموضوع له في أصل اللغة [...] كقولنا

زيد أسد [وهو من باب التشبيه] [...]، فإن نقلنا الشمس إلى الوجه المليح استعارة كان ذلك له مجازاً لا حقيقة». (233)

ورود أيضاً في تعريفه للكناية «يتجاذبها جانباً الحقيقة والمجاز، ويجوز حملها على كليهما معاً بعكس أقسام المجاز الأخرى التي لا يجب حملها إلا على المجاز» (234).

فابن الأثير في هذين التعريفين يبين أن المجاز هو علم البيان بأكمله تارة، ويجعله هو الاستعارة تارة أخرى، وجاء في أسرار البلاغة أن المجاز «كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز» (235)، وهذا ما أريد به في المجاز مقابل الحقيقة إذ يعرف في موضع آخر بالقول: «الحقيقة هي لفظ مستعمل فيما وضع له من حيث هو كذلك [...] والمجاز هو لفظ مستعمل في غير ما وضع له من حيث هو كذلك». (236)

وهكذا فالمعنى الشائع لكلمة مجاز هو مقابل الحقيقة، يؤخذ كمرجع فيه المرجع اللغوي، فما وافقه وما خالفه مع جواز هو المجاز، ويقسم علماء البلاغة المجاز قسمين:

عقلي: وهو ما يكون في الإسناد، أي في إسناد الفعل أو في معناه إلى غير ما هو له ويسمى أيضاً بالمجاز الحكمي والإسناد المجازي، ولا يكون إلا في التركيب.

لغوي: ويكون في نقل الألفاظ من حقائقها اللغوية إلى معانٍ أخرى بينها صلة ومناسبة، وهذا المجاز يكون في المفرد كما يكون في التركيب المستعمل في غير ما وضع له (237).

وذكر تمام حسان أن المجاز نوعان أيضاً، فمنه المبني على المشابهة وسماه **المجاز اللغوي**، ومنه المبني على غير المشابهة وسماه **المجاز المرسل**، وقال أن العلاقات التي يبني عليها المجاز المرسل علاقات عقلية تنتمي إلى المنطق الطبيعي المادي (238).

ولأن تمام حسان أعاد المجاز المرسل إلى علاقات عقلية فهو يماثل التقسيم الأول الذي أشار إلى نوعين للمجاز هما: العقلي واللغوي.

(233) - ابن الأثير، المثل السائر، 74، 75/1.

(234) - نفسه، 182/2.

(235) - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1999، ص 197.

(236) - محمد بن علي بن محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، ص 182، 183.

(237) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني.....، ص 337.

(238) - تمام حسان، الأصول - دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب (النحو - فقه اللغة - البلاغة)، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1420هـ - 2000م، ص 333.

ونضيف أنه في التقسيم الأول قد جعلوا الاستعارة نوع من المجاز اللغوي، لكننا في بحثنا هذا سوف نجعلها قسماً رابعاً مستقلاً من أقسام البيان (التشبيه، الكناية، المجاز، والاستعارة)، وهذا لا يعني مخالفتنا لكونها مجاز، إنما هو تقسيم تبينناه منذ بداية البحث في هيكلتنا لأجزاء الفصل الأول.

وبعد أن عرفنا كل من المجاز العقلي والمجاز اللغوي نأتي إلى التمثيل لكل من النوعين بما جاء في الأمثال العربية، وتقسّم هذه المجازات وفق ما قسمت إلى نوعين:

أ- المجاز العقلي:

* أَضِيءُ لِي أَفْدَحَ لَكَ (239).

* الْإِثْمُ مَا حَكَ فِي الصِّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ عَنْهُ وَأَفْتُوكَ (240).

* طَوَّبْتُ فَلَانًا عَلَى بَلَالِهِ. (241)

* حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ. (242)

* النَّبْعُ يَفْرَعُ بَعْضُهُ بَعْضًا. (243)

* إِنِّي آكُلُ لَحْمِي وَلَا أَتْرُكُهُ (أَدَعَهُ) لِأَكِلِ. (244)

ففي المثل الأول أطلق لفظ الإضاءة (أضئ) والقده أي الإشعال (أقدح)، وذلك من قبيل المجاز لأن القصد منه مقابلة قضاء الحاجة بقضاء أختها، ولا يفهم معنى هذا المجاز إلا بمعنى التركيب كله فالإضاءة الأولى تفهم بمعنى القده الثاني.

وفي الثاني الذي هو حديث نبوي يصف فيه النبي ﷺ الإثم ويعطي دلالاته فيقول (الإثم ما حك في الصدر)، وحك هنا بمعنى حز والحز من القطع ولا يكون ذلك إلا بالسكين، والنبي ﷺ هنا لا يقصد القطع الحسي (الحقيقي)، وإنما يقصد به القطع المجازي، وهو ما يتركه الذنب

(239) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 205.

(240) - نفسه، ص 309.

(241) - نفسه، ص 230.

(242) - نفسه، ص 320.

(243) - نفسه، ص 63.

(244) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 213.

أو الإثم من غصة في النفس، تجعل فاعله يشعر بالمرارة وإن حاول الناس التخفيف عنه بتهوين شأن الإثم، وذلك ما معناه (وإن أفتاك الناس عنه وأفتوك).

أما في المثل الثالث (طويت فلانا على بلاله)، فبالله بقية مودته وحبه، وقيل طويته على ما فيه من عيب⁽²⁴⁵⁾، ونلفظ الطوي هنا استعمل مجازاً لأن الطوي لا يكون إلا للورقة تطوي على ما فيها من كتابة والطوي هنا يفيد معنى التستر على العيوب مع ما بقي من محبة ومودة.

والمثل الرابع حديث نبوي شريف (حبك الشيء يعمي ويصمم)، ومعنى الحديث هنا أن المرء إذا أحب غلبت محبته على قلبه فلا يرى رشده ولا ينظر عاقبته ولا يسمع عاذله، فينسب العمى والصمم للحب فهو ليس فاعله إلا على سبيل المجاز، لدلالة تغلبه على المرء لدرجة التحكم فيه وتوجيهه.

والمثل الخامس يضرب للرجل الشديد يلقي رجلاً مثله في الشدة⁽²⁴⁶⁾، ويؤتى بالنبع وينسب له القرع، فالنبع هو شجر ينبت في الجبال والقرع هو الضرب بالاصطدام، وهو لا يصطدم ببعضه، إنما يسند ذلك إليه لإرادة المعنى المقصود على سبيل المجاز، كما نقول الحديد بالحديد يفلح ولا نقصد الحديد إنما نقصد الشديد يقابل مثله فيتوافق معه.

أما في المثل الأخير (أكل لحمي ولا أدعه لآكل)، فالأكل هنا وردت على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة، لأن الأكل على ما جاء في قصة المثل الأصلية^(*) يعني الانتقام من الخصم، يفضل المرء أن ينتقم بنفسه ولا ينتقم له غيره، وهو نفس ما ورد في قوله تعالى: [...] أَيْحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ... [الحجرات/12]، وأكل اللحم في هذه الآية فسر بمعنى الاغتيال أو الغيبة أي الحديث في غياب الشخص بما يسيء إليه.

وينسب في الأمثلة السابقة أفعالاً لغير أهلها وفي غير مواضعها، والغرض منها المجاز والتعبير عن معانٍ بغير ما تعود الناس سماعه، فبذل أن يقول في المثل الأخير أخذ ثأري ولا أتركه لأحد، وهو المعنى المراد توصيله يقول المثل (أكل لحمي ولا أدعه لآكل)، وهو معنى لا

(245) نفسه، ص 230.

(246) - خير الدين باشا، معجم الأمثال العربية، 2540/3.

(*) - وردت قصة المثل الأصلية في كتاب فصل المقال..... (المدونة) في الصفحتين 212-213.

يدركه إلا ذوي الفهم الثاقب كذلك لا يطلق إلا من ذوي البلاغة والبيان لذلك سمي عبد القاهر الجرجاني هذا النوع من المجاز بالمجاز الحكمي⁽²⁴⁷⁾.

ب- المجاز اللغوي:

* صرَّحَ الْحَقُّ عَن مَحْضِهِ. (248)

* مَحَا السَّيْفُ مَا قَالَ ابْنُ دَارَةَ أَجْمَعًا. (249)

* الْقَوْمُ فِي أَمْرٍ لَا يُنَادَى وَلِيَدُهُ. (250)

* جَدَعَ اللَّهُ مَسَامِعَهُ. (251)

* الْيَوْمُ ظَلَمَ. (252)

في المثل الأول (صرَّحَ الحق عن محضه) وظف المجاز في لفظة (صرَّح)، والتصريح يكون للمتعمق يقول الحق بعد كتمانته، وهو معنى المثل انكشف لك الأمر بعد ستره، وهو قريب من معنى قوله تعالى: [قالت امرأة العزيز الآن حَصَّصَ الْحَقُّ] (يوسف/51)، والمحض - في المثل - الخالص الذي لا يشوبه شيء يخالطه، وصرَّح على وزن فَعَّل أي فعل الشيء عن إرادة ومعرفة وأسند للحق على سبيل المجاز، فالحق لا يصرح إنما يبين وهذا هو المعنى المقصود أي انكشف كل الحقيقة.

والمحي في المثل الثاني جاء بمعناه المجازي وابن دارَةَ اسم رجل⁽²⁵³⁾، وفيه معنى ضربة السيف أزلت ما فعله ابن دارَةَ هذا، والمقصود الانتقام، و(محا) هنا لا تدل على معنى الإزالة في الحقيقة، لأن اللفظة (محا) تستعمل في معنى إزالة أثر الكتابة أو الرسم.

والمثل الثالث يدل على الانشغال الشديد بالأمر إلى درجة الانصراف عن كل شيء سواه، ويبلغ فيه الجهد أن تذهل فيه المرأة عن صبيها أن تدعوه⁽²⁵⁴⁾، ذلك إذا أخذ على تقدير

(247) - الجرجاني، دلالات الإعجاز في علم المعاني، ص 242.

(248) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 60.

(249) - نفسه، ص 25.

(250) - نفسه، ص 471.

(251) - نفسه، ص 99 (الهامش).

(252) - نفسه، ص 373.

(253) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 25.

(254) - نفسه، ص 471.

الكناية أما إذا نظرنا إلى صيغة المثل فنجد أن كلمة (وليده) والهاء في آخرها تعود على لفظة (أمر)، والأمر لا وليد له.

وإنما إذا حملنا على المجاز فقلنا أنه يقصد الخلف، والقوم هنا منشغولون بالأمر فكيف بخلفه، فهم لا ينادون ولا يريدون خلفا منه أي أمرا مثله من باب أن الابن يشابه أباه، فالوليد ينسب للأمر بدليل المشابهة .

أما في المثل الرابع فقيل (جدع الله مسامعه)، والجدة هو القطع، ولا معنى حقيقي لذلك في المثل إنما يعني به الصمم، وإنما أستعمل الجدة على سبيل المجاز لما لهما (جدة والصمم) من أثر متماثل (فقد السمع)، ويضرب هذا المثل للدعاء بالشر.

والظلم في المثل الخامس نسب لليوم وجعل على أنه الظالم مجازا، واليوم هنا يقصد به الحظ لأن المثل يضرب للرجل يؤمر أن يفعل الشيء كان يأباه ثم يفعله⁽²⁵⁵⁾، وهو على سبيل معنى (يوم لك ويوم عليك) وهذا المجاز في الظلم قرينته السببية.

والمجاز في مجمله تشخيص لما هو معنوي، وتوضيح لما هو غامض، وتكملة لما هو ناقص، فضلا على ما يضيفه على المعنى من جمال من خلال هذا الاقتران بين المادي والمعنوي، وبين المعقول والمحسوس لأن البيان - والمجاز أحد صورته - يهدف إلى إجلاء المعنى وإفهامه للسامع خاصة وهو يرد في صيغة المثل الذي يحمل عبرة وفكرة تسدي نصيحة أو تخبر على قصة أو تتهكم على معنى أو توبخ أو غير ذلك.

4-4- الاستعارة:

إن الاستعارة تدل على أخذ الشيء من عند الغير لقضاء حاجة ثم إرجاعه إليهم من جديد، والاستعارة بنفس المعنى هي مصطلح بلاغي طالما ورد في عدد من الدراسات.

غير أنها - في رأي بعض الدارسين - كانت أقل حظا ونصيبا في تصانيف النقاد والبلاغيين الأوائل، إذ لم يهتم بها ابن طباطبا، وأدخلها قدامة في باب المعازلة^(*).

ونفس اهتمام النقاد الأولين بالتشبيه وإهمالهم الاستعارة تفسيرا يستحضر الغلو ونفورهم منه، لأن الأداة في التشبيه تحافظ على استغلال الطرفين [أي تضمن أقل ورود للغلو والمبالغة]، وترد توهم التدخل الكلي [بين طرفي التشبيه] أو التفاعل [بينهما]⁽²⁵⁶⁾.

(255) - نفسه، ص 373.

(*) - المعازلة: هي تراكم الحروف المتنافرة في اللفظة الواحدة وكذلك المفردات كنتالي الكلمات المتقاربة الحروف وراء بعضها (قير- قرب- قفر).

والاستعارة لذلك تتداخل مع عدد من الصور البلاغية، فهي تشترك مع التشبيه في كونها (تشبيه حذف أحد طرفاه إما المشبه وإما المشبه به)، ومع المجاز في كون اللفظ المستعار لا يعبر على المعنى حقيقة بل المجاز من باب المجاز فقط، ومع الكناية في أن المشبه به حين حذفه يكتفي عنه بأحد لوازمه، فيعرف هو بها.

وبذلك فالاستعارة هي كل البيان، وقد ورد في بعض المراجع أن الاستعارة من خصائص الشعر لا من خصائص النثر، وهذا ما أشار إليه القائلون بأن الإنزياح في الاستعارة مجالا غنيا، ويقدمون الكثير من تحليلاتهم في ذلك، ويستدلون بما أورده جون كوهن بشأن الاستعارة من حيث كونها تشكل الخاصية الأساسية للغة الشعر.⁽²⁵⁷⁾

أما عن تعريف الاستعارة فقد وردت في كتب البلاغة الكثير من التعريفات بشأنها ربما اختلفت في طريقة التعبير عنها، إلا أنها تعطي في الأخير نفس الدلالة.

فالجاحظ يعرفها بكونها «تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه»⁽²⁵⁹⁾، أي إذا عبر عنه، وهي عند الجرجاني «أن تريد تشبيه الشيء، فتع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه، تريد أن تقول: رأيت رجلا هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء، فتدع ذلك وتقول: رأيت أسد»⁽²⁶⁰⁾.

ويقول أبو هلال العسكري: «الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض»⁽²⁶¹⁾، وقال الأمدى بما معناه هي استعارة المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه في بعض أحواله أو كان سببا من أسبابه⁽²⁶²⁾.

وربما كان هذا التعريف الأخير للأمدى جامع لمعنى الاستعارة ولو أنه لا يختلف عن سابقه كثيرا، إلا أنه بسط أكثر معنى الاستعارة.

ويمكن القول بعد ذلك أن الاستعارة مجاز علاقته المشابهة، وكلمة التشبيه ترد عند تحليل الاستعارة أو إجرائها، ثم هي في حقيقتها تشبيه حذف أحد طرفيه⁽²⁶³⁾، ويقصد بإجراء الاستعارة الجانب التطبيقي لها على مختلف النصوص.

(256) - عبد الإله سليم، بينات المشابهة في اللغة العربية.....، ص 26 .

(257) - نفسه، ص 51.

(259) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية.....، ص 362.

(260) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 93.

(261) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية.....، ص 368.

(262) - نفسه، ص 368.

(263) - نفسه، ص 363 .

ونحن الآن بصدد الأمثال نقوم بتحليلها، والإشارة إلى الاستعارة فيها، مع ذكر المشبه والمشبه به إن وجدا، وتوضيح العلاقة الرابطة التي جعلت صاحب القول يستعير هذا اللفظ للتعبير عن ذلك المعنى أي ما يسمى بمناسبة المستعار منه للمستعار له.

أقسام الاستعارة:

وقد قسم علماء البلاغة الاستعارة - مثلما سبق أن قسموا صور البيان الأخرى- إلى عدة أقسام باعتبارات مختلفة.

فالتقسيم الأول كان باعتبار الملائم إلى مرشحة، مجردة ومطلقة، فالمرشحة هي ما ذكر ملائم للمشبه به أي المستعار منه، والمجردة هي ما ذكر معها ملائم للمشبه أي المستعار له، والمطلقة هي ما خلت من ملائم المشبه وملائم المشبه به أو ذكرنا معا⁽²⁶⁴⁾.

والتقسيم الثاني كان باعتبار الأفراد والتركيب إلى مفردة ومركبة، فالمفردة هي ما كان لمستعار فيها لفظا مفردا كما هو الشأن في الاستعارة التصريحية والمكنية، والمركبة هي ما كان المستعار فيها تركيبيا، وهذا النوع من الاستعارة يطلق عليه البلاغيون اسم الاستعارة التمثيلية⁽²⁶⁵⁾ (*).

أما التقسيم الثالث فكان باعتبار لفظ الإستعارة إلى أصلية وتبعية، فالأصلية ما كان اللفظ المستعار فيها اسما جامدا غير مشتق، والتبعية ما جاء فيها اللفظ المستعار أو الذي جرت فيه الاستعارة اسما مشتقا أو فعلا.⁽²⁶⁶⁾

في حين أن التقسيم الرابع كان باعتبار ذكر أحد طرفيها إلى تصريحية ومكنية، فالتصريحية هي التي صرح فيها بالمشبه به وطوى ذكر المشبه، أما المكنية فهي ما حذف فيها المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه.⁽²⁶⁷⁾

هذا عن التقسيمات التي وردت بخصوص الاستعارة، غير أننا في الجانب التطبيقي سوف نقتصر على التقسيم الأخير (تصريحية ومكنية)، وربما أشرنا إلى كونها (أصلية أو

(264) - نفسه، ص 380-385.

(265) - نفسه، ص 386.

(*) - الاستعارة التمثيلية هي تركيب أستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.

(266) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية.....، ص 375-379.

(267) - السيد أحمد خليل، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، ص 231.

تبعية) - ذلك أنني أحسب أن هذا التقسيم أهم من غيره لكونه يتعلق بذكر أحد طرفيها - ثم كونها جامدة أو مشتقة، ونمثل لذلك بعدد من الأمثال تبعاً لما نوردته من تقسيم للاستعارة.

أ - الاستعارة التصريحية:

* رَحِمَ اللهُ رَجُلًا أَهْدَى إِلَيْنَا عُيُوبَنَا. (268)

* هُوَ عَلَى حَبْلِ ذِرَاعِكَ (269).

* لَتَحَابَّبَهَا مَصْرًا (270).

* بَرِّقَ لِمَنْ لَا يَعْرِفُكَ (271).

* حَنْفُهَا تَحْمِلُ ضَانًا بِأُطْلَافِهَا (272).

* الْحُمَّى أَضْرَعَتْنِي إِلَيْكَ (273).

* رَمَاهُ بِأَقْحَافِ رَأْسِهِ (274).

* رَمَاهُ بِبِئَالِنَةِ الْأَثَافِي (275).

* الشُّجَاعُ مُوقَى (276).

* حَلَّ سَبِيلَ مَنْ وَهَى سِقَاؤُهُ (277).

* سِرُّكَ أَسِيرُكَ فَإِنْ نَطَقْتَ بِهِ فَأَنْتَ أَسِيرُهُ. (278)

لفظة (أهدى) في المثل الأول من الهداية جيء بها هنا لإفادة معنى الشكر على النصيح، ومحاولة الإرشاد للعيون وهذه الكلمة (أهدى) من قبيل الاستعارة التصريحية التبعية لأنه يشبه النصيح وتقديمه بالهدية تعطى فيشكر صاحبها، فلم يذكر النصيح (مشبه) بل حذفه وذكر المشبه به الهدية (أهدى)، فهو إذن صرح بالمشبه به لذلك سميت بالتصريحية، أما عن كونها تبعية لأن اللفظ المستعار (أهدى) لفظ مشتق (فعل).

(268) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 374.

(269) - نفسه، وجدت هذا المثل في فهرس الأمثال ولم أجده ضمن الشرح.

(270) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 488.

(271) - نفسه، ص 449.

(272) - نفسه، ص 456.

(273) - نفسه، ص 176.

(274) - نفس، ص 96.

(275) - نفسه، ص 96.

(276) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، نفسه، ص 172.

(277) - نفسه، ص 162.

(278) - نفسه، ص 58.

أما في المثل الثاني فإن الاستعارة حصلت في لفظة (حبل ذراعك)، فهو إذ يشبه إمكانية التصرف في الأمر والتحكم فيه بوقوعه على حبل الذراع و(كاف)، الخطاب للنسبة إلى المخاطب، أي على حبل ذراعك أنت وليس على حبل ذراع غيرك، فصرح بالمشبه به (حبل ذراعك)، فكانت استعارة تصريحية حذف فيها المشبه⁽²⁷⁹⁾، وجاء اللفظ المستعار لفظا جامدا فجعل الاستعارة تصريحية أصلية.

وجاء المثل الثالث كله استعارة (لتحلبنها مصرا) فهو تركيب أستعير للتعبير عن أن المتوعد يكلف غيره العناء دون فائدة أو بمعنى التوعد بالندم، ولعلها مثل قولهم (سوف تأكل (تعض) أصحابك ندما)، فهو يمثل للجهد و العناء بقوله (لتحلبنها مصرا)، والمصر هو الحلب بأطراف الأصابع⁽²⁸⁰⁾، فذكر المشبه به (الحلب مصرا) وحذف المشبه (القضية أو الأمر)، فهي إذن استعارة تصريحية لذكر المشبه، وتبعية لأن المشبه به (لتحلبنها) فعل مشتق، وهي فوق ذلك تمثيلية لأنها جاءت عبارة عن تركيب فيه تجسيد لصورة الحلب بالتالي تجسيد وتوضيح أكثر للمشبه، وقد ورد عند البلاغيين أن الأمثال في معظمها إن لم تكن كلها عبارة عن استعارات تمثيلية⁽²⁸¹⁾.

ولفظة (برق) من البرق ومعناه لمع أو أظهر نفسك، وهي من قبيل الاستعارة، حيث استعيرت لفظة (برق) للتعبير عن تكلف الظهور من قبل من لا يملك حظا في ذلك ثم هي تبعية لأن الفعل (برق) فعل مشتق، ويضرب للجان يتصنع الشجاعة، والبخيل يتكلف الجود، وذكر المشبه به (برق) وحذف الظهور (المشبه) فجاءت الاستعارة تصريحية.

ووضعت لفظة (أظلافها) في المثل الخامس مستعارة، وهي بمعنى ج م ظلف، وهو كل من اجتر من البقر والغنم والظباء، واستعاره الأخطل للإنسان⁽²⁸²⁾، كما أستعير في هذا المثل، حيث يشبه المرء يسعى في هلاكه بالضأن تحمل حنقها بين أظلافها والحنف هنا كناية عن (السكين)، فيحذف المشبه ويذكر المشبه به (الضأن)، فهي نوع من الاستعارة التصريحية ثم هي تبعية من حيث هي تركيب يبدأ بفعل مشتق (يحمل)، وتمثيلية من خلال الصورة التي

(279) – أجد أن في هذا المثل يمكن أن نؤول لفظة (حبل ذراعك) على أنها استعارة كما ذكرنا ويمكن أن تكون كناية عن القدرة عن التحكم في الأمر.

(280) - خير الدين شمسي باشا، معجم الأمثال العربية، 2082/3.

(281) - السيد أحمد خليل، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، ص 234.

(282) – ابن منظور، لسان العرب، مادة (ظلف)، مج9، ص 229.

يرسمها تركيب (تحمل ضأن حتفها بأظلافها) الذي يجسد أماننا هذا الحمل، فيضيف على المعنى حركية وحيوية يشعر بها السامع وتشعره بمعنى التركيب.

والمثل السادس (الحمى أضرعتني إليك) مأخوذ من حوار بين اثنين وهذا ما سمي بالمثل الحوارية⁽²⁸³⁾، حيث شبه الذل بالحمى على سبيل الاستعارة التصريحية، لأنه حذف (المشبه) الذل وصرح بالمشبه به (الحمى) في أثر فعلها (أضرعتني) أي ذلتني، ويضرب للعزيز يهان وبذل، ثم هي أصلية لكون المستعار (الحمى) لفظ جامد غير مشتق تظهر تجسيدا وتشخيصا للموقف يدل دلالة واضحة على المعنى فهو من قبيل الاستعارة التمثيلية.

أما المثل السابع والثامن فيضرب للمرء يرمي صاحبه بالمعضلات والمصائب، وقد وظفت فيهما الاستعارة حيث شبه المعضلات في السابع بأقحاف الرأس، والقحف ما انفلق في جمجمة الرأس فبان⁽²⁸⁴⁾، فذكر المشبه به (أقحاف الرأس) وحذف المعضلات (المشبه)، لأن الاستعارة هنا تصريحية صرح فيها بالمشبه به.

وكذلك جاءت الاستعارة في المثل الثامن حيث حذف المشبه (المصائب والدواهي) وصرح بالمشبه به (ثالثة الأثافي)، وهي الثالثة من حجارة القدر تشعل النار ويوضع عليها، وقال الثالثة لأنها تمام عدد الحجارة ولتنتم المشابهة بين الموقنين الرمي بالمصائب للمرء والنار تشتعل تحت القدر وهو موضوع على الحجارة الثلاثة فتشتمله، والاستعارة في المثليين أصلية لأن لفظتي المستعار (أقحاف، ثالثة الأثافي) جامدة غير مشتقة.

وقد وردت الاستعارة في باقي الأمثال، وبنفس الغرض الذي أريد من توظيفها في الأمثال السابقة.

ب - الاستعارة المكنية:

* أَشَدُّ يَدَيْكَ بِغَرَزِهِ⁽²⁸⁵⁾.

* أَظْلَمُ مِنْ حَيَّةٍ⁽²⁸⁶⁾.

* أَمْسِكْ عَلَيْكَ تَفَقَّاتَكَ⁽²⁸⁷⁾.

(283) - محمد جمال صقر، الأمثال العربية - دراسة نحوية، ص 24.

(284) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (قحف)، مج 9، ص 275.

(285) أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 292.

(286) - نفسه، ص 492.

* إِنَّ شَرَّ الْمَرْزِيَّةِ سُوءُ الْخَلْفِ مِنْهَا⁽²⁸⁸⁾.

* أَوْفَتْ شَجَعَاتُ بِمَا فِيهِنَّ⁽²⁸⁹⁾.

* الْإِيمَانُ قَيْدُ الْفَتْكِ⁽²⁹⁰⁾.

* تَقَطَّعَ أَعْنَاقَ الرَّجَالِ الْمَطَامِعُ⁽²⁹¹⁾.

المثل الأول يضرب للتمسك بالشيء، لذلك نجد المتمثل يستعير لفظه غرضه (ركاب الجمل) للتكنية عن المشبه به (الجمل)، والمشبه هو الأمر أو الشيء يراد التمسك به وهذا ما يدعى بالاستعارة المكنية حيث يحذف المشبه به ويكنى عنه بأحد صفاته أو لوازمه. وكذلك شبه الحية في المثل الثاني بالإنسان ولم يذكره إنما كنى عنه بأحد صفاته (الظلم)، لأنه من لوازم المرء لا يوصف به غيره إلا مجازاً على سبيل الاستعارة المكنية كما هو موجود هنا، ثم هو من قبيل الاستعارة المكنية التبعية لأن لفظه الظلم (المستعار) مشتقة غير جامدة.

أما في المثل الثالث فيشبهه اللسان بالمال، ويأتي بالنفقة كلازم للمال من حيث يجب إنفاقه في مختلف الوجوه، فهي إذن استعارة لأنه أستعير فيها لفظ النفقة للتعبير على غير معناه وهي مكنية لأن النفقة لم تستعار لذاتها إنما لكونها لازم للمال وهو المقصود بالمشابهة من كون المرء يتكلم في مختلف القضايا وفي كل الأوقات متى شاء، كما يصرف أو ينفق من المال ما شاء وبأي وجه شاء، وهي من ناحية أخرى استعارة تبعية لأن لفظ النفقة مشتت، ويروى في ذلك قول العرب (ما صدقة أفضل من صدقة قول) وقيل (ما صدقة أفضل من قول الحق)⁽²⁹²⁾.

أما المثل الرابع فيضرب في الصبر عند النوازل والمرازي⁽²⁹³⁾، والمرزئة هي المصيبة، وسوء الخلق منها استعارة مكنية في تشبيهه المصائب بالناس لها خلف وولد من بعدها تورثه ما تملك، فلم يذكر الناس وذكر الخلف كلازم وصفة لهم وهي تبعية، لكون (الخلف) مشتق لا جامد، ويبدو أن سوء الخلف هنا يقصد به فقد الصبر، والذي بدوره يورث صاحبه وزراً وإثماً

(287) - نفسه، ص 22 .

(288) - نفسه، ص 243.

(289) - نفسه، ص 86.

(290) - نفسه، ص 14.

(291) - نفسه، ص 408 .

(292) - خير الدين شمسي باشا، معجم الأمثال العربية، 553/1.

(293) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 242.

عند الله سبحانه وتعالى، أو ربما كان هو عدم الاعتبار والاتعاض من هذه المصائب لمن لا يتعظون لأخطائهم.

وفي المثل الخامس نجد المتمثل ينسب الوفاء لمن لا يتصف به لأن شجعات اسم لثنية ضيقة أو منعرج⁽²⁹⁴⁾، فهو هنا يشبه شجعات بالإنسان ويستعير لها لفظة الوفاء الذي هو من صفات الأنسان، فهذا إذن من قبيل الاستعارة المكنية لأنه لم يذكر الإنسان إنما كنى عليه بالوفاء وهو من لوازمه (مشبه به) ثم تبعية لأن الوفاء اسم مشتق لا جامد.

والمثل السادس حديث نبوي، فالفتك هو أن يأتي الرجل صاحبه وهو غار غافل حتى يشد عليه فيقتله⁽²⁹⁵⁾، وقد شبه الإيمان بالرجل يضع الوثاق في يدي من يخاف خطره فلم يذكر المشبه به (الإنسان)، إنما كنى عنه بأحد لوازم (القدرة على التقييد) في لفظة (قيّد)، وهذا ما يدعى بالاستعارة المكنية من حيث أنه أستعار لازم من لوازم البشر للتعبير عن هذه المشابهة، وهي استعارة مكنية تبعية لأن لفظة (قيّد) مشتقة، وهذا التقييد هو مجازي من حيث أن الإيمان مانع يجعل الإنسان لا يقوم بهذا الفتك الذي هو خداع وجريمة.

وفي المثل الأخير يشبه المطامع بالسكين ولا يذكره بذاته إنما يذكر لازمه القطع ويستعيره للتعبير عن المقصود، والمطامع هنا هي الشهوات (من مال ونساء وسلطان...) وكل ما هو من ملذات هذه الدنيا، والاستعارة هنا مكنية وتبعية لأنه لم يذكر المشبه به (السكين) بل ذكر لازمه (القطع)، وكنى عليه به ولأن لفظة القطع مشتقة فهي تبعية.

إن الأمثال السابقة لا تعدو كونها أمثلة ليس إلا، ثم هي نماذج عن ورود الاستعارة في الأمثال وكيف توظف ولأي غرض، ونلاحظ أن إيرادها يكاد يكون نفسه في كل مثل غير أنها تعطي معنا خاصا في كل واحد من الأمثال لا يوجد في غيره، إذ الغرض منها هو توضيح المعنى وإجلائه مثلما هو حال كل الصور البيانية، فضلا على التشخيص والتجسيد الذي تضيفه على معاني الأمثال حيث نجدها تضج بالحركة والحيوية والنشاط.

(294) - نفسه، ص 86 .

(295) - خير الدين شمسى باشا، معجم الأمثال العربية، 743/1.

5- خلاصة عامة للفصل:

مثلما سبق فقد تناولنا في هذا الفصل صور البيان كما وردت في كتب البلاغة، وقمنا بالتمثيل لكل ذلك بالأمثال العربية التي تتضمنها مدونة البحث، ومن خلال هذه الدراسة أمكننا أن نصل إلى عدد من الملاحظات:

* إن الأمثال تحتوي كل أنواع التشبيه غير أننا نجد بعضها يتوارد بكثرة من مثل تشبيه المحسوس بالمحسوس وتشبيه المعقول بالمحسوس، ذلك لأن هذا النوع أوضح وأضمن في نقل المعنى وإجلائه، مما يسهل توصيل فكرة المثل، كذلك التشبيه البليغ لأن له قدرة على التأثير من حيث كونه يساوي بين المشبه والمشبه به إلى حد التمازج والتفاعل، إضافة إلى نوع التشبيه المرسل لأن وجود الأداة بين المشبه والمشبه به يساعد على فهمه، فالمثل مقولة العامة وتستقبلها العامة.

* أما بالنسبة للكناية فإن ورودها في صيغة المثل كثير كذلك لأنها هي الأخرى لها أغراضها التي تتحقق من خلالها، من حيث هي تغطية لعدد من المواقف والأسماء، وربما كانت أوضح

من التصريح ذاته فتلما نقول (رب إشارة أبلغ من عبارة ورب كناية أوضح أو أدل من تصريح)، كما أن بلاغة العرب الأوائل أتاحت لهم سهولة التحكم في اللغة وملكهم لزماتها إضافة إلى ما أشرنا إليه في خاتمة حديثنا عن الكناية.

* أيضا كان للمجاز مجالا واسعا في المثل حيث ورد بنوعيه مثلما تناولنا في الدراسة باعتبار المجاز نوع من أنواع البيان، وقد لاحظنا غنى المثل بهذا النوع من صور البيان ذلك أن العرب يملكون خيالا واسعا سعة البيئة التي يعيشون فيها.

* وكان للاستعارة حظها من الوجود في عبارة المثل لأنها ترد في كثير من الأمثال، وقد جاء في بعض كتب البلاغة أن الأمثال كلها استعارات تمثيلية، من حيث كون المورد تمثيل للمضرب، فالمتمثل لا يتقيد بقصة المثل الأصلية في إطلاقه للمثل في موقف ما إنما هي مقارنة يراها في مضرب المثل ويتخيلها في دلالاته.

الفصل الثالث:

الأساليب ودراسة المعاني في تركيب المثل

- 1- توطئة
- 2- علم المعاني (مفهومه وموضوعه)
- 3- أضرب الأسلوب في عبارة المثل.
- 4- أحوال الإسناد في المثل.
- 5- القصر في المثل.
- 6- الفصل والوصل في المثل.
- 7- الإيجار، الإطناب والمساواة في المثل.
- 8- خلاصة عامة للفصل.

1-توطئة:

يهتم علم المعاني وعلم النحو كلاهما بموضوع واحد هو دراسة الجملة أو التركيب، بل إن علم المعاني أدق في دراستها وأكثر اهتماماً بها، إذ يورد مهدي المخزومي في كتابه (النحو العربي نقد وتوجيه) رأياً يقرّ من خلاله أن الجملة قد لاقت اهتماماً أكثر عند علماء المعاني على عكس النحاة، إذ الفريق الأخير اهتم بها لا لذاتها، بل لأنها تركيب لعدد من المفردات .

وفي نفس المذهب يقول تمام حسان: « إذا كانت الشراكة في دراسة الجملة قائمة بين علم النحو وعلم المعاني، فإن النحو يبدأ بالمفردات وينتهي إلا الجملة الواحدة ، على حين يبدأ علم المعاني بالجملة الواحدة ، وقد يتخطاها إلى علاقاتها بالجمال الأخرى في السياق التي هي فيه...» (1).

فالنحو إذن اهتم بالجملة من حيث هي تركيب لعدد من المفردات ، بالتالي فعلاقته بها مبنية على علاقتها بالمفردة أو الكلمة ، إذ الكلمة تنتقل في سياق الجملة كإطار صغير و منه إلى إطار أكبر ألا وهو النص.

فالنحاة إذن اهتموا بالمفردة من حيث تموضعها في إطار الجملة إذ هي تغير موقعها من مكان إلى آخر، وبذلك تكتسب أهميتها أو قيمتها ، وهذا الإنتقال ورد عند النحاة بمصطلح الرتبة، إذ الكلمة عندهم تتخذ رتبة أو مرتبة في الجملة.

وقد حدد النحاة المرتبة «وجعلوها محفوظة وغير محفوظة، وقد ارتضى علماء المعاني هذا التقسيم ، وتجنبوا الكلام في الرتبة المحفوظة لأنها ليست مظنة اختلاف الأساليب بسبب حفظها وثبات وضعها ، وعمدوا إلى الرتبة غير المحفوظة فمناحها دراسة أسلوبية مهمة تحت عنوان التقديم والتأخير» (2).

ونكون بذلك قد أوضحنا العلاقة بين علم النحو وعلم المعاني من خلال ما سجله البلاغيون بخصوص ذلك ، وظل علم النحو يمشي في خط مستقل عن علم المعاني رغم التداخل الموجود بينهما أحيانا خاصة فيما يتعلق بدراسة الجملة مع أن لكل منطلقاته الخاصة ، فالنحو ينطلق من المباني كما يشير إليه علماء البلاغة، إذ نظره إلى تركيب الجملة يبدأ بإعرابها في شكلها الظاهري ثم ربط ذلك بالمعنى (3)، أما علم المعاني فينطلق دائما من

(1)-تمام حسان، الأصول ، دراسة ابستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب (النحو ، فقه اللغة، البلاغة) ، ص310.

(2) - نفسه، ص310.

(3) - تمام حسان، الأصول ، دراسة ابستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب (النحو ، فقه اللغة، البلاغة)، ص312.

المعنى في سبيل تشكيل مبنى بإمكانه حمل هذا المعنى، ولكل ذلك كما يقول البلاغيون قيل لكل مقام مقال⁽⁴⁾، فنحن ننظر إلى المقام لنجد ما يناسبه من مقال ولا نأتي بالمقال ونضعه كيف ما كان على المقام، ذلك بكل بساطة لأن المقام نواجهه، والمقال نحن من يتصرف فيه ، ولهذا لوحظ أن للنحاة أثرا كبيرا في تأسيس علم البلاغة والبحث في عدد من موضوعاتها وبوجه أخص فيما يتعلق بعلم المعاني لاتصاله بالجملة⁽⁵⁾.

2- علم المعاني (مفهومه وموضوعه):

إن هذا العلم محور كبير من محاور البلاغة الثلاثة ويعود الفضل في تأسيسه -باعتراف كل المختصين بعلم البلاغة- للإمام عبد القاهر الجرجاني خاصة في كتابه المسمى (دلائل الإعجاز في علم المعاني)، وهو لم يبحث فيه موضوع هذا العلم فحسب، بل تحدث فيه عن البيان -وقصد به البلاغة- لكنه ركز على نظرية النظم، التي أسس بها لعلم المعاني وقرنها كما قرنه بالنص القرآني محاولا أن يستنبط بعض ما جاء في القرآن من إعجاز من خلال نظريته تلك.

وعلم المعاني مثلما عرّفه عدد من المشتغلين به هو أصول وقواعد يعرف بها كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال، بحيث يكون وفق الغرض الذي سيق له ، وموضوعه اللفظ العربي، من حيث إفادته المعاني الثواني، التي هي الأغراض المقصودة للمتكلم من جعل الكلام مشتملا على تلك اللطائف والخصوصيات التي بها يطابق مقتضى الحال⁽⁶⁾.

فهو إذن بحسب هذا المفهوم مجموعة أصول وقواعد تمكن من معرفة الطريقة المثلى لترتيب سلسلة الكلام لدى الفرد كي يصبح هذا الكلام مطابقا للحال التي يقال فيها ، فهو أيضا طريقة منهجية في ذهن المتكلم يتبعها على شكل خطوات لتصل به في الأخير إلى أن يتمكن من تكوين سلسلة كلامية مطابقة لما يريد إيصاله إلى مستمع ما، في وضعية ما ، أي مطابقة مقتضى حال هذا السامع.

أما عبد القاهر الجرجاني فيقرن بينه وبين النظم ويرد ذلك لعلم النحو ، فيربط النظم بالقرآن الكريم، ولا يرى النظم إلا في تتبع قواعد النحو ومعرفة معانيه، فالكلمة عنده لا تعيش إلا بين أخواتها ، ترتبط بها ولا تفيد أي معنى بدونها .

(4) - نفسه ، ص 312.

(5) - عبد القادر حسين ، أثر النحاة في البحث البلاغي ، ص .

(6) - السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ضبط وتدقيق وتوثيق يوسف الصميلي ، ص 46،47.

ويورد تمام حسان أن الجرجاني يكاد أن يسمي هذا العلم (معاني النحو)، ويرجع مفاهيمه إلى أصول النحو وإلى أبوابه أي إلى ثوابته وتجريداته⁽⁷⁾.

ويشير صاحب (الإشارات والتنبيهات) أن السكاكي يقول أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في ثمانى أشياء يحصرها في : (أ) أحوال الإسناد الخبري (ب) أحوال المسند إليه (ج) أحوال المسند (د) أحوال متعلقات الفعل (هـ) القصر (و) الإنشاء (ز) الفصل والوصل (ح) الإيجاز والإطناب⁽⁸⁾.

وهذه هي -تقريباً- الأجزاء التي سوف تشملها الدراسة التطبيقية بخصوص الأمثال العربية ، وما يتعلق بتحليل تراكيبها وتتبع معانيها التي تتضمنها، كما سوف نحاول إبراز ما تتفرد به عن غيرها من الكلام شعره ونثره.

3- أضرب الأسلوب في عبارة المثل:

إن لفظة أضرب لا تدل بالضرورة على معنى الجمع دائماً، فنحن هنا نستعملها ولا نقصد بها معنى الجمع، لأن الأسلوب في الحقيقية ضربان فقط على ما حدده علماء البلاغة، وفي ذلك يقول تمام حسان: « أما بالنسبة إلى أضرب الأساليب فقد حاول علماء المعاني أن يربطوا بعلاقة بين (الضرب) و(مقتضى الحال) ، فحدد البلاغيون نوعين عامين للأسلوب هما (الخبر) و(الإنشاء) ، وبنوا التفريق بينهما على احتمال الصدق والكذب وعدم احتمالهما، وهو معيار منطقي لا فني »⁽⁹⁾.

وبذلك فهم يفرقون بين الخبر والإنشاء باحتمال الصدق وعدمه ، فيرون أن الأسلوب الخبري هو الذي يصح أن تقول لقائله أنت صادق أو كاذب، لأنه ينقل إليك خبراً يمكن أن يكون حقيقياً أو غير ذلك ، أما الإنشاء فهو الذي لا يكون فيه بإمكانك أن تقول لصاحبه إنك صادق أو كاذب، لأنه إما أن يكون أمراً أو نهياً أو استفهاماً أو نداءً أو تمنياً، وكل ذلك لا مكان للصدق أو الكذب فيه.

وزيادة على هذين الضريبتين ظهر ضرب ثالث أشار إليه تمام حسان ، ورأى أنه من غير المعقول نسبته إلى أحد الضريبتين السابقين باعتمادهما معيار احتمال الصدق والكذب وجعله قسماً ثالثاً قائماً بذاته ، ويقول بشأن ذلك: «ولقد أدى اعتمادهم على هذا المعيار إلى

(7) - تمام حسان، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب (النحو ، فقه اللغة، البلاغة)، ص311.

(8) - محمد بن علي بن محمد الجرجاني ، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، ص17.

(9) - تمام حسان ، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب (النحو ، فقه اللغة، البلاغة)، ص311.

اضطرارهم إلى التهرب من نسبة (الشرط) نسبة قاطعة إلى أحد الأسلوبين ،واعتباره أسلوباً ثالثاً قائماً بذاته يجوز عليه الصدق والكذب»⁽¹⁰⁾.

وبذلك يمكننا التركيز على الضريين الأولين، لأنهما وردا عند كل المهتمين بهذا العلم ، ولا بأس من الإشارة إلى الضرب الثالث لوروده عند تمام حسان.

3-1-أنواع الخبر في المثل:

وترد ج ل الأمثال على شكل أخبار ثم يليها قسم أقل على شكل إنشاء ويأتي قسم قليل جدا في شكل أساليب شرطية، وهذا ما سوف نوضحه بالأمثال الآتية:

* أْبَى الْحَقِيْنُ الْعَذْرَةَ⁽¹¹⁾

* أْبْدَى الصَّرِيْحُ عَلَى الرَّغْوَةِ⁽¹²⁾

* أَجْلَسْتُ عَبْدِي فَأَنْكَأَ⁽¹³⁾

* الْأُمُورُ سُلْكِي وَلَيْسَتْ بِمَخْلُوجَةٍ⁽¹⁴⁾

* الْإِيْمَانُ قَيْدَ الْفِتْنِكِ⁽¹⁵⁾

* الْبِطْنَةُ تَأْفَنُ الْفِطْنَةَ⁽¹⁶⁾

* الْبِلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ⁽¹⁷⁾

وكل هذه أمثال خبرية تفيد السامع معنى الخبر، وذلك غرض من أغراض أسلوب الخبر، فضلا على أنها تحقق لازم الفائدة كما أشار علماء البلاغة، وهو أن المتكلم عالم وعارف بهذا الخبر⁽¹⁸⁾، ذلك يعود إلى أن صاحب المثل إنما ألقاه ليفيد المتلقي من مضمونه، لأن هذا المضمون قد يكون خلاصة لتجربة، أو هو حكمة يرغب صاحبها أن يفيد منها غيره لئلا يقع في أخطاء من سبقوه، أو هو نصيحة يقدمها صاحبها إلى من يهمه أو يعنيه أمر مدلولها .

(10)- تمام حسان، الأصول دراسة ابستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب (النحو ، فقه اللغة، البلاغة)، ص311.

(11)- أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص54.

(12)- نفسه، ص60.

(13)- نفسه، ص397.

(14)- نفسه، ص305.

(15)- نفسه، ص14.

(16)- نفسه، ص409.

(17)- نفسه، ص95.

(18)- عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية علم المعاني -البيان -البديع ، 46، 47.

والمثل الثالث (أجلست عبدي فاتكاً) مرتبط بمرحلة معينة من حياة العرب، هي مرحلة العبد والسيد، إلا أن معناه يتجاوز ذلك في الدلالة على الإحسان لمن لا يقدره، ويقابله بالنكران والجحود، والعبد هنا يعدل عن دلالة العبودية الحقيقية إلى دلالة العبودية المعنوية التي يتضمنها معنى المثل القائل:

أَحْسِنُ إِلَى النَّاسِ نَسْنَعِبُ قُلُوبَهُمْ *** لَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانُ إِحْسَانًا

فالاستعباد هنا فيه معنى الإكثار من المعروف إلى درجة التفضل به، وذلك ما يعطي دلالة حكيمة في عدد من المواقف والحالات.

ويبدو أن هذه الأخبار -باعتبارها ما اشار إليه علماء المعاني - أخبار ابتدائية، ذلك أنهم يقسمون الخبر إلى ضرب ثلاثة ابتدائي، طلبي وإنكاري⁽¹⁹⁾.

وهذه الأمثال التي أوردناها آنفا تتدرج ضمن ما أسموه الخبر الابتدائي، ذلك أنها تلقى -أولاً- وذهن السامع خالي من أي حكم تجاهها، وهي ثانيا لا تتضمن أي مؤكد لفظي ولا معنوي، بينما غيرها يكون له مثل ذلك، فالأخبار الطلبية مثلا تتضمن مؤكدا لفظيا هو الحرف (إن) المؤكدة أو إن التأكيد غالبا، وذلك نمثل له بمجموعة ثانية من الأمثال العربية موضحين فيها هذا التوكيد كما يأتي:

* إِنَّ حَسْبَكَ مِنْ شَرِّ سَمَاعِهِ⁽²⁰⁾

* إِنَّ الْحَفَائِظَ تُثْقِضُ الْأَحْقَادَ⁽²¹⁾

* إِنَّ الرِّثِيَّةَ تَفْتَأُ الْعَضْبَ⁽²²⁾

* إِنَّ الشَّقِيَّ رَاكِبُ الْبِرَاجِمِ⁽²³⁾

* إِنَّ الْغَادِرَ الْمَعِكَ⁽²⁴⁾

* إِنَّ فِي الشَّرِّ خِيَارًا⁽²⁵⁾

* إِنَّ اللَّيْلَ طَوِيلٌ وَأَنْتَ مُقْمَرٌ⁽²⁶⁾

(19)- نفسه، ص49.

(20)- أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص89.

(21)- نفسه، ص234.

(22)- نفسه، ص249.

(23)- أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص454.

(24)- نفسه، ص380.

(25)- نفسه، ص244.

(26)- نفسه، ص339.

ويقول علماء البلاغة أن هذا النوع من الخبر مؤكد بمؤكد واحد هو (إِنَّ) ، لأنه يلقى إلى ذهن السامع العالم به، لكنه متردد في تصديقه ، فيستعمل صاحب المثل المؤكد (إِنَّ) ليفيده تأكيدا لهذا الخبر، يجعله يتخلى عن هذا التردد ويصدق القول ، ويسمى هذا النوع من الخبر (خبرا طلبيا) ، لأن صاحبه يطلب من السامع تصديق هذا الخبر، ففي المثل السادس مثلا (إِنَّ فِي الشَّرِّ خِيَارًا) يؤكد شيئا نعرفه ونتردد في تصديقه، فنقول أن الشر شر فكيف الخيار فيه، لكن هذا القول يجعلنا نعيد النظر في ذلك وندرك حقيقة هذا المعنى ، وهو ما يصدقه الواقع، إذ المصائب أخف من بعضها.

ويورد صاحب جواهر البلاغة أن الخطاب بالجملة الإسمية وحدها أكد من الخطاب بالجملة الفعلية ، فإذا أريد مجرد الأخبار أتى بالفعلية ، وأما إن أريد التأكيد فبالاسمية وحدها أو بها مع إِنَّ...⁽²⁷⁾ ، والأمثال السالفة كما نلاحظ كلها جملا اسمية أضيفت لها (إِنَّ) لتزيدها تأكيدا، لذلك كانت أخبار طلبية في درجة أولى من التأكيد.

وفضلا على ذلك ذكر البلاغيون نوعا ثالثا للخبر هو الخبر الإنكاري، وهو ما تجاوز فيه عدد المؤكدات الواحد وسمي بالإنكاري لأن السامع يسمع الخبر وينكره ، فيأتي صاحب الخبر ويعززه بأكثر من مؤكد ليحمله يصدق ما يحتويه ، ولمثل ذلك نورد الأمثال الآتية:

* إِنَّ الْجَوَادَ قَدْ يَعْتَرُّ⁽²⁸⁾

* إِنَّ الضَّجُورَ قَدْ تَحَلَّبُ الْعُلْبَةَ⁽²⁹⁾

* إِنَّ الْكُذُوبَ قَدْ يَصْدُقُ⁽³⁰⁾

* إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا⁽³¹⁾

* إِنَّ مَنْ بِالنَّجْفِ مِنْ ذِي قُدْرَةٍ لَقَرِيبٌ⁽³²⁾

* إِنَّهُ لَأَبْصَرُ مِنْ غُرَابٍ⁽³³⁾

* إِنَّهُ لَشَرَّابٌ بَأْنْفَعٍ⁽³⁴⁾

* إِنَّا وَإِيَّاهُمْ مِنْ طَالِبٍ لَقَرِيبٌ⁽³⁵⁾

(27)- السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في علم المعاني والبيان والبيدع ، ص58.

(28)- أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص43.

(29)- نفسه، ص434.

(30)- نفسه، ص 42.

(31)- نفسه، ص16.

(32)- أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص453 .

(33)- نفسه، ص491.

(34)- نفسه، ص152.

(35)- نفسه، ص453.

وهذا النوع بدوره يأتي لإقناع السامع المنكر للحكم ، لذلك احتوى على أكثر من مؤكد ، ففي المثل الأول والثاني والثالث جاءت (إنَّ) التوكيدية في بداية المثل ثم جيء بـ(قد) بعد ذلك في وسط المثل وهي كذلك من أدوات التوكيد، وكون الجمل الثلاثة اسمية توكيد ثالث يضغط على السامع ويساعد على إقناعه.

وأيضاً جاء المثل الرابع والخامس مؤكدين بأثر من مؤكد فـ(إن) في بداية المثل واللام في وسطه (لسحراً، لقريب)، وجملة المثل اسمية.

في حين جاء في المثل السادس والسابع والثامن أكثر من ثلاثة مؤكدات ، ففي السادس كانت (إن) وصيغة منتهى التشبيه (أبصر)، وهو فعل تفضيل ، و(اللام) واسمية الجملة، وفي السابع (إن) + صيغة المبالغة فعّال (شرّاب) + اللام + اسمية الجملة ، وكذلك في المثل الثامن جاءت (إن) + صيغة اسم الفاعل (طالب) + اللام + اسمية الجملة، كل ذلك جاء لإقناع السامع المنكر للخبر .

وفضلاً على ذلك فللخبر مؤكدات أخرى عدا ما ذكرنا ومثلنا هي : أن ، وأحرف التثنية والقسم ونونا التوكيد [الخفيفة والثقيلة]، والحروف الزائدة (كتفَعَل واستفعل) والتكرير، وأما الشرطية وإنما [...] وضمير الفصل وتقديم الفاعل المعنوي نحو الأمير حضر⁽³⁶⁾.

وكتعقيب لحديثنا حول الخبر في الأمثال العربية، يمكننا القول أن أغلب الأمثال العربية جاءت في صورة أخبار ، وقلماً نجد ما هو إنشائي ذلك أنها تخبر عن حوادث حصلت، وتؤرخ بوجه ما لديمومة هذا التواصل بين القديم والحديث في حلقة أو سلسلة بدايتها القديم الذي يتواصل مع الحديث بواسطة جسر هو هذا التراث الذي يزخر بما جمل من الآثار الفنية، التي خلفها القدامى واحترمها المحدثون.

3-2- أقسام الإنشاء:

الإنشاء كما أوردنا آنفاً ما لا يحتمل الصدق أو الكذب وهو بحسب تصنيف البلاغيين نوعان، إنشاء طلبى وإنشاء غير طلبى ، « فالطلبى هو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب ،وهو خمسة أنواع الأمر ، النهي ، الاستفهام، النداء، التمني ، أما غير الطلبى ، فهو ما لا يستدعي مطلوباً وله أساليب وصيغ كثيرة منها : صيغ المدح والذم التعجب ، القسم ، الرجاء ، صيغ العقود»⁽³⁷⁾ .

(36)- السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع ، تدقيق وضبط وتوثيق يوسف الصميلي، ص58.

(37)- عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية علم المعاني -البيان -البدیع ، ص66-69.

ويشير علماء البلاغة أن الإنشاء غير الطلبي ليس من مباحث علم المعاني ، ويرجعون ذلك إلى قلة الأغراض البلاغية التي تتعلق به من ناحية، ولأن أكثر أنواعه في الأصل أخبارا نقلت إلى معنى الإنشاء من ناحية أخرى، أما الإنشاء الذي هو موضع اهتمام البلاغيين ، لاختصاصه بكثير من الدلالات البلاغية فهو الإنشاء الطلبي⁽³⁸⁾ ، وهو ما سوف نركز عليه تمثيلاً، بأن نأتي بعدد من الأمثال العربية نبين فيها أقسامه مع تحليل للصيغ التي وردت عليها:

أنواع الإنشاء الطلبي					أنواع الأمثال
أمر	استفهام	نهى	نداء	تمني	
53	9	15	4	7	مثل نثري
8	4	3	0	2	مثل شعري
8	1	5	0	0	مثل حديث نبوي
2	1	1	0	0	مثل حكمي
3	2	2	0	0	مثل سائر

حاولنا في هذا الجدول أن نوزع أساليب الإنشاء الطلبي على حسب ما وردت في الأمثال التي احتوتها المدونة ، والتي كانت في أغلبها أخبارا، وما جاء منها إنشاء كان كما هو مبين، والذي يظهر فيه أن أسلوب الأمر غالبا في كل نوع من أنواع الأمثال، ثم تأتي الأنواع الأخرى من الأساليب، بحيث نلاحظ أن أسلوب النداء والتمني أقل حضورا من باقي الأساليب في صيغة المثل ، بينما يتوسط الاستفهام والنهي الحظ في الورد في عبارة المثل . ويرجع ذلك إلى أن المثل قد يكون دعاء إلى نوع من التصرف يأتي على شكل أمر أو هو حديث نبوي، يحمل أوامر يجب اتباعها مثلما هو حال كتاب الله ، أو أنه حكمة وردت على لسان أناس متميزين ومتفردين قصدوا إلى حمل تجاربهم في خلاصة لإيصالها إلى

(38) - نفسه، ص70.

الناس، قصد الإفادة منها أو أنها سارت في كلام العرب وتعارفوا عليها وصارت بمثابة المسلمات لديهم يأترون بها ويحتنون حذوها ، إن إيجابا وإن سلبا أي أمرا أو نهيا .
أما عن الاستفهام فجاء في أغلبه إنكاريا، يتهم على عدد من الأشخاص من أجل تصرفات عرفوا بها أو صفات اشتهروا من خلالها، ومع ما أوردناه في الجدول وتحدثنا عنه إلا أنه لا بد من التمثيل لهذه الأنواع من الأساليب واحدا واحدا.

3-2-1-الأمر:

وهو أن يطلب من الشخص فعل الشيء على وجه الإلزام، وعلى أن تكون بين الأمر والمأمور مساحة قد تزيد وقد تنقص وقد تتعدم ، فإذا كانت منزلة الأمر أعلى درجة من المأمور كان الأمر حقيقيا ، وإذا اختلفت عن ذلك بالاعتدال أو الدنو فإن الأمر سوف يخرج عن غرضه الحقيقي إلى أغراض أخرى تستفاد من سياق الكلام ، ولذلك نورد الأمثال الآتية:

* إِحْدَى لِيَالِيكَ فَهَيْبِي (39)

* أَتَبِعُ الدَّلْوَ رِشَاءَهَا (40)

* إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهَنْ (41)

* عَلَيْكُمْ بِالْجَنَبَةِ فَإِنَّهَا عَفَافٌ (42)

* مَنْ حَفَّنَا أَوْرَقْنَا فَلْيَقْتَصِدْ (43)

* إِيَّاكُمْ وَحَضْرَاءُ الدِّمَنِ (44)

هذه الأمثال كل منها يحوي أمرا صريحا من خلال صيغة تدل عليه،وعندها لا يكون الأمر حقيقيا مثلما هو في المثلين الأول والثاني ،وهي فعل الأمر غالبا ، وربما دل على النصح والإرشاد كما هو في المثل الثالث والرابع ،غير أنه قد يستبدل باسم فعله كما هو في المثل الرابع في (عليكم)أي الزموا، والسادس في (إياكم) أي احذروا أو اجتنبوا وفيها يدل الأمر على التعريض والتحقير الممزوجين بالنصح والإرشاد.

(39)- أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص463.

(40)- نفسه ، ص345، 346.

(41)- نفسه، ص235، 236.

(42)- أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص162.

(43)- نفسه، ص31.

(44)- نفسه، ص14.

وورد الأمر في أمثال أخرى بغير هذه الأغراض كالالتماس والدعاء والتهديد ، إلا أنه يصعب التمثيل لكل ذلك لكثرة الأمثال التي تحتويها المدونة من جهة وتعدد أوجه الدراسة البلاغية التي نحن بصددنا من جهة أخرى.

3-2-2- النهي:

ويظهر أنه طلب للكف على فعل الشيء أو الامتناع عنه على وجه الاستعلاء والإلزام⁽⁴⁵⁾، ويكون في الغالب لأن فعل الشيء الذي يطلب الكف عنه يلحق الضرر بالفاعل أو بغيره ممن يحيطون به وبهمهم أمره، ومن ذلك نورد عدد من الأمثال التي تضمنتها المدونة وتحتوي أسلوب النهي:

* لَا تَسْخَرْ مِنْ شَيْءٍ فَيَحُورُ بِكَ⁽⁴⁶⁾

* لَا تَهْرَفْ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَ⁽⁴⁷⁾

* لَا تَكُنْ حُلُومًا فَتُسْرِطَ وَلَا مَرًّا فَتُغْفَى⁽⁴⁸⁾

* لَا تَنْتَهَ عَنِ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ *** عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمًا⁽⁴⁹⁾

* لَا تَجْعَلْ شِمَالَكَ جُرْدُبَانًا^(*)⁽⁵⁰⁾

* لَا تُبْطِرْ صَاحِبَكَ ذَرْعَهُ⁽⁵¹⁾

* لَا تَحْمَدَنَّ أُمَّةً حَالَ اسْتِرَائِهَا وَلَا حُرَّةً عَامَ بِنَائِهَا⁽⁵²⁾

تشارك هذه الأمثال في أنها جاءت بصيغة النهي بواسطة (لا الناهية + الفعل المضارع) ، لكنها تختلف في كون كل منها تحمل دلالة معينة ، فالأول مثلاً ينهي عن السخرية من الغير في أسلوب مشوب بالتحذير ، يهدف منه للنصح والإرشاد ، والثاني ينهي عن الهرف وهو كثرة الكلام فيما لا يعرف ، وفيه معنى التوبيخ ، وغرضه التحقير والتعريض ،

(45)- عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية علم المعاني -البيان-البيدع، ص79.

(46)- أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص95.

(47)- نفسه، ص77.

(48)- نفسه، ص316.

(49)- نفسه، ص93.

(*)- الجردبان لفظة فارسية تعني حافظ الرغبة أو حافظ الخبز أنظر: خير الدين شمسي باشا ، معجم الأمثال العربية، 1964/3.

(50)- أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص410.

(51)- نفسه، ص410.

(52)- نفسه، ص77.

أما المثل الثالث ففيه معنى توسط الأمور والاعتدال إذ يقال (خير الأمور أوسطها) غرضه النصح والإرشاد لما هو خير ، ففي كل مثل نجد دلالة جديدة وغرضاً يهدف إليه. والأمثال المتناولة في مجملها تهدف إلى النصح، سواء منها التي أوردناها في حال الأمر أو في حال النهي، لأن الأمثال في أصله يوضع في أغلبه للنصيحة والتنبيه إلى مواضع الخطأ، من خلال استحضار قصته حين ضربه في موقف مشابه، وكل الأغراض التي أشرنا إليها أغراض تستفاد من سياق الكلام خرج فيها النهي والأمر عن غرضيهما الحقيقيين لأنهما استعمالاً لغيرهما.

3-2-3- الاستفهام:

وهو طلب الاستعلام عن شيء لم يكن معروفاً بأدوات تسمى أدوات الاستفهام ، وفيما يأتي نورد عدداً من الأمثال توضح هذا القسم من الأسلوب الإنشائي الطلبي وتبرز أدواته ومختلف المفاهيم التي تؤديها :

* أَسَائِرِ الْيَوْمِ وَقَدْ زَالَ الظُّهُرُ (53)

* أَضْرَطًا وَأَنْتَ الْأَعْلَى (54)

* عَبْدٌ وَخُلِيٌّ فِي يَدَيْهِ (55)

* وَهَلْ يَخْفَى عَلَى النَّاسِ النَّهَارُ (56)

* وَهَلْ يَكْبُ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ السُّنْتِهِمْ (57)

* كَيْفَ تُوقَى ظَهْرَ مَا أَنْتَ رَاكِبُهُ (58)

* كَيْفَ تَنْظُرُ الْقَدَى فِي عَيْنِ أَخِيكَ وَتَدَعُ الْجِدْعَ الْمُعْتَرِضَ فِي حَقِّكَ (59)

* قَدْ قِيلَ ذَلِكَ إِنْ حَقًّا وَإِنْ كَذِبًا *** فَمَا اعْتَدَارَكَ مِنْ قَوْلٍ إِذْ قِيلَ (60)

* أَقُولُ وَقَدْ فَاضَتْ دُمُوعِي بِعَبْرَةٍ *** مَتَى كَانَ حُكْمُ اللَّهِ فِي كَرْبِ النَّخْلِ (61)

(53)- نفسه، ص354،353.

(54)- نفسه ، ص339.

(55)- أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص291.

(56)- نفسه، ص128.

(57)- نفسه، ص19.

(58)- نفسه، ص453.

(59)- نفسه، ص95.

(60)- نفسه، ص90. وورد أن البيت قاله النعمان.

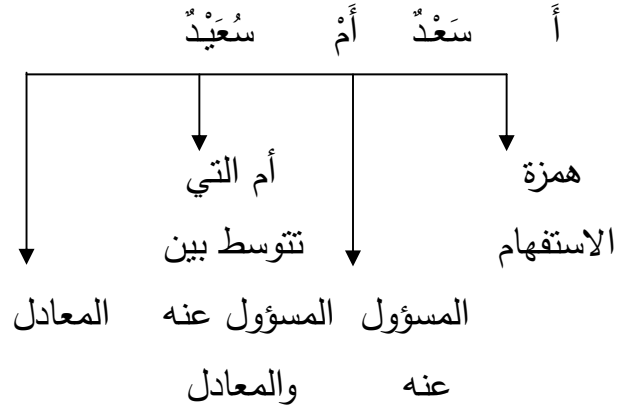
(61)- نفسه، ص415. وورد الصدر بغير ذلك في اللسان (أقول ولم أملك سوابق عبرة).

* أَسَعِدُ أُمَّ سَعِيدٍ⁽⁶²⁾

* أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبِ⁽⁶³⁾

بالنظر إلى هذه الأمثال نلاحظ أن الاستفهام فيها لم يكن بالأداة نفسها ولا جاء لغرض نفسه، فقد اختلفت فيها الأدوات ، ففي المثل الأول والثاني والعاشر كانت أداة الاستفهام هي الهمزة ولها مدلولين في الاستفهام كما أورده علماء المعاني أولهما التصديق وهو إدراك النسبة أي تعنيها⁽⁶⁴⁾، وهذا ما يظهر في المثليين الأول والثاني، فالسائل يطلب تصديق الأمر الذي رآه أو سمعه ، ففي الأول مثلاً يراه مغادراً فيسأله رغبة منه في تصديق ما يراه فيقول له (أ سائر اليوم وقد زال الظهر) وكانت العادة عندهم أن يسافر من ينوي السفر في الصباح .

أما في المثل العاشر (أ سعد أو سعيد) فدللت الهمزة فيه على معنى آخر أسماء البلاغيون التصور، وهو تصور الفرد أو تعيينه، وفي هذه الحالة تأتي الهمزة متلوة بالمسؤول عنه، ويذكر له في الغالب معادل بعد أم⁽⁶⁵⁾، وجاء المثل الآتي على نفس الترتيب:



وذكر المثل الثالث (عبد وخلي في يديه) بغير أداة الاستفهام لكنه يحمل مضمونه وغرضه التعجب، وقيل أن الخلي هو الرطب من النبات ويكنى به عن المال⁽⁶⁶⁾، وهو لغرض التعجب المشوب بالإنكار ، لأن المتكلم ينكر امتلاكه للمال.

أما في المثل الرابع والخامس فورد الاستفهام بواسطة أداة الاستفهام (هل) ، ويظهر أنها في المثل الرابع تعطي معنى أداة الاستفهام (الهمزة) أي معنى التصديق ، وذلك ما أشار

(62) - نفسه، ص 67.

(63) - نفسه، ص 44.

(64) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني- البيان- البديع، ص 87.

(65) - نفسه، ص 87.

(66) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 291.

إليه علماء المعاني في بعض حالات (هل)، لأنه يمكن استبدال (هل) هنا بالهمزة فنقول (أيخفى على الناس النهار).

في حين أن (هل) في المثل الخامس تعطي معنى النفي، فيمكن صياغة الحديث النبوي بصورة أخرى بواسطة (لا النافية) فنقول (لا يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم) ، والاستفهام هنا قد خرج عن غرضه الحقيقي إلى غرض آخر يستفاد من سياق الكلام، وهو في هذه الحالة النفي، فالنبي ﷺ لم يقصد الاستفهام إنما قصد إثبات الأمر فجاء بـ(هل)، التي هي هنا بمعنى (لا النافية)، ثم أتبعها بـ(إلا) الاستثنائية.

والمثل السادس والسابع تصدرتهما أداة الاستفهام (كيف) وقال البلاغيون أنها من أسماء الاستفهام ، فقد قسموا أدوات الاستفهام إلى حروف وأسماء ، فالحرفان هما الهمزة وهل، والأسماء هي بقية الأدوات (كيف، متى أين، أي ، أيان...).

والاستفهام في هذين المثلين (السادس والسابع) قد خرج عن غرضه الحقيقي إلى أغراض أخرى هي النفي في المثل السادس (كيف توقي ما أنت راكبه) وتقديره (لا توقي ظهر ما أنت راكبه) ، ويضرب في حكم الأقدار وما تأتي به سواء كان شرا أم خيرا، وجاء الغرض في المثل السابع التوبيخ والتحقير (كيف تبصر القذى في عين أخيه وتدع الجذع المعترض في حلقك) لمن ينسى عيوبه ويتبع عيوب الناس، ويظهر أن هذا التوبيخ ممزوج بنوع من التعجب الذي نجده في مثل قوله تعالى في كتابه: [أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ] (البقرة/44).

وجاء الاستفهام في المثل الثامن بـ(ما)، وهي أداة استفهام لغير العاقل (فما اعتذارك من قول إذا قيل) ، وقد خرج الاستفهام هنا عن غرضه الحقيقي إلى غرض التسوية، أي أن القول (قد قيل) كما ورد في صدر البيت (قد قيل ذلك إن حقا وإن كذبا) ولا يفيدك اعتذارك عن قوله ، ومعنى ذلك أن القول قد قيل فسواء اعتذرت عنه أم لم تعتذر فالأمر سيان.

أما في المثل التاسع فورد الاستفهام بالأداة (متى) التي تدل على الزمن ، ولكنها في هذا المثل لم تحمل هذه الدلالة لأنها لم تدل على استفهام حقيقي ، إنما جاءت بغرض إنكاري تهكمي تحقيري (متى كان حكم الله في كرب النخل)، لأن البيت ورد عن جرير يتهكم ويستهزئ فيه بحكم وضع بينه وبين الفرزدق ، وكانت (كرب النخل) بلدة هذا الرجل، ذلك أنه حكم لصالح الفرزدق فتهكم عنه جرير مستحقرا بلده (كرب النخل)، وهو يقصد إهانته وإنكار

الحكم عليه لأنه ليس أهلاً له.

وأخيراً ورد المثل الحادي عشر بأداة الاستفهام (أي) (أي الرجال المهذب)، وهذا الاستفهام خرج عن غرضه الحقيقي كما هو حال سابقه ، وجاء بمعنى النفي والإنكار ومعناه (لا وجود من الرجال من هو مهذب) أي كامل الصفات، وربما مثل بالتهذيب لأنه جوهر خلق الرجال، ولأن الرجل إذا تهذب سلوكه وتصرفه كمل وجمل خلقه.

ونخلص إلى أن الاستفهام في الأمثال لا يدل دلالاته الحقيقية في الغالب، لأنه يخرج عن غرضه الحقيقي -أي طلب معرفة الشيء- إلى أغراض أخرى ردها البلاغيون إلى سياق الكلام الذي ترد فيه، ذلك أن الأمثال لا تتطابق تطابقاً مطلقاً من حيث قصصها الحقيقية ومضاربيها، فهي تطلق في مواقف وتستمد من قصص مخالفة ، لأن صاحبها يطلقها ويريد من السامع أن يقدّر معناها تقديراً موافقاً للحالة التي هو فيها.

3-2-4- النداء:

وهو من أنواع الإنشاء الطلبي التي لم نجد لها أمثلة كثيرة في الأمثال العربية، وهو طلب إقبال المدعو على الداعي بأحرف مخصوصة ينوب كل حرف منها مناب الفعل "أدعو"⁽⁶⁷⁾، ونذكر له من الأمثال ما يأتي:

* يَا بَعْضِي دَعُ بَعْضًا⁽⁶⁸⁾

* يَا حَبْدًا الْمُنتَعِلُونَ قِيَامًا⁽⁶⁹⁾

* يَا حَرَزًا وَابْتَغَى النَّوَافِلَ⁽⁷⁰⁾

* يَا مَاءَ لَوْ غَصَصْتَ بَغِيرِكَ أَجَزْتُ بِكَ⁽⁷¹⁾

وقد استعملت في هذه الأمثال كلها أداة النداء (يا)، والتي تستعمل لنداء البعيد، ويبدو أن النداء في هذه العبارات لم يفيد غرضه الحقيقي ، ففي المثل الأول جاء بمعنى الندبة لأنه

(67) - عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية علم المعاني -البيان -البديع ، ص111.

(68) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص209.

(69) - نفسه، ص380.

(70) - نفسه، ص293.

(71) - نفسه، ص266.

طلب للرحمة والإشفاق، وفي الثاني أفاد معنى التحسر، لأن المثل يضرب للضعيف إذا تشبه بالأجلاد، وفيه معنى تمنى الشيء غير الحاصل، المشوب بالإهانة والاحتقار، والمثل الثالث فيه معنى الزجر أي أنني أحرزت المال وابتغى الزيادة، لأن النوافل فيها دلالة الصلاة الزائدة عن صلاة الفرض.

أما المثل الرابع ف جاء النداء فيه يفيد معنى التمني ممزوج بالإغراء، إذ في استعماله لـ(لو) أراد التمني وفي مدحه للماء (لو غصصت بغيرك أجزت بك) عنى الإغراء، وربما تضمن في تأويل معين معنى الاستغاثة، لأنه فيما أحسب فيه حذف وكأنه يقول (يا ماء لو غصصت بغيرك أجزت بك فكيف أفعل وقد غصصت بك) أي بما أجزك، وأظن أن معنى التمني في (لو) هو ما يدل على الحذف، ويضرب المثل للخيانة تأتي ممن نضع فيهم كامل الثقة، لأنها لو جاءت من غيرهم كانت أقل وقعا.

ومثلما ذكرنا لم تكثر أساليب النداء في الأمثال التي تتضمنها المدونة إنما اقتصر على هذه المجموعة التي ذكرناها فحسب، وهذا راجع إلى غرض إطلاق الأمثال، ودليل ذلك أن النداء هنا قد خرج عن معناه الحقيقي إلى معاني أخرى، لأن غرض النداء لا فائدة فيه للمعنى الذي يؤديه المثل.

3-2-5- التمني:

وهو أيضا لم يكثر وروده في عبارة الأمثال العربية على الأقل فيما احتوته مدونة الدراسة- بل اقتصر الأمر على عدد قليل من الأمثال، والتمني هو إرادة حصول أمر غير موجود أو هو مستحيل الوجود، ويقع ذلك بعدد من الأدوات إحداها أصلية وهي (ليت) وأخرى فرعية هي (لعل وهل ولو وعسى)، ويحصل هذا التمني لمحبة في حدوث الأمر أو طمعا في نيل الشيء، ونمثل له بما يأتي:

* لَعَلَّ لَهُ عُدْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ⁽⁷²⁾

* لَيْتَ حَظِّي مِنْ أَبِي كَرِبٍ *** سَدَّ عَنِّي خَيْرُهُ خَبَلَةٌ⁽⁷³⁾

* لَيْتَنِي وَفُلَانٌ يَفْعَلُ بِنَا *** كَذَا حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ⁽⁷⁴⁾

ونلاحظ أن الأمثال الثلاثة قد اقتصر على أداتين للتمني هما (ليت) و(لعل)، فالمثل الأول عجز بيت شعري صدره قول الشاعر (تأن ولا تعجل بلومك صاحباً)، فهو ينصح

(72)- أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص73.

(73)- نفسه، ص359.

(74)- نفسه، ص171.

صاحبه بأن لا يتعجل في لوم صديقه ، ويرجو أن يكون له عذر فيما قام به واستعمل (لعل) التي تفيد الترجي .

أما في المثل الثاني والثالث فجاء التمني بآداته الأصلية (ليت) ، ففي البيت الشعري - ويروى أن قائلته عجوز - تمني أن عطاء أبي كرب هذا يغطي أذاه الذي يلحقه بالناس (سد عني خيره خبله) والخبل هو الأذى .

وأيضا احتوى المثل الثالث معنى التمني الحقيقي فيقول (ليتني وفلان يفعل بنا كذا حتى يموت الأعجل)، وفيه معنى الاستماتة في الدفاع عن الشيء والصبر في طلبه. والتمني على قلته في الأمثال العربية أفاد معناه الحقيقي الذي وضع من أجله في أغلب أحواله.

وفضلا على ما مثلناه له من أقسام الإنشاء فإن هناك أقسام أخرى لم نمثل لأنها قليلة الورد إن لم نقل نادرة كالدعاء مثلا، إلى جانب أن هناك من الإنشاء ما يدل على الخبر أو العكس، كقول العرب (أَعَيْتَنِي بِأَشْرٍ فَكَيْفَ بَدُرْدُرٍ)⁽⁷⁵⁾ وكذلك (اجْعَلْ هَذَا فِي إِنَاءٍ غَيْرِ سَرِبٍ)⁽⁷⁶⁾ ، فالأول استفهام غرضه الأخبار عن أن هذا الرجل قد مل حياته مع زوجته في أصل القصة، والثاني أمر فيه معنى الإخبار عن الاحتياط في حفظ السر أي لا تخبره لمن يخبر عنه، والإناء هنا به صدر الإنسان الذي يُخْبَرُ بالسر.

وبذلك نكون قد تحرينا نقل الأساليب الخبرية والإنشائية التي احتوتها الأمثال العربية المتضمنة في المدونة موضوع البحث ، وذكرنا نماذج منها على سبيل التمثيل لكل نوع لأنه ليس بالإمكان ذكر كل الأمثال.

3-3-أسلوب الشرط في المثل:

رغم أن هذا النوع لم يرد إلا عند تمام حسان، حيث جعله أسلوبا وضربا مستقلا إلى جانب الضربين السابقين، إلا أننا نحاول أن نمثل لما ورد من الأمثال في شكله:

* لَوْلَا الْوَيْثَامُ هَلَاكَ الْأَنَامُ⁽⁷⁷⁾

* مَنْ يَسْمَعُ يَحَلْ⁽⁷⁸⁾

(75) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص183.

(76) - نفسه، ص56.

(77) - نفسه، ص237.

(78) - نفسه، ص412.

* مَنْ صَدَقَ اللَّهُ نَجَا (79)

* مَنْ سَلَكَ الْجِدَّةَ أَمِنَ الْعِتَارَ (80)

* إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَمْرًا فَعَلَيْهِ بِالتُّؤَدَةِ (81)

* إِنْ أَعْيَا فَرِزْدَهُ نُوطًا (82)

وقد اختلف الشرط من حيث النوع ومن حيث الأداة في الأمثال الستة السابقة، ففي الأول (لولا الوئام هلك الأنام)⁽⁸³⁾، جاء الشرط بـ(لولا) التي يحذف الخبر بعدها وجوبا حيث التقدير (لولا الوئام موجود هلك الأنام)، وفي معنى (لولا) امتناع لوجود، أي في إثبات الأول (الوئام) ففي الثاني (هلاك الأنام) والعكس صحيح.

أما في المثل الثاني والثالث والرابع فقد وقع الشرط بالأداة (من) والاختلاف بينهما يكمن في أن الثاني الشرط لازم (من يسمع يخل) ، معناه من يسمع أخبار الناس ومعابيحهم يقع في نفسه منهم المكروه ، والشرط في الثالث والرابع غير جازم ، إذ فعل الشرط وفعل جوابه فيها ورد ماضيا مبني على الفتح وكان المعنى في الثالث أن الصدق مع الله سبحانه وتعالى نجاة في الدنيا والآخرة، وفي الرابع أن المشي في الأرض المستوية أمان من التعثر.

وجاء الشرط في المثل الخامس بـ(إذا) في قول العرب (إذا أراد أحدكم أمرا فعليه بالتؤدة)، أي إذا أحب أحدكم فعل شيء حديث بالتروي، لأنه سبيل النجاح وقيل أن هذا المثل أصله حديث نبوي ، والشرط في هذه الحالة غير جازم كما ورد في المثلين السابقين لكنه اقترن بالفاء بإلغاء على خلافهما ، لأن الشرط إما أن يكون جازم وفيه حال واحدة وإما أن يكون غير جازم وفيه حالتين أن يأتي غير مقترن بفاء وهو ما جاء في المثلين السابقين أو أن يقترن بقاء وهو حال هذا المثل.

والمثل السادس (إن أعيا فزده نوطا) ابتداء بأداة أخرى غير ما ورد في الأمثلة السابقة وهي (إن) التي يمكن أن تعطي معنى (إذا) ، فقد نقول (إذا أعيا فزده نوطا) أي إن تعب فزده حملا ، والنوط جلة يكتنز فيها التمر ومعناه إن رأيتہ تعباً من كثرة التعليق عليه فزد أن علق عليه نوطا.

(79) - نفسه، ص 27.

(80) - نفسه، ص 315.

(81) - نفسه، ص 337.

(82) - نفسه، ص 433.

(83) - وعلى منواله قول العرب (لولا الوئام هلكت جذام) و(لولا الوئام هلك اللنام)

وهذه نماذج لما ورد في الأمثال من الشرط على اختلاف وجوهه وتعدد أدواته، والغرض كما هو واضح يختلف من مثل إلى آخر ، فهو للنصح والإرشاد أحيانا وللتهكم والاستهزاء أحيانا أخرى.

4- أحوال الإسناد في المثل:

إن الإسناد فيما تحدث عنه النحاة- علاقة ذهنية تربط بين مكونات الجملة سواء كانت اسمية أو فعلية، حيث يعرف النحاة الجملة على أنها تركيب إسنادي أو هي تركيب تضمن الإسناد الأصلي، وسمي لذلك عنصرها الرئيسيان بالمسند والمسند إليه، إذ المسند هو الفعل في الجملة الفعلية والخبر في الجملة الاسمية، والمسند إليه هو الفاعل في الجملة الفعلية والمبتدأ في الجملة الاسمية .

وتحدّث الجرجاني فيما يشبه ذلك في نظرية النظم التي وضع أسسها فقال: « ومعلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب مما بعض والكلام ثلاث: اسم ، وفعل وحرف، وللتعلق فيما بينها طرق معلومة ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام : تعلق اسم باسم [جملة اسمية] ، وتعلق اسم بفعل [جملة فعلية] ، وتعلق حرف بهما»⁽⁸⁴⁾.

وفسر بعدها الجرجاني هذا التعلق بأنواعه الثلاثة ، وذكر علماء البلاغة « أن الجملة خبرية كانت أم إنشائية من ركنين هما المسند ويسمى المحكوم به أو المخبر به، والمسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلا أو في معناه من نحو المصدر واسم الفاعل واسم المفعول

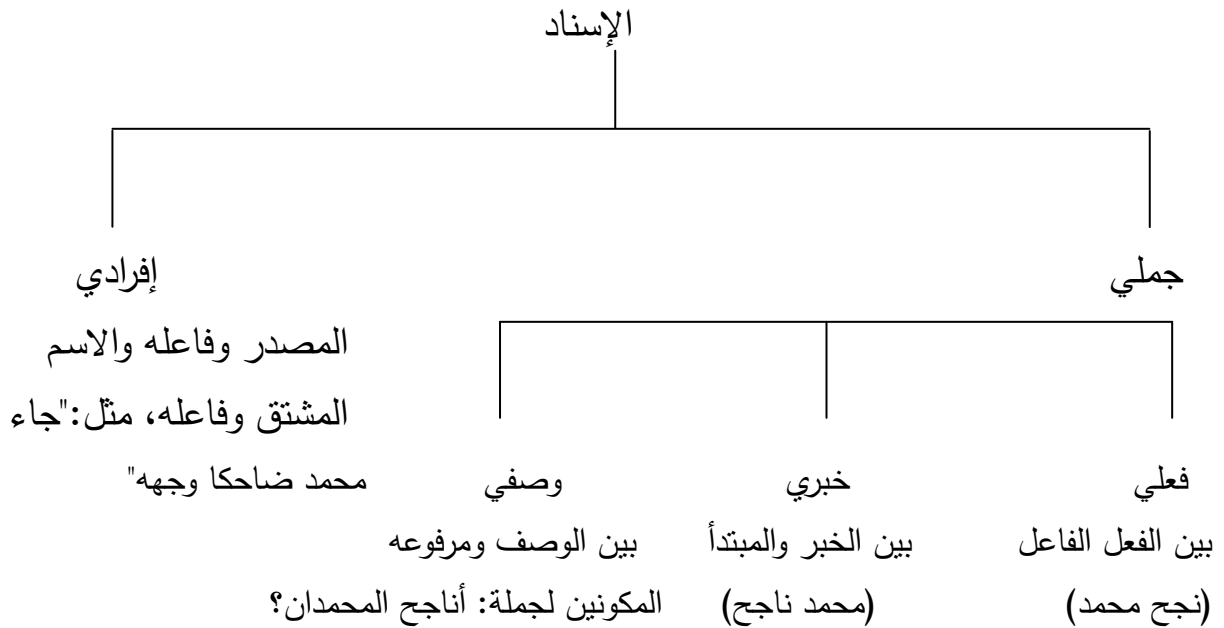
(84) - الإمام عبد القاهر الجرجاني ، دلالات الإعجاز في علم المعاني، شرح وتعليق خفاجي ، ص38،37.

والصفة المشبه واسم التفضيل والظرف ، والمسند إليه ويسمى المحكوم عليه أو المخبر عنه والنسبة التي بين المسند والمسند إليه تسمى الإسناد»⁽⁸⁵⁾.

فالإسناد إذن رابطة معنوية تربط بين عنصرين هما المسند والمسند إليه، ويقرنه البعض بالجملة غير أن هناك من لا يشترط وجود الجملة لوجود الإسناد، وفي ذلك يقول عبد اللطيف حماسة: « غير أن الإسناد قد يوجد ولا توجد الجملة [...] كما يكون موجودا بين المبتدأ والخبر ، كما يكون موجود بين الوصف والمرفوع بعده... »⁽⁸⁶⁾.

وفرق لذلك بين نوعين من الإسناد « أحدهما يكون في الجملة، والآخر في مركب اسمي يعد عنصرا في جملة ، ولا بأس أن نسمي الأول "الإسناد الجملي" وتحت أنواع ، والآخر الإسناد الإفرادي»⁽⁸⁷⁾.

وقد وضع حماسة ترسيمة بيّن من خلالها نوعي الإسناد كما يأتي⁽⁸⁸⁾:



وليس بالضرورة أن نمثّل لكل هذه الأنواع من الإسناد ، بل سوف نحاول إعطاء نماذج لكل ما وردت الأمثال العربية في صيغته وعلى شكله ، وسوف نعمل إلى تقسيم الدراسة

(85) - عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية معاني علم المعاني-البيان-البيدع، ص117.

(86) - محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربية ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، 2003، ص95.

(87) - نفسه، ص95.

(88) -أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص96.

فيما يخص عناصر الإسناد إلى أحوال أربعة هي حال الذكر، حال الحذف، حال التقديم والتأخير، وحال التعريف والتكثير، ونخص كل من هذه الأحوال بالمسند والمسند إليه على حد سواء .

واهتمامنا بهذه الأحوال راجع إلى تركيز علماء المعاني عليها عند الحديث عن الإسناد ، وهناك حال خامسة هي حال القصر ، وهذه سوف يكون لها جزء خاص في الدراسة.

4-1-1- حال الذكر:

والذكر هو الأصل في عناصر الإسناد ، إذ الإسناد هو قوام الجملة، والجملة هي عدد من العناصر المترابطة التي تعطي معنى معين، ولا يتحقق المعنى المطلوب من دون الذكر.

4-1-1- ذكر المسند إليه:

ويجعل علماء المعاني لذلك دواعي وأغراض ترجح ذكر المسند إليه على حذفه، ونمثل لهذا الذكر بعدد من الأمثال العربية مع توضيح الغرض من وراء ذلك:

* أَبِي الْحَقِينِ الْعَذْرَةَ⁽⁸⁹⁾

* أَبْدَى الصَّرِيحُ عَنِ الرَّغْوَةِ⁽⁹⁰⁾

* الْأُمُورُ مَخْلُوجَةٌ وَلَيْسَتْ بِسُلْكِي⁽⁹¹⁾

* الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالْإِثْمُ مَاحَكٌ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ⁽⁹²⁾

وهذه أربعة نماذج منها الفعلية ومنها الاسمية ، وقد ذُكر فيها المسند إليه إما مفرد وصريحا ، ففي المثل الأول والثاني جاء المسند إليه(الفاعل) إسما مفردا معرفا بـ(ال) (الحقين، الصريح) ، والغرض من ذكر المسند إليه هنا هو ما أسماه البلاغيون ضعف التعويل والاعتماد على القرينة⁽⁹³⁾، إذ الفهم ينصرف مباشرة إلى اللفظ ، فلا يمكن التنبؤ بالمسند إليه عند حذفه ، بالتالي لا يتم المعنى المراد من الجملة ، لأنه ليس من المعقول ولا من المفهوم قولنا(أبي العذرة) أو(أبدى عن الرغبة) ، ولو أن التركيب صحيحا من حيث اللغة، أما عن

(89) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص54.

(90) - نفسه، ص60.

(91) - نفسه، ص305.

(92) - نفسه، ص310.

(93) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني -البيان -البديع ، ص129-131.

كون المسند إليه معرفاً فلائنه لا يمكن اسناد الحكم إلى نكرة ، ففي ذلك إبهام وغموض للجهل بها.

أما في المثل الثالث فالمسند إليه هو المبتدأ (الأمور)، وجاء في صدر الكلام معرف بـ(الـ) ، وذلك لتوضيح المعنى الذي يحمله المثل، إذ (مخلوطة) وصف ثابت (للأمور) و(سلكى) وصف منفي عنها، فالمثل له مسند إليه واحد هو (الأمور) ، ومسندان إثتان أحدهما مثبتا (مخلوطة) ومنفيا (سلكى).

في حين أن المثل الرابع جاء المسند إليه فيه لغرض ذكره البلغاء ، وهو إظهار تعظيم المسند إليه بذكر اسمه⁽⁹⁴⁾، إذ (البر) هنا ذكر وأسند إليه وصف هو (حسن الخلق)، وفيه تعظيم لشأن (البر) ، وعظمته تلك تكمن في المسند (حسن الخلق)، إذ فيه كمال الخلق وجماله، وجاء معرفاً لأنه تصدّر الجملة المثلية، وحمل معناها ، ولا يتسنى ذلك إلا لمعرفة. ولا يقتصر الذكر في الأمثال العربية المتضمنة في المدونة على هذه النماذج فحسب، بل مثل ذلك كثير، ولكن هذا الذكر لا يعدو كونه تمثيلاً لصور ذكر المسند إليه الواردة فيها ، مع تعداد الأغراض التي تؤديها وقال بها علماء المعاني في نوعي الجملة الفعلية والاسمية.

4-1-2- ذكر المسند:

والمسند إما أن يكون خبراً في الجملة الاسمية، أو أن يكون فعلاً في الجملة الفعلية والأصل في الحالين الذكر كما هو المسند إليه ، لأن معنى الجملة لا يكتمل إلا بذكر عناصرها ، إلا أن يكون هناك عارض يدعو إلى الحذف، ونمثل لذكر المسند كما مثلنا للمسند إليه بعدد من الأمثال العربية:

* أَنْجَزَ حُرٌّ مَا وَعَدَ⁽⁹⁵⁾

* بَلَغَ فُلَانٌ مِنَ الْعِلْمِ أَطْوَرِيَهُ⁽⁹⁶⁾

* الْحَدِيثُ ذُو شُجُونٍ⁽⁹⁷⁾

* الرَّغْبُ شَوْمٌ⁽⁹⁸⁾

(94) - نفسه، ص129-131.

(95) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص85.

(96) - نفسه، ص301.

(97) - نفسه، ص67.

(98) - نفسه، ص409.

والمسند في هذه الأمثال إما فعلا وإما اسما، فهو فعلا في المثلين الأولين (أنجز ، بلغ) ، والفعالين ماضيين ، حيث أسند فعل إنجاز الوعد للحر في المثل الأول، وفعل البلوغ لأطوري العلم لفلان في المثل الثاني، والفعل حالة للمسند من ستة حالات ذكرها علماء المعاني هي «الفعل، اسم الفعل، الخبر، المبتدأ المكتفي بمرفوعه، ما أصله خبر لمبتدأ [أي خبر إحدى النواسخ]، وأخيرا المصدر النائب عن فعل الأمر»⁽⁹⁹⁾ ، لكن الأشهر منها كان الفعل والخبر واسم الفعل في أغلب ما ورد في صيغ الأمثال التي تضمنتها المدونة.

وكان المسند في المثل الثالث والرابع خبرا هو (ذو ، شؤم)، ف(ذو) من الأسماء الستة، و(شؤم) اسم نكرة وصف للمبتدأ (الرجب).

والغرض من ذكر المسند في كل هذه الأمثال هو ضعف التعويل على القرينة عند حذفه في الدلالة على المعنى ، فذكر لإيصال المعنى كاملا غير منقوص .

وربما لو أردنا الإيضاح أكثر علينا إيراد عدد من الأمثال يتميز ببنية لغوية أخرى، وهي أن يكون في بدايتها ناسخ، ويورد حماسة عبد اللطيف أن «الإسناد يظل هو الرابطة بين المبتدأ أو الخبر حتى بعد دخول النواسخ عليها [...] وما ينطبق على المبتدأ أو الخبر من حيث الترابط ينطبق على اسم كان وخبرها»⁽¹⁰⁰⁾، وكذلك حال بقية النواسخ ، ولمثل ذلك نورد ما يأتي من الأمثال:

* كَانَتْ بَيْضَةَ الدِّيكِ⁽¹⁰¹⁾

* إِنَّ الِّيمِينَ العَمُوسَ تَذَرُ الدِّيَارَ بِلَاقِعٍ⁽¹⁰²⁾

* إِنَّ فِي الشَّرِّ خِيَارًا⁽¹⁰³⁾ (*)

والمسند في هذه الأمثال مذكور غير محذوف ، فهو في الأول لفظة (بيضة)، وفي الثاني الجملة الفعلية (تذر الديار بلاقع)، وفي الثالث لفظة (خيارا) ، وكلها أخبار للنواسخ (كان ، وإن) ، وورد بالصورة نفسها التي جاء عليها في حالة الجمل غير المنسوخة ، ذلك أن النواسخ لا تغير شيء في تركيب الجملة سوى حركة إعراب المسند (كان وأخواتها)، وحركة المسند إليه مع (إن وأخواتها).

(99) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، علم المعاني - البيان - البديع ، ص118، 117.

(100) - محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربية، ص123.

(101) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص437.

(102) - نفسه، ص121.

(103) - نفسه، ص244.

(*) - إن في المثل (إن في الشر خيارا) شذوذ حيث جاءت خيار منصوبة وحقها الرفع (ضرورة مثلية).

4-2- حالة الحذف:

إن حذف أحد عناصر الإسناد في الجملة لا يتأتى هكذا، إنما يجب أن يكون له داع للاختصار وعدم مانع الالتباس بوجود قرينة لفظية أو معنوية⁽¹⁰⁴⁾، وذكر علماء المعاني لذلك دواع وأسباب عدة يمكننا الإشارة إليها في كل نوع من أنواع الحذف في المسند أو المسند إليه.

4-2-1- حذف المسند إليه:

ومثلما أشرنا آنفا أن الأصل في عناصر الإسناد أن تذكر ، غير أنه يحدث الحذف لأحدهما أحيانا ، فلا يحذفان معا ، لأنه بذلك تزول الجملة ، ولا بد لكل حذف يحدث من دواع توجبه أو ترجّحه، وللمسند إليه كما للمسند دواع عند حذفه، ونمثل بذلك بعدد من الأمثال العربية مما تضمنته المدونة:

* أَتَّبِعُ الدَّلْوَ رِشَاءَهَا⁽¹⁰⁵⁾

* اتَّخَذَ اللَّيْلَ جَمَلًا⁽¹⁰⁶⁾

* أَجْرُ الأُمُورِ عَلَى أَذْلَالِهَا⁽¹⁰⁷⁾

* بَدَلٌ أَعْوَرَ⁽¹⁰⁸⁾

فالمثل الأول والثالث وردا في شكل صيغ أمرية حذف فيها المسند إليه (الفاعل) ، لأن تقدير الكلام (أتبع أنت...) و(أجر أنت الأمور...) ، فيضرب الأول في الأمر بطلب إكمال قضاء الحاجة إذا قضيت إلا أقلها ، ويضرب الثالث في وضع الأمور في نصابها وأماكنها، وهذا الحذف للفاعل (للمسند إليه) كان هنا لأنه معلوم لدى المخاطب حتى لا يحتاج إلى ذكره⁽¹⁰⁹⁾، والمسند إليه يحذف في المثل الثاني لأنه عام لا يمكن تعيينه ، حيث يضرب لكل من جد في طلب حاجته ، ودليل الجد أنه (اتخذ الليل جملا)، أي لم يكفه النهار فجداً في طلبها ليلا، وتقدير الكلام (اتخذ هو الليل جملا).

(104) - محمد بن علي بن محمد الجرجاني ، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، ص29.

(105) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص346،345.

(106) - نفسه، ص333.

(107) - نفسه، ص 327.

(108) - نفسه، ص183.

(109) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني -البيان -البيدع ، ص123-125.

أما في المثل الأخير فيحذف المسند إليه (المبتدأ) رغبة من المتكلم في إبهامه وإخفائه على السامع كما يقول البلاغيون⁽¹¹⁰⁾، لأن في المثل تعريض بالمسند إليه (بدل أعور) حيث تقدير الكلام (هذا بدل أعور).

فلحذف المسند كان (فاعلاً أو مبتدأً أو اسماً لإحدى النواسخ) أغراض ودواع قد لا تتحقق بالذكر، وهي ما أشرنا إليها آنفاً، والتي هي نفسها في غير الأمثال، فضلاً على أن المثل إضافة لذلك يطلق في مواقف قد لا توافق حوادثها الأصلية، بل تلقى لأن هذه المضارب تشابه أصولها الأولى، وربما كان هذا الحذف عمدياً لأجل إخفاء أصحابها لأن إطلاقها يعطيها نوعاً من الشيع يتعد بها شيئاً فشيئاً عن مصادر الأصلية.

4-2-2- حذف المسند:

والمسند في الجملة له دور إكمال المعنى فبدونه لا يتم معنى الجملة، فهو في الفعلية حدث يسند إلى فاعل (مسند إليه) في زمن معين، وهو في الاسم وصف يسند لاسم (مبتدأ)، لغرض بيان هيئته أو حالته، إلا أنه قد يحذف لأغراض وضرورات هي في سائر الكلام كما في الأمثال، وربما كانت لها خصوصية في هذا النوع من الكلام ونوضحها في ما يأتي من الأمثال العربية:

* بِالرَّفَاءِ وَالْبَيْنِ⁽¹¹¹⁾

* عَبْدٌ وَخُلِيٌّ فِي يَدَيْهِ⁽¹¹²⁾

* لَا تَكُنْ حُلُوًّا فَتُسْرَطَ وَلَا مَرًّا فَتُنْعَى⁽¹¹³⁾

* لَا تَكُنْ رَطْبًا فَتُعْصَرَ وَلَا يَابِسًا فَتُكْسَرَ⁽¹¹⁴⁾

* لِلْمُنْخَرَيْنِ⁽¹¹⁵⁾

* لِلْيَدَيْنِ وَالْفَمِ⁽¹¹⁶⁾

(110) - نفسه، ص 123-125.

(111) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 82.

(112) - نفسه، ص 291.

(113) - نفسه، ص 316.

(114) - نفسه، ص 317.

(115) - نفسه، ص 98.

(116) - نفسه، ص 98.

ويضرب المثل الأول في الدعاء للمتزوجين بالراحة والذرية الصالحة، وتقدير القول فيه (أدعو لكم بالرفاء والبنين)، أو (دعائي بالرفاء والبنين)، حيث حذف المسند (الفعل أدعو) لاختصار العبارة ودلالة الحذف عليه، إذ المعنى يظهر الحذف، كذلك جاء الحذف في المثل الثاني الذي تقدير الكلام فيه، (عبد و[يحمل] خلي في يديه).

أما المثل الثالث والرابع فجاء شطر كل منهما الأول معطوف على الثاني، فحذف المسند في الثاني لمنع التكرار في عبارة المثل، إذ المسند هو نفسه في الشطرين (لا تكن حلوا فتسرت ولا [تكن] مرا فتعق) ، لذلك حذف ، فضلا على وضوح الدلالة لارتباط شطري المثل بحرف العطف واشتراكهما في الحكم (أي الفعل تكن) .

كذلك جاء الحذف في المثليين الخامس والسادس لغرض إيجاز العبارة، ذلك أنهما دعاء بالشر، ومعناهما أن يصيبك ما يصيبك من الشر للمنخرين ولليدين والفم، لأنهما مصدر الأذى.

وبذلك يتحقق الحذف لإيجاز العبارة ، وهو أخص ما يتميز به المثل عن غيره من سائر الكلام، ودلالة غيره عليه، كما هو حال الفعل (تكن) في المثليين الثاني والثالث ، وغيرها من الأغراض التي تحدث عنها علماء البلاغة، وظهر بعضها في الأمثال المستشهد بها^(*).

4-3- حال التعريف والتكثير:

والتكثير هو كون المسند أو المسند إليه لا يدل على معين ، بالتالي فالحكم المتضمن فيه أو المسند إليه حكم مطلق وعام، أما التعريف فهو أن يعين المسند أو المسند إليه ، فيسند الحكم فيه إلى معروف معلوم لدى السامع ، أو الحكم معينا مخصوصا بحال ما. ويتنوع التعريف بحسب آداته ، وتشمل حال التعريف والتكثير المسند إليه على حد سواء ، وفي النوعين من الجملة، الاسمية والفعلية، لذلك سوف نمثل بما ورد من الأمثال العربية المتضمنة في المدونة الخاصة بالبحث.

4-3-1- تعريف المسند إليه:

(*) - وقد ظهر الحذف لغير شيء إلا أنها أمثال والأمثال لا تغير، فحذف الفعل (المسند) في (كليهما وتمرا)، (الكلاب على البقر) ، (أحشفا وسوء كلية)، وقال سيبويه بغير ذلك، واعتبر أن الحذف يكون في الأمثال إما لدلالة المقام أو لدلالة المقال أو لدلالتهما معا على معنى هذا الحذف.

والأصل فيه هو ذلك ، خاصة في الجملة الاسمية لأنه يتصدرها، كذلك في الجملة الفعلية لأنه القائم بالفعل وفي الأصل أن يعرف ، ونورد لذلك عددا من الأمثال:

* بَلَغَ اللهُ بِكَ أَكْثَرَ الْعُمُرِ (117)

* جَدَعَ اللهُ مَسَامِعَهُ (118)

* تَجُوعُ الْحُرَّةِ وَلَا تَأْكُلُ بِئَدْيِهَا (119)

* إِنَّ الْحَفَائِظَ تَنْقُضُ الْأَحْقَادَ (120)

* إِنَّ الْجَبَانَ حَقْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ (121)

ف(الله) في المثلين الأول والثاني لفظ جلالة مسند إليه معرف ، وأداة تعريفه الألف واللام (ال-)، فأسند فعل (البلوغ) في الأول لله سبحانه وتعالى، والمثل دعاء بطلب الحفظ وطول الأجل ، بينما اسند فعل الجدع في الثاني إلى المولى عز وجل على سبيل الدعاء أيضا ، لكن في هذا المثل جاء على عكس الأول حيث ورد الدعاء فيه بالشر يصيب المرء ، فالجدع هو القطع ، والمسامع هي الأذنين، و(جدع الله مسامعه) ، أي (قطع الله أذنيه) ، إذ هي واسطة السمع لدى المرء ومعناه الدعاء بالصمم .

أما في المثل الثالث فالجملة وردت فعلية أيضا، المسند إليه فيها هو الفاعل (الحرّة) وفي معنى المثل التنزه عن الكسب الخسيس، وقد سبق تناول هذا المثل من قبل بالدراسة، وفي ذلك تفصيل أكثر .

في حين أن المثل الرابع والخامس وردت جملتهما اسمية منسوخة ، والمسند إليه في كل منهما اسم ظاهر (الحفائظ^(*)، الجبان) معرف بالألف واللام (ال-) ، والمسند في كل منهما جملة، فعلية في الرابع (تنقض الأحقاد) ، واسمية في الخامس (حتفه من فوقه) وذلك تعريف المسند فيها كما هو حال المسند إليه لكن بأداتي تعريف مختلفتين، حيث المسند إليه معرف بالألف واللام، والمسند معرف لكونه جملة فعلية في الرابع واسمية في الخامس.

(117) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص79.

(118) - نفسه، ص99.

(119) - نفسه، ص289.

(120) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص234.

(121) - نفسه، ص439.

(*) - الحفائظ: ج حفيظة وهي الحمية وتكون في الأغلب بين ذوي القرية.

وتعريف المسند إليه شيء ضروري لا بد منه، لكن هذا لا يعني أنه لا يأتي نكرة غير أن الأصل فيه هو التعريف، لأنه مصدر الحكم في الجملة وأساس قوامها.

4-2-2- تعريف المسند:

وتعريفه (المسند) يكون غالبا لأنه بيان المسند إليه فهو دلالة صفته وحكمه ، وهو المتمم لمعناه، لكنه يمكن أن يكون نكرة لأنه ليس له الصدارة في الجملة الاسمية، وقد يكون فعلا فلا علاقة له بالتعريف ولا بالتكثير، ونمثل لتعريف المسند بما يأتي من الأمثال العربية التي ورد فيها ذلك:

* إِحْدَى حُطَيَّاتٍ لُقْمَانَ (122)

* إِحْدَى لِيَالِيكَ فَهَيْسِي هَيْسِي (123)

* الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ (124)

* الْمَسْأَلَةُ آخِرُ كَسْبِ الْمَرْءِ (125)

* مَوَاعِيدُ عَرْقُوبٍ (126)

ففي هذه الأمثال كلها المسند (الخبر) معرف بالإضافة، وجاء لدى علماء المعاني أن هذا النوع من التعريف (بالإضافة) في المسند يأتي لتكميل فائدته من جهة معينة⁽¹²⁷⁾، والمسند في المثل الأول (إحدى حطيات لقمان)، وفي المثل الثاني (إحدى ليااليك فهيسي هيسي)، حيث (إحدى) مسند مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره للثقل وهو مضاف ، كذلك في المثل الثاني (إحدى) مسند وهو مضاف ، و(لياالي) مضاف إليه وهو مضاف ، وكاف الخطاب المتصل بـ (لياالي) مضاف إليه، والجملة بعدها (فهيسي هيسي) أمرية استئنافية لاتصالها بفاء الاستئناف، والمسند إليه في المثليين محذوف لأن تقدير القول فيها ([هذه] إحدى حطيات لقمان) و([هذه] إحدى ليااليك فهيسي هيسي)، حيث (الهاء) للتببيه، و(ذه) اسم إشارة مبني مسند إليه.

(122) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص103.

(123) - نفسه، ص463.

(124) - نفسه، ص310.

(125) - نفسه، ص407.

(126) - نفسه، ص113.

(127) - محمد بن علي بن محمد الجرجاني ، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، ص62.

أما في المثل الثالث فالمسند هو (حسن الخلق)، وهو معرف بالإضافة حيث (حسن) هو المسند وهو مضاف و(الخلق) مضاف إليه .

كذلك الأمر في المثل الرابع (المسألة آخر كسب المرء) ، وهو حديث نبوي ليس بحرفيته لكن في معناه ، وهي فيما يقال شطر لمضمون وصية رجل لأولاده (قيل أنه أكثر بن صيفي وهو أشهر حكماء العرب، وقيل هي لقيس ابن عاصم)، وتحتوي الوصية قوله (ياكم ومسألة الناس، فإنها آخر كسب الرجل)⁽¹²⁸⁾، وهي في معنى قوله ع: "ما أكل أحد طعاما قط، خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده"⁽¹²⁹⁾ ، وفي المثل حث على الابتعاد عن المسألة إلا إذا انغلقت أمام المرء كل سبل الكسب وربما أشرف على الهلاك.

والمثل الخامس تمثيل لإخلاف الوعد بعد قطعه وعرقوب مثل مضروب لذلك الإخلاف، وتقدير قول هذا المثل ([هذه] مواعيد عرقوب) ، فالمسند إليه محذوف هنا وهو اسم الإشارة ، و(مواعيد) مسند نكرة معرف بالإضافة، (عرقوب) وهو اسم علم يطلق على الرجل الذي عرف مثلا وسارت سيرته في إخلاف الوعد ، وله في ذلك قصة يعرفها الكل ورد ذكرها في المدونة.

4-3-3- تنكير المسند إليه:

وهذه الحالة لا تكثر خاصة في الجمل الاسمية لأن المبتدأ (المسند إليه) دائما له الصدارة، وإذا جاء نكرة يؤخر في الغالب، أما في الجمل الفعلية فيرد المسند إليه (الفاعل) نكرة أحيانا ، ومثال ذلك ما يأتي من الأمثال العربية:

* جَلَّ مُحِبُّ نَظَرِهِ⁽¹³⁰⁾

* أَنْجَزَ حُرٌّ مَا وَعَدَ⁽¹³¹⁾

* أَخْلَفَ رُوعِيًا مَظَنَّهُ⁽¹³²⁾

* بِالذَّارِ أَرْمَ⁽¹³³⁾

(128) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص407.

(129) - البخاري ، صحيح البخاري ،كتاب البيوع، ج2، باب كسب الرجل وعمله بيده ، حديث 1966، ص730.

(130) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص486.

(131) - نفسه، ص85.

(132) - نفسه، ص353.

ففي المثل الأول المسند إليه (الفاعل) هو (محب) جاء نكرة، وقد يكون تجويزه -على حسب ظني- أن الحكم المتضمن في الجملة حكم عام، لا يخص فردا ما معينا باسمه أو بصفته، إنما ما يميزه أنه (محب) أي صفة الحب، (وكل محب تفضحه عيناه) كما يقال، خاصة إذا كان بإزاء من يحب .

كذلك في المثل الثاني، ف(حر) هو المسند إليه، وجاء نكرة لأن حكم الإنجاز يتعلق بكل حر، ولفظ الحر هنا قد يقصد به لفظ الحرية قديما لما يتعلق بفترة نشوء الأمثال، وربما قصد به غير ذلك، أي يراد به المكآف المسؤول عن تصرفاته أمام نفسه وأمام الناس، والمثل من الأمثال الحكمية، وهو من قبيل المدح لكل من قطع وعدا على نفسه وأنجزه، فيشار إليه بوجود هذه الصفة فيه (أنجز حر ما وعد) ، وربما كان حث لمن لا يمتلكون هذه الصفة للتعريض بهم وتوبيخهم عسى أنهم يقلعون عما هم عليه.

كما أن لفظة (أبد) في المثل الثالث هي مسند إليه فاعل ، وقع نكرة، لخصوصية اللفظ ومحدودية دلالته ، فهو بمعنى (الدهر)، والدهر له معنى واحد ومحدود ودائم.

وفي المثل الرابع (رويعيا) ، مسند إليه (فاعل) نكرة وهو تصغير لراعي ، والمظن هو المكان الذي اعتاد أن يرعى فيه، وأخلفه أي لم يذهب إليه وذهب إلى غيره، ربما لأنه ليس راعيا إنما هو روعيا، وهذا التصغير دلالة قلة الخبرة والمعرفة بحرفة الرعي، والنكرة (رويعيا) هنا جاءت إطلاق الحكم على كل (رويعيا) لقلة معرفته بأمكنه الرعي ولا بكيفيته، لذلك لم يمكنه تمييز مكان ما والرعي فيه.

في حين نجد أن المسند إليه في المثل الخامس أخر لكونه نكرة (أرم) والأرم بمعنى أحد أي الفرد أو الشخص ، وقدم المسند (بالدار) لأنه ورد شبه جملة (جار ومجرور) ، وكان الأولى تقديمه لأنه كذلك ، وتأخير المسند إليه لأنه نكرة (أرم).

4-3-4- تنكير المسند:

والمسند وصف للمسند إليه ولا ضير في أن يكون نكرة، وقال علماء المعاني أن المسند يأتي نكرة ، لعدم إرادة فائدة زائدة على الخبرية[...] أو لقصد المبالغة إذا كثر صدوره من المبتدأ نحو: زيد عدل⁽¹³⁴⁾، وهو إذا كان فعلا غير محتاج إلى ذلك، إذ التعريف والتكثير

(133) - نفسه، ص513.

(134) - محمد بن علي محمد الجرجاني ، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، ص61.

من صفات الاسم، ونورد لتكثير المسند عدد من الأمثال العربية ما يميزها أنها كلها جمل اسمية لما ذكرنا:

الأرواحُ جنودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا انْتَلَفَ وَمَا تَنَاطَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ⁽¹³⁵⁾

* الأَكْلُ سَلْجَانٌ وَالْقَضَاءُ لِبَانٌ⁽¹³⁶⁾

* الأُمُورُ سُلْكَى وَلَيْسَتْ بِمَخْلُوجَةٍ⁽¹³⁷⁾

* النَّبِيُّ مُلْجَمٌ⁽¹³⁸⁾

* الشُّجَاعُ مُوقَى وَالْجَبَانُ مُلْقَى⁽¹³⁹⁾

والأمثال الخمسة التي أوردناها كلها جمل اسمية، إذ على ذلك فعلماء المعاني خصوا الجملة الاسمية بتكثير المسند -إن وقع- دون الجملة الفعلية ، لأن الأولى عناصرها اسمية ، والمسند فيها كذلك، ومن حالات الاسم المعرفة والتكثير بينما الجمل الفعلية المسند فيها هو الفعل ولا خصوصية للفعل بالتعريف والتكثير ، فالفعل حدث يختص بزمان لا غير .

ف(جنود) في المثل الأول مسند نكرة، وجواز ورودها أنها لم تتصدر الجملة ، كما أنها وصف للمسند إليه(الأرواح) قبلها، والمثل حديث نبوي ورد عن النبي ﷺ ، ثم أصبح فيما بعد سائر بين الناس يضرب في التوافق بينهم ، ويدل على أنه يحدث بفضل توافق الأرواح ، كذلك جاء المسند في شطري المثل الثاني نكرة(سلجان) و(لبان) ، ويدل على أنه أخذ الشيء أسهل وأيسر كثيرا من قضائه.

والمثل الثالث أيضا جاء فيه المسند نكرة، فالأمور كما يقال (سلكى) أي مستقيمة ، وليست بمخلوجة أي ليست (معوجة) والباء حرف جر زائد، لأن مخلوجة هنا مسند في الشطر الثاني، لأن تقدير المثل (الأمور سلكى وليس الأمور مخلوجة)، والغرض من ذلك كما أشار علماء المعاني « يكون المخاطب مأمور، بأن يصف المبتدأ به... »⁽¹⁴⁰⁾، فلفظة (جنود) وسلجان ولبان وسلكى ومخلوجة) أوصاف لمبتدأ يسبقها هو على التوالي (الأرواح الأكل ، القضاء ، الأمور) .

(135) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص261.

(136) - نفسه، ص379.

(137) - نفسه، ص305.

(138) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص22.

(139) - نفسه، ص172.

(140) - محمد بن علي بن محمد الجرجاني ، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، ص61.

كذلك أورد علماء المعاني - كما أشرنا سابقا- أن المسند ينكر لقصد المبالغة⁽¹⁴¹⁾، وذلك ما نجده في المثلين الرابع والخامس ، حيث يصف التقي بأنه (ملجم) ، وكأن تقاه يلجمه أي يمنعه من ارتكاب المعاصي ، فلا يقوم بها مثلما يمنع اللجام الفرس من الفرار أو الأكل، لأن اللجام في الأصل يستعمل للفرس ، وأيضا شجاعة المرء تجعل له وقاية مما قد يضربه أو يؤذيه في شطر المثل (الخامس) الأول (الشجاع موقى)، والجبان ملقى كما وصفه شطر المثل الثاني أو إلقائه يدل على أنه غير ممنوع ، فهو ملقى في طريق كل من يرغب في إيذائه فليس له شجاعة تقيه من هذا الأذى.

4-4- حال التقديم والتأخير:

وهذه القضية أي التقديم والتأخير التي تناولها علماء النحو والبلاغة واللغة كما قال عبد القادر حسين، وأضاف أننا مازلنا نقرأ عنها حتى يومنا هذا في كتب النحو والنقد والبلاغة ، وهي في أساسها من صنع سيبويه ، لأنه أول من أشار إليها وطرق بابها ، ولا شك أن هذا ينسب إليه بالفخر ويجعله رائدا مجيدا من الرواد الذين أسهموا بنصيب وافر في تأسيس علم البلاغة⁽¹⁴²⁾.

وبصفه الجرجاني على أنه باب كثير الفوائد ، جم المعاني، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بدیعة ، ويفضي بك إلى لطيفة [...] ثم تنتظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان⁽¹⁴³⁾.

وأضاف واعلم أن تقديم الشيء على وجهين ، تقديم يقال أنه على نية التأخير ، وذلك في كل شيء أقررت مع التقديم على حكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ ، والمفعول به إذا قدمته على الفاعل [...] ⁽¹⁴⁴⁾، وتقديم لا على نية التأخير ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم ، وتجعله بابا غير بابيه، وإعرابا غير إعرابه ⁽¹⁴⁵⁾، ونحن بدورنا نقسم الأمثال التي سوف نوردتها في هذه الحال مثلما قسم الجرجاني التقديم والتأخير ، وبذلك تكون لدينا نوعين من النماذج المثلية كما يأتي:

* سَوَاءٌ عَلَيْكَ هُوَ وَالْفَقْرُ ⁽¹⁴⁶⁾

(141) - نفسه ، ص 61.

(142) - عبد القادر حسين ، أثر النحاة في البحث البلاغي، ص 88.

(143) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، ص 118.

(144) - نفسه، ص 118.

(145) - نفسه، ص 118.

(146) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 430.

* شَاهِدُ الْبُغْضِ اللَّحْظُ⁽¹⁴⁷⁾

* بِالْدَّارِ أَرَمٌ⁽¹⁴⁸⁾

ففي المثل الأول تقدم المسند (الخبر) والجار والمجرور على المسند إليه (المبتدأ) ، والأصل (هو والفقير سواء) ، وربما أضيف الجار والمجرور (عليك) لتأكيد ارتباط الكلام بالمخاطب، وهو ما اشار إليه الجرجاني على أنه تأخير على نية ، إذ أخرج المسند إليه (هو والفقير) وقدم المسند (سواء) ، لأن المتكلم قصد جمال العبارة وتناسقها ، إذ ترتيبها العادي (م إ+م) أي (هو والفقير سواء عليك) لم يكن ليضمن مثل الجمال الذي حققه التأخير ، ويضرب المثل للتعريض بصفة البخل في المرء.

كذلك كانت النية في تأخير المسند إليه في المثل الثاني (شاهد البغض اللحظ)، لكن غرض التقديم والتأخير لم يكن ذاته على ما يبدو، إذ الأول كما أشرنا كان الغرض فيه جمال العبارة، أما الثاني فقدم المسند على المسند إليه فيه لأن المسند (الخبر) جاء معرفا بالإضافة، بينما المسند إليه (المبتدأ) معرفا بالألف واللام ، والتعريف الأول كان أقوى فيما يبدو، كما أن جمال عبارة المثل وارد على ما يظهر.

أيضا كان تقديم المسند (الخبر) في المثل الثالث على نية تأخير المسند إليه ، ذلك أن المسند جاء شبه جملة جار ومجرور (بالدار)، بينما المسند إليه جاء نكرة (أرم) ، وشبه الجملة أولى بالتقديم لوجوبه، وذاك موضع من مواضع وجوب تقديم المسند وتأخير المسند إليه فيما ذكره النحاة.

أما عن التقديم والتأخير الذي وصفه الجرجاني على أنه عن غير نية في التأخير فنمثل له بما يأتي من الأمثال:

* هَلْ يَخْفَى عَلَى النَّاسِ النَّهَارُ⁽¹⁴⁹⁾

* إِيَّاكَ أَعْنِي وَأَسْمَعِي يَا جَارَةَ⁽¹⁵⁰⁾

* إِنَّ الْبِغَاثَ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ⁽¹⁵¹⁾

* بِحَيِّبَةٍ فَلْتَكُنْ الْوَجِيبَةُ⁽¹⁵²⁾

(147) - نفسه، ص 486.

(148) - نفسه، ص 513.

(149) - أبو عبيد الله البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 128.

(150) - نفسه، ص 76.

(151) - نفسه، ص 129.

(152) - نفسه، ص 99 ، ومثله قولهم (ببقعة تركت الرأي) ص 125 وأيضا (بفلان تقرن الصعبة) ص 132.

* الإِيمَانُ قَيْدَ الْفَتْكِ (153)

ففي المثل الأول نجد أن الجار والمجرور (على الناس) قد تَوَسَّطَ بين الفعل (بخفى) والفاعل (النهار) ، ومن المفروض أنه لا فاصل بينهما في العادة ، ولا يحدث ذلك إلا استثناء عندما يتصل المفعول به بالفعل مثلا أو كما هي الحال هنا، وربما كان الاستفهام هو الداعي لهذا التقديم والتأخير، أو هو التشويق كما أشار إليه علماء المعاني⁽¹⁵⁴⁾.

أما في المثل الثاني فقد قدم فيه المفعول به على الفعل، وهو تقديم على غير نية كما يقول الجرجاني، ووصفه علماء المعاني على أنه نوع خاص من التقديم مقصود على متعلقات الفعل عليه من مثل المفعول والجار والحال والاستثناء وما أشبه ذلك...⁽¹⁵⁵⁾، فالمفعول به في المثل الثاني هو (إيّا) وهو مضاف وكاف الخطاب مضاف إليه ، والياء المتصلة بالفعل (أعني) ياء النسبة تعود على المتكلم أي (أعني أنا) لأن تقدير القول بالترتيب العادي لعناصر الإسناد (أعني إياك ، فاسمعي يا جارة)، وقد قدم المفعول به (إيا) للعناية والاهتمام على ما يبدو، وأضيفت له الكاف للتعريف ، ويقول علماء المعاني في مثل هذا التقديم أن غرضه اختصاص هذا المفعول بفعل الفاعل⁽¹⁵⁶⁾، لأنه عناها هي دون سواها (إياك أعني).

وكذلك يرى الزمخشري من أن هذا التقديم لمتعلقات الفعل عليه على النحو السابق إنما هو الاختصاص، غير أن ابن الأثير يضيف إلى الاختصاص غرضا آخر هو مراعاة نظم الكلام، وذلك أن يكون نظمه لا يحسن إلا بالتقديم وإذا آخر المقدم زال ذلك الحسن ، ويرى أن هذا الوجه الأخير أبلغ وأؤكد من الاختصاص⁽¹⁵⁷⁾.

في حين أنه في المثل الثالث والرابع قد قدم شيء آخر من متعلقات الفعل عليه، وهو الجار والمجرور (بأرضنا) في المثل الثالث، و(بخيبة) في المثل الرابع، وهذا التقديم يدل على أن الاستتسار لا يكون إلا بأرضنا، والوجبة لا تكون إلا بخيبة ، وذلك على ما يبدو اختصاص الاستتسار بأرض المتكلم واختصاص الوجبة بخيبة، فضلا على أن هذا التقديم يعطي جمالا خاصا للعبارة لا يتحقق بغيره كما أشار ابن الأثير.

(153) - نفسه، ص14.

(154) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني - البيان - البديع، ص133.

(155) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني - البيان - البديع، ص138.

(156) - نفسه، ص139، 138.

(157) - نفسه، ص139.

أما في المثل الخامس فقد قدم الفاعل (الإيمان) المسند إليه على المسند (الفعل) (قيّد)، ويختلف النحاة في تبرير ذلك، فمن يقول أن المسند إليه هنا (الإيمان) قدم للعناية والاهتمام، ومن يقول أنه ليس هناك تقديم إنما (الإيمان) مبتدأ (مسند إليه)، والجملة اسمية لم يحصل فيها تقديم، وجملة (قيّد الفتك) مسند (خبر)، والفاعل فيها مستتر تقديره هو يعود على (الإيمان)، والتقييد هنا استعارة يقصد بها المنع إذ يشبه الإيمان بمنع ارتكاب المعاصي - بالقيد الذي يوضع في يدي الرجل فيمنعه من الحركة والتنقل وفعل مختلف الأشياء.

5- القصر في المثل:

وتحدث عنه الجرجاني -رغم أنه لم يذكره باسمه- عند كلامه عن بيان استعمال (إنما)، وهي إحدى أدوات القصر فقال: «اعلم أنها تفيد الكلام بعدها إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره، فإذا قلت: إنما جاءني زيد: عقل منه أنك أردت أن تنفي أن يكون الجاني غيره»⁽¹⁵⁸⁾، أي أنك تخص فعل المجيء بزيد وحده، وبذلك فأنت تنفيه على غيره بالتالي تقصره عليه.

وورد أن القصر في إصطلاح علماء المعاني: تخصيص شيء بشيء أو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوصة⁽¹⁵⁹⁾.

ولأن القصر أسلوب في نظم الكلام على وجه ما، فإن له طريقة أو طرق عدة على ما يبدو، وقد أوضحها علماء المعاني، ونريد نحن ذكرها لكن ليس على سبيل الذكر النظري فحسب، إنما وفق النماذج والأمثلة، ولأن مجال دراستنا هذه هو الأمثال سوف نستشهد بها كما يأتي تبعاً لما صنّفه علماء المعاني لطرق القصر وأنواعه:

* فَتَى لَا يُحِبُّ الزَّادَ إِلَّا مِنَ التَّقَى *** وَلَا الْمَالَ إِلَّا مِنْ قَنَا وَسُيُوفٍ⁽¹⁶⁰⁾
 * إِنَّمَا امْرَأَةٌ فَلَانِ الْمُؤَدَّمَةُ الْمُبَشَّرَةُ⁽¹⁶¹⁾
 * إِنَّمَا هُوَ كَبْرَقُ الْخَلْبِ⁽¹⁶²⁾

قد وقع القصر في المثل الأول، الذي هو عبارة عن بيت شعري، حيث يصف هذا الفتى أنه لا يحب من الزاد إلا التقى، أي أنه قد قصر محبته للزاد إلا من التقى، والزاد هو ما

(158) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص268.

(159) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني - البيان- البيدع، ص142.

(160) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص165.

(161) - نفسه، ص153.

(162) - نفسه، ص112.

يحملة المسافر معه، وهو بذلك ينفي عليه كل أنواع الزاد ويثبت حبه لزيد التقى فقط، وكذلك في الشطر الثاني ينفي حبه للمال ، إلا أنه يثبت من جهة أخرى حبه لما كان منه قنا وسيوف، وفي هذا البيت على ما يبدو معنى صفتين توجدان بالفتى هما الورع والشجاعة . وهذا القصر فيما هو واضح وقع بطريقتين هما النفي (لا) والاستثناء (إلا) وفي هذه الحالة كما يورد علماء المعاني يكون المقصور عليه بعد أداة الاستثناء ، وهو في هذا المثل (التقى) في الشطر الأول (الصدر) و (القنا والسيوف) في الشطر الثاني (العجز) والمقصور هو (الفتى) ، وبذلك يكون هذا القصر قصرا حقيقيا لأنه يختص بالحقيقة والواقع في اتصاف الفتى بتلك الصفات.

والبيت الشعري هو من باب المدح كما يبدو ثم هو من وجه آخر قصر موصوف على صفة ، لأن المقصور عليه هي الصفة (التقى، القنا والسيوف) والمقصور هو (الفتى). ولا بأس أن نشير هنا أن علماء المعاني قد قسموا القصر باعتبار الحقيقة والإضافة إلى (حقيقي وإضافي) ، وباعتبار حال المخاطب إلى (إفراد ، قلب، وتعيين) ، وباعتبار الطرفين إلى (قصر صفة على موصوف، وقصر موصوف على صفة)⁽¹⁶³⁾.

أما في المثل الثاني والثالث فقد جاء القصر بطريقة مخالفة للمثل الأول، هي (إنما) حيث المقصور هو (امرأة فلان) في المثل الثاني، و(هو) في المثل الثالث، والمقصور عليه هو صفة (المؤدمة المبشرة) في المثل الثاني، وصفة (برق الخلب) التي هي (الكذب) في المثل الثالث ، فهو إذن من باب قصر موصوف على صفة كما هو المثل الأول، لأن المقصور عليه في حالة القصر ب(إنما) يتأخر ، وقد تأخرت الصفة وتقدم الموصوف.

فضلا على الأمثال التي سبق إيرادها هناك أمثال أخرى قد تختلف عنها في النوع والطريقة، وتتشرك معها فيما يخص أسلوب القصر، والتي نوردتها كما يأتي:

* لَا تُدْرِكُ الرَّاحَةَ إِلَّا بِالتَّعَبِ

* لَا يُرْسِلُ السَّاقَ إِلَّا مُمَسِّكًا سَاقًا

* لَا فَتَى إِلَّا عَمْرُو

* اسْعَ بِجِدِّكَ لَا بِكَدِّكَ⁽¹⁶⁴⁾

* أَمْرٌ مُبْكِيَاتِكَ لَا أَمْرٌ مُضْحِكَاتِكَ⁽¹⁶⁵⁾

(163) - عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية علم المعاني - البيان- البديع، ص142.

(164) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص286.

(165) - نفسه، ص319،320.

* إِنَّمَا يُجْزَى الْفَتَى وَلَيْسَ الْجَمَلُ⁽¹⁶⁶⁾

ففي المثل الأول والثاني والثالث جاء القصر بالنفي (لا) مع الاستثناء (إلا)، وهذه طريقة عرفناها في الأمثلة السابقة، ويضاف على ذلك أن هذه الطريقة (النفي والاستثناء) يندرج فيما أسماه علماء المعاني بالقصر الإضافي من نوع الإفراد، حيث أفرد عمرو وخصه عن غيره بصفة الفتوة.

أما في المثل الرابع والخامس فقد ورد القصر بطريقة أخرى لم تعرف في الأمثال السابقة، وهي ما أسماه علماء المعاني بالعطف بـ(لا)⁽¹⁶⁷⁾، فيقتصر السعي على الجد فيقال (اسع بجدك لا بكذك)، وهو بذلك ينفيه عن الكد ويثبته للجد، ويكون المقصور عليه فيما يورد علماء المعاني مقابلاً لما بعد (لا)، كذلك الأمر يقصر على المبكيات وينفى على المضحكات، أي خذ بأمر مبكياتك ولا تأخذ بأمر مضحكائك، والمثلين من نوع قصر القلب، وهو قصر إضافي لأن المخاطب يعتقد عكس ذلك، فالمثل فيها يشبه النصيحة أو إثبات ما يعتقد المخاطب بأنه غير صحيح.

والمثل السادس (إنما يجزى الفتى ليس الجملة)، من قبيل قصر الصفة على الموصوف لأن المقصور عليه في حال (إنما) يتأخر (الفتى) وهو الموصوف، بينما المقصور (يجزى) يتقدم، ثم هو قصر إضافي من نوع التعيين لأن القصر أثبت للفتى ونفي عن الجملة، وهما متساويان في الجائزة، يتردد المخاطب في إطلاق الحكم، فيقول المتكلم (إنما يجزى الفتى ليس الجملة)، فيعيّن من هو أحق بالجائزة.

وتحدث البلاغيون عن طريقة أخرى-إضافة إلى الثلاثة التي مثلنا لها- هي تقديم ما حقه التأخير، وهنا يكون المقصور عليه هو المقدم⁽¹⁶⁸⁾، وقد تحدثنا عن ذلك في (التقديم والتأخير) عن نية كما أسماه الجرجاني ومثلنا له، ولم نرى من داعي لإعادة تلك الأمثلة هنا. ولا ننسى أن نشير أن (لا) العاطفة كطريقة للقصر قد تكون بـ(لكن) و(بل) بدل (لا)، لكن الاختلاف بين استعمال العطف بـ(لا) واستعماله بـ(لكن) و(بل) أن المقصور عليه في حالة (لا) يكون مقابلاً لما بعدها بينما في حالتها بـ(لكن) و(بل) يكون المقصور عليه هو ما بعدهما.

(166) - نفسه، ص206.

(167) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني - البيان البديع، ص147.

(168) - نفسه، ص147.

والغرض من القصر واضح ، وهو تخصيص شيء بشيء على سبيل الوصف غالباً ، والوصف أو الصفة في القصر لا يقصد بها الصفة نحوياً أي النعت كما يقول الخطيب القزويني ، وإنما يراد بها ما يقابل الذات ، وهو المعنى الذي يقوم بغيره سواء دل عليه بالوصف نحو(عادل) من قولك(ما عمر إلا عادل)، أو دل عليه بغير الوصف كالفعل نحو قولك(ما عمر إلا يعدل)⁽¹⁶⁹⁾.

6- الفصل والوصل في المثل:

ويقول الجرجاني في ذلك : « أعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف فيها ، والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ، ومما لا يأتي لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخالص ، والأقوام طبعوا على البلاغة ، وأتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد»⁽¹⁷⁰⁾.

ويعني الجرجاني بعطف الجمل بعضها على بعض الوصل، بينما يعني بترك العطف فيها، والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى الفصل، وعد العلم بها من أسرار بلاغة المرء ، لذلك فهو لا يتاح الصواب فيه إلا للأعراب الخالص لما عرف عنهم من لغتهم السليمة وفصاحة ألسنتهم ، أو لمن هم طبعوا على البلاغة، أي سارت فيهم مسرى الطبيعة والفطرة، لأن ألسنتهم طبعت على النطق بها، أو اسماعهم تعودت تذوقها، حتى أنها كانت تميز جيدها من رديئها.

وقد قال عنها علماء البلاغة أنها من أصعب أبواب البلاغة⁽¹⁷¹⁾، وبلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوا [الفصل والوصل] حداً للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها؟ فقال : « معرفة الفصل من الوصل»، وذلك لغموضه ودقة مسلكه ، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة⁽¹⁷²⁾، أي أن من عرف مواضع الفصل من الوصل فقد عرف البلاغة ، لما لهذا الباب من قيمة في معرفة نظم الكلام بعضه إلى جانب بعض ، إذ لهذا النظم قواعد وأسس وجب معرفتها.

(169) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني - البيان - البديع، ص153، 152.

(170) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص193.

(171) - محمد بن علي بن محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، ص104.

(172) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص193.

ولأن الفصل والوصل يقع كل منهما في مواضع تختلف عن مواضع الآخر، وفي إطار التمثيل لهذه المواضع إرتأينا أن نمثل لمواضع الفصل على حدا ومواضع الوصل على حدا.

6-1- مواضع الوصل:

والوصل - كما سبق أن ذكرنا - هو عطف الجمل على بعضها البعض مثلما تعطف الكلمات على بعضها في الجملة الواحدة، وقد خص علماء المعاني (حرف الواو) في العطف دون سائر حروف العطف الأخرى، ولهم في ذلك سبب ندلل عليه فيما يأتي من الأمثال العربية التي تتضمنها مدونة البحث:

* إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَرَعِ وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ (173)

* تَحْقِرُهُ وَيَنْتَأُ (174)

* سَكَتَ أَلْفًا وَنَطَقَ خَلْفًا (175)

* الْعِلْمُ خَيْرٌ مَّا وَعَيْتَ وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَّا أَوْعَيْتُ (176)

* يَشْجُ مَرَّةً وَيَأْسُو أُخْرَى (177)

ففي المثل الأول وهو عبارة عن حديث نبوي ارتبط شرطه الأول بشرطه الثاني بواسطة حرف العطف (الواو) ، وهذا ما يحقق الوصل بين الجملتين، ويظهر أنه في هذا الموضع من الوصل قصد إشراك الجملتين في الحكم الإعرابي (178)، إذ جملة المثل في شرطه الأول جملة اسمية منسوخة ، ف(إنكم) مكونة من (إن) أداة نصب وتوكيد، و(الكاف) ضمير خطاب مبني في محل نصب اسم إن ، و(الميم) علامة الجمع، وجملة(تكثرُونَ عند الفرع) جملة فعلية في محل رفع خبر إن ، واللام المتصلة بفعل(تكثرُونَ) للتعليل وظيفتها توكيد الخبر الذي أراد من خلاله الرسول ﷺ مدح الأنصار، وجملة (تقلون عند الطمع) معطوفة على جملة(تكثرُونَ عند الفرع) ، ولها نفس إعرابها ، إذ للجملتين نفس المحل الإعرابي، وذلك كما أورد علماء المعاني موضع من المواضع التي يجب فيها الوصل.

(173) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص271.

(174) - نفسه، ص169.

(175) - نفسه، ص51.

(176) - نفسه، ص242.

(177) - نفسه، ص47.

(178) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني - البيان - البيديع، ص162-164.

أما في الأمثال الباقية فيأتي الوصل لغرض مخالف هو اتفاق الجملتين خبرا وإنشاء وكانت بينهما جهة جامعة ، أي مناسبة تامة ، ولم يكن هناك سبب يقتضي الفصل بينهما⁽¹⁷⁹⁾، وفيها يظهر التلازم واضحا بين الشطرين .

ففي المثل الثالث (تحقره وينتأ) ، فتحقره جملة مكونة من فعل (تحقر) وفاعل مستتر (أنت) ومفعول به (الهاء المتصلة بالفعل تحقر)، وينتأ(فعل +فاعل مستتر-أنت)، فالجملتين مرتبطتين شكلا ومعنى، ففي الشكل يرتبطان من خلال (واو العطف) التي تجمعهما ، لأنها تدل دائما على مطلق الاشتراك والجمع ، أما المعنى فيظهر في ارتباط الاحتقار بالنتوء ، حيث يجعل الثاني نتيجة للأول ، فاحتقار الشيء لديه تحفيز للنتوء.

وأیضا جاء المثل الثالث عبارة عن مقابلة بين شطريه من حيث المعنى لكن هذه المقابلة تتضمن تكاملا بين الشطرين (سكت ألفا ونطق خلفا).

أما في المثل الرابع فلا مقابلة بين الشطرين سوى أن شطري المثل يربط بينهما حرف عطف وتجمعهما مناسبة واحدة وتامة كما أشرنا آنفا (العلم خير ما وعيت والشر أخبث ما أوعيت)، فجعل العلم وعي وإدراك ، وجعل الشر وعاء.

في حين أن المثل الخامس يعني بشطريه اختلاف طباع المرء ، فالشج هو الإصابة في الرأس (يشج مرة)، و(يأسو أخرى) أي يداوي الجرح ، ويضرب للرجل يحسن التدبير أحيانا ويسيء أحيانا ، أو للدهر يفرح يوما ويبكي يوما ، ويتكامل الشطران بذلك في إيصال المعنى، وما يحقق هذا التكامل (حرف الواو) الذي يربطهما ، وهو يعني الاشتراك والجمع.

وبذلك نكون قد مثلنا لما جاء من الوصل في الأمثال العربية ، وكثيرا ما يحدث هذا الوصل بين الشطرين يحققان بينهما المقابلة في المعاني، أو أنهما يتكاملان لتشكيل المعنى العام للمثل، والوصل الموجود في الأمثال يقع دائما بحرف العطف (الواو) ، وهو أكثر ما أشار إليه علماء المعاني من حروف العطف في إطار حديثهم عن مواضع الوصل، لأنه برأيهم هو الوحيد الذي يحقق الجمع مع الاشتراك ، بينما حروف العطف الأخرى تحوي معاني إضافية إلى جانب ذلك.

2-6- مواضع الفصل:

(179) - نفسه، ص162-164.

والفصل عكس الوصل، يعني عند علماء المعاني أنه ترك العطف بين الجمل، حتى تظهر منفصلة عن بعضها، وتمثيلا لذلك نورد مجموعة من الأمثال العربية التي تضمنت هذا الفصل موضحين موضعه في كل منها:

* أَجْعُ كَلْبَكَ يَتَّبِعَكَ (180)

* إِذَا تَوَلَّى عِقْدًا أَحْكَمَهُ (181)

* إِذَا حَكَمْتُ فَرْحَةً أَدَمَيْتُهَا (182)

* أَحْبَبُ مَنْ شَبَّتَ ثَقْلَهُ (183)

* أَرْهَدُ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، يُحِبُّكَ النَّاسُ (184)

* أَضِيءُ لِي أَقْدَحُ لَكَ (185)

* الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا انْتَلَفَ وَمَا تَتَاكَرَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ (186)

* الْأُمُورُ تَشَابَهُ مُقْبَلَةً لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا ذُو الرَّأْيِ ، فَإِذَا أُدْبِرَتْ عَرَفَهَا الْجَاهِلُ كَمَا يَعْرِفُهَا الْعَاقِلُ (187)

فالمثلين السابع والثامن تضما فصلا بين الجمل التي تحتويهما ، ذلك أن الجملة الثانية في المثل السابع تؤكد ما جاء في الجملة الأولى (الأرواح جنود مجندة)، وذلك قول مفهوم للنبي ﷺ، لكن تزداد وضوحا بما يأتي بعدها (فما تعارف منها انتلف وما تتاكر منها اختلف) ، وبذلك فهذه العبارة اللاحقة توكيدا للعبارة السابقة (الأرواح جنود مجندة) . وأيضا المثل الثامن الذي جاء جزئه الأول (الأمور تشابه مقبلة) ، وأكدها بما يأتي بعدها (لا يعرفها إلا ذو الرأي ، فإذا أدبرت عرفها الجاهل كما يعرفها العاقل) ، وجاء الجزء الأول منفصلا عن الثاني الذي ازداد به الأول وضوحا وتوكيدا .

أما في الأمثال الباقية فالجملة الثانية تتفصل عن الأولى في البنية الظاهرية، بينما تتصل بها في المعنى، ذلك أنها بيان لها وتام لمعناها.

(180) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح الأمثال ، ص489.

(181) - نفسه، ص158.

(182) - نفسه، ص151.

(183) - نفسه ، ص391.

(184) - نفسه، ص410.

(185) - نفسه، ص205.

(186) - نفسه، ص261.

(187) - نفسه، ص151.

ففي المثل الأول تأتي الجملة الثانية منه متممة لمعنى الأولى (اجع كلبك) ، فالأولى مكونة من فعل أمر (اجع) والفاعل ضمير مستتر تقديره (أنت) ، و (كلب) مفعول به، و(الكاف) ضمير خطاب متصل في محل جر مضاف إليه، لكن المعنى لا يكتمل إلا بإضافة الجملة الثانية (يتبعك)، هذا ما أشار إليه علماء المعاني (بكمال الاتصال)⁽¹⁸⁸⁾، حيث الثانية تتم معنى الأولى رغم الانفصال الظاهر بينهما ، فلا رابط بينهما إلا رابط المعنى ، والأمر نفسه في المثل الثاني والثالث (إذا تولى عقدا أحكمه)، و (إذا حككت قرحة أدميتها) .

وكذلك في المثل الرابع والخامس والسادس حيث (نقله) و (يحببك الناس) و (أقذ لك) تمام لما ورد في الأجزاء الأولى للأمثال الثلاثة (أخبر من شئت) و (أزهد فيما في أيدي الناس) و (أضياء لي) على الترتيب، فإننا إذا ركبنا جزء من هذه الأجزاء مع ما يقابله من الأجزاء الثلاثة الأولى أعطى المعنى ، ولا يتحقق المعنى بدونه ، رغم أن الظاهر بين الجزئين أو شطري المثل (الجملتين) هو الانفصال، لكن يبدو الاتحاد التام بينهما من حيث هما تمام لبعضهما ويحققان بتركيبهما تمام معنى المثل الذي يريد صاحبه إيصاله.

فجزء المثل في حالات الانفصال هذه يترايطان في سبيل إيصال هذه الفكرة ولا تحقق لها إلا بتلازمهما ، فهما إذن متحدان أصلا ، رغم الفصل الذي يظهر بين الجملتين من خلال الفاصلة التي تقع بينهما (أزهد فيما في أيدي الناس، يحببك الناس)، وكذلك كان الانفصال في مواضع (الفصل) التي تحدث عنها علماء المعاني وأوضحوها توكيد أو بيانا أو غير ذلك.

7- الإيجاز والمساواة والإطناب في المثل:

والإيجاز هو قصور البلاغة على الحقيقة⁽¹⁸⁹⁾، وذكر أنه التعبير بالكلام القليل على المعنى الكثير، وقد قيل لبعضهم: ما البلاغة ، فقال: الإيجاز، قيل وما الإيجاز، قال حذف الفضول، وتقريب البعيد، وسمع رسول الله ﷺ رجلا يقول لرجل : كفاك الله ما أهمك فقال: هذه البلاغة ، وسمع آخر يقول عصمك الله من المكاره، فقال: هذه البلاغة...⁽¹⁹⁰⁾.

أما المساواة فهي مساواة اللفظ للمعنى من غير زيادة عليه ولا نقصان، وحيث عرف الإيجاز والإطناب ، سهل معرفة المساواة⁽¹⁹¹⁾، أو هي كلام لو حذف منه شيء من لفظه

(188) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني - البيان - البديع، ص156-159.

(189) - أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعيين، ص193.

(190) - نفسه ، ص193.

(191) - محمد بن علي بن محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، ص148.

اختل معناه ، ولم يحتج إلى زيادة عليه لفظاً ، كقوله تعالى: [وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ] (فاطر/43)⁽¹⁹²⁾ ، فالمساواة تقع بين الإيجاز والإطناب.

في حين أن الإطناب في رأي الجاحظ هو مرادف الإطالة ومقابل لمعنى الإيجاز وهما (الإطناب والإطالة) عنده: كل ما جاوز مقدار الحاجة من الكلام ولم يقف عند منتهى البغية⁽¹⁹³⁾.

ولأننا سوف نفصل في كل عنصر من الثلاثة في إطار الدراسة التطبيقية، يحسن بنا أن نقسم الدراسة بخصوصها إلى ثلاثة أقسام ، كل قسم بمفرده لنتناوله بمزيد من التفصيل والتوضيح.

7-1- الإيجاز:

والإيجاز عند علماء البلاغة نوعان على ما يقول العسكري « الإيجاز ، القصر والحذف: فالقصر تقليل الألفاظ وتكثير المعاني [...] وهو قول الله تعالى: [وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ] (البقرة/179) ... »⁽¹⁹⁴⁾ ، والحذف هو ما يحذف منه كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعين المحذوف ، ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه⁽¹⁹⁵⁾ ، وبذلك يتعين علينا أن نقسم النماذج المثلية إلى قسمين:

الأول هو الأمثال التي وقع فيها إيجاز القصر ومن ذلك نورد ما يأتي :

* إِنَّ الْمُنْبِتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى⁽¹⁹⁶⁾

* حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُبْصِمُ⁽¹⁹⁷⁾

* إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ⁽¹⁹⁸⁾

* وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ⁽¹⁹⁹⁾

* إِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ لِسَانُهُ وَقَلْبُهُ⁽²⁰⁰⁾

(192) - محمد بن علي بن محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، ص148.

(193) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية ، ص179.

(194) - أبو هلال العسكري ، الصناعتين، ص195.

(195) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية...، ص170-173.

(196) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص13.

(197) - نفسه، ص320.

(198) - نفسه، ص14.

(199) - نفسه، ص9.

* إِنَّكَ لَا تَجْنِي مِنَ الشَّوْكِ الْعِنَبِ (201)

* التَّقِيُّ مُلْجَمٌ (202)

وهذه نماذج قليلة من صور كثيرة للإيجاز الذي تحويه الأمثال، إذ تعرّف على أنها (قول موجز مقتضب يحمل فكرة ما)، وهو الأصل في أكثرها، وقد أدرجنا في هذه المجموعة من الأمثال عددا كبيرا من الأحاديث النبوية التي وردت على لسان النبي ﷺ أولا، ثم صارت بعد ذلك تجري مجرى الأمثال لإيجازها وصواب فكرتها، وهي تحمل مضمونا أكثر بكثير من الألفاظ التي تكونها.

فالمثل الأول (إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى) يحث فيه ﷺ على عدم الإفراط في طلب الحاجة ولا التكلف، ومثّل لذلك بهذا الحديث وهو مما روته عائشة عن النبي ﷺ في أنه قال: "إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تَبْغُضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ رَبِّكَ، فَإِنَّ الْمُنْبِتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى" (203).

والمثل جزء من هذا الحديث غير أنه يتضمن دلالة أهم ما احتواه حيث ينهى الرسول ﷺ عن الغلو في العبادة، ويطلب أن نوغل في الدين برفق أي أن نعرفه شيئا فشيئا، فنذكر حقيقته، بعدها نعمل به، ويقول (لا تبغض إلى نفسك عبادة ربك)، لأن التكلف في فعل الشيء يتعب، بالتالي يشعر بالملل، وبذلك يكون هذا المثل بكلماته القليلة يتضمن معنى كبيرا جدا يتحدد به طريق العبادة.

كذلك تضمن الحديث النبوي (المثل) الثاني (حبك الشيء يعمي ويصم)، ولا يقصد الرسول ﷺ معنى العمى والصمم إذ يقصد التغاضي عن الأخطاء والمسامحة وعدم إبصار العيوب، فهو ﷺ لم يقل أنك إذا أحببت شيئا تغاضيت عن أخطائه وسامحته في كل ما يأتي وأظهرت أنك لا تبصر عيوبه، إنما اختصر كل هذه المعاني في قوله (حبك الشيء يعمي ويصم)، أي يذهب بكل ما يجعلك تدركه وتذكر معه النقائص الموجودة به كغيره من الأشياء فلا كمال إلا له سبحانه، وبذلك يتضمن المثل ألفاظا أقل من معناه.

(200) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص137.

(201) - نفسه، ص379.

(202) - نفسه، ص22.

(203) - نفسه، ص13.

أما في المثل الثالث - جاء حديثا نبويا أيضا- فإن الرسول ﷺ يحذر فيه من شيء ما في قوله: "إياكم وخضراء الدمن"، وفي التكملة لهذا الحديث، قيل: وما خضراء الدمن يا رسول الله، قال: "المرأة الحسنه في المنبت السوء"، وقيل الجميلة في المنبت السوء، ولكننا بالشرح اللغوي لعبارة هذا المثل لا نحصل على حقيقة معناه ولا نفهمه إلا بالعودة إلى شروح الحديث وتأويله، فلو قلنا لمن لا يعرف هذا الحديث (إياكم وخضراء الدمن) لم يفهمه ولا أدرك معناه إنطلاقا من عبارته، في حين أننا إذا شرحنا الحديث وأوضحنا معناه سهل على كل شخص أن يفهمه .

فالرسول ﷺ يحذرنا هنا من المرأة الجميلة الشكل التي نبتت في منبت سوء أي أن محيطها الذي تربت فيه غير صالح، وفي ذات المعنى يورد الرسول ﷺ حديثا آخر - فيما تحفظه الذاكرة- وهو قوله: "اخْتَارُوا لِأَبْنَائِكُمُ الْأَحْوَالَ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ".

وفي الحديث الرابع (مثل) يتحدث النبي ﷺ على زينة الدنيا، فلا يقول بالأسلوب المباشر إن زينة الدنيا غير باقية، وهي زينة زيف...، إنما يقول (وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم)، فيعبر عن زينة الدنيا ببهجة الربيع، وهو ضمنا ومن غير أن يذكر يشبه الناس بالماشية (ما يقتل حبطا أو يلم)، فالماشية عندما تشاهد ما أنبتته جو الربيع يبهرها جماله فتأكل منه من دون تمييز ولا حذر، فإذا أكثر وأخلطت ربما ماتت تخمة، وهلكت إذ سلكت طريق السوء دون أن تشعر، فهي لم تصدق إذ وجدت المراعي خضراء، فلم تشعر إلا وهي تأكل منها بنهم ودون تمييز، كذلك الإنسان يغتر بزخرف الدنيا وزينتها فتسرقه حتى لا يفيق إلا وهو مفارق لها، والدنيا مثلما قال الشاعر:

إِذَا اخْتَبَرَ الدُّنْيَا لَيْبِبُ *** تَكشَفَتْ لَهُ عَنْ عَدُوِّ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ

وبذلك يضمن الرسول ﷺ كل هذه المعاني في عدد قليل من الألفاظ لا يتجاوز عشرة ألفاظ. وكل هذا الإيجاز ليس غريبا عن شخص النبي ﷺ، وهو الذي قال عنه الله سبحانه وتعالى (لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)، وقال هو عن نفسه: "أوتيت جوامع الكلم".

أما في المثل الخامس فإن لفظة (أصغريه) تحوي أكثر من معناها، فالإنسان لدلالة هذا المثل لا يقيّم بأكثر من قلبه ولسانه، فقلبه وما يحتويه من طيبة وسعة وحب الناس وقيم خلقية ، ولسانه وما ينطق به من بيان وحسن كلام، وما الجمال والمظهر الخارجي أو المكان المرموق أو الطبقة الاجتماعية إلا أمور زائدة لا تعبر عن حقيقة المرء ، ربما زادت قيمة إذا تكاملت مع ما يحويه قلبه وما ينطق به لسانه ، لكنها بدونهما تغدو شيئاً لا قيمة له ولا دلالة على حقيقة الرجل ، ومصداقاً لقول القائل:

لَيْسَ الْجَمَالَ بِأَنْوَابٍ تُزِينُنَا *** إِنَّمَا الْجَمَالَ جَمَالُ الدِّينِ وَالْأَدَبِ

وكذلك قول الشاعر:

وَلَوْ لَيْسَ الْجِمَارُ ثِيَابَ حَزْرٍ *** لَقَالَ النَّاسُ يَا لَكَ مِنْ حِمَارٍ

فالمثل السابق (إنما المرء بأصغريه لسانه وقلبه) يحوي معان كثيرة عبر عنها بألفاظ قليلة.

أيضاً قول القائل (إنك لا تجني من الشوك العنب) وهو مثل سائر، جرى بين الناس وتعارفوا عليه، حتى أنه صار بمثابة الحكمة ، ويضرب للرجل يعود إلى أصله وتقول العامة (كل واحد يعمل بأصله) ، فالشوك لا يجنى منه العنب، إنما يجنى عليه الشوك نفسه، وقيل يضرب للشر لا يتوقع منه الخير، وربما وضع لعكس ذلك على سبيل التهكم والسخرية، وهو قول موجز يتضمن معنا كبير في عودة الناس إلى أصولهم.

وفي ذلك يقول النبي ﷺ: "الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا"⁽²⁰⁴⁾.

كذلك المثل السابع (التقي ملجم) ، وفي اللجام معنى الامتناع ، وهذا المثل على إيجاز عبارته التي تتكون من كلمتين لا غير يعطي معنى مغزاه أن التقي ممنوع من ارتكاب ما يغضب الله سبحانه وتعالى، والنقوى باب واسع من أبواب الدين، وكذلك الامتناع عن ارتكاب المعاصي.

والإيجاز -بطبيعة الحال هنا- يحقق أغراض بلاغية عدة منها: سهولة حفظ مثل هذه الأقوال الموجزة، والاستشهاد بها في عدد من المواقف ، وهي بذلك تؤدي على إيجازها ما تؤديه المجلدات أحياناً، وذلك ما يستوجب في الأمثال، كما أنها تفيد بتوظيفها في أنواع الكلام

(204) - البخاري ، صحيح البخاري ، ج حديث 3304 ، ص .

الأخرى، كالخطابة والشعر، والقصص وغيرها، ويعد ذلك بمثابة التحسين في الكلام وزيادة تأنقه وجماله.

الثاني هو الأمثال التي وقع فيها إيجاز الحذف ونمثل منها بما يأتي:

* ذَنْبُ صَحْرٍ (205)

* فِي الدُّهَيْمِ (206)

* لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِّ (207)

* لِلْعَاهِرِ الْحَجَرِ (208)

* لِلْمُنْحَرَيْنِ (209)

* كِلَاهُمَا وَتَمْرًا (210)

* فِي بَطْنِ زُهْمَانَ زَادُهُ (211)

والمشترك بين كل هذه الأمثال هو الإيجاز مع الحذف ، إذ الحذف يقدر فيها ، ويدل على تمام معناها، فالمثل الأول(ذنب صحر) موجز فيه حذف لجزء منه لأن أصله على ما ذكر في معجم الأمثال (ذنب صحر أنها أتحتته وأكرمته وصدقته فلطمها)⁽²¹²⁾ ، لكن جزر المثل الثاني حذف ، وسار المثل بجزئه الأول (ذنب صحر) اختصارا ، وإيجازا ، ويدل ذكره على قصة المثل ومضربه ، إذ لذنب صحر دلالاته على العقوبة دون ارتكاب الذنب.

كذلك المثل الثاني (في الدهيم) أصله (شأنكم في الدهيم) أو (أمركم في الدهيم) ، حيث حذف المسند إليه (المبتدأ) (أمركم) أو (شأنكم) ، ويضرب المثل عند نزول البلايا والمصائب ، لأن لفظة (الدهيم) اسم يطلق على ناقة سار خبرها بالشؤم ، فاستعملها العرب، وضربت لديهم مثلا عن البلايا العظام، و(أمركم في الدهيم) أي في طريق الهلاك.

(205) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص386.

(206) - نفسه، ص468.

(207) - نفسه، ص98.

(208) - نفسه، ص17.

(209) - نفسه، ص98.

(210) - نفسه، ص110.

(211) - نفسه، ص312.

(212) - خير الدين شمسى باشا، معجم الأمثال العربية، 1168/2.

والمثل الثالث معناه (كَبَّه الله لديه ولفمه) أو (تصيبك البلايا لليدين ولفم) والتقدير الثاني أنسب لعبارة المثل ، لأنه على سبيل الدعاء بالشر ، فاليد والفم هما مصدر الأذى ، لأن اليد للضرب والفم للقفز، والمحذوف من المثل الجملة الفعلية (تصيبك البلايا). وفي المثل الرابع(للعاهر الحجر) يحذف الفعل لأن أصل القول يلزمك للعاهر الحجر، ويبدو أن حرف الجر في تقدير الكلام حرف جر زائد، لأن العاهر هنا هي مفعول به ، وهو من حديث نبوي شريف " للعاهر الحجر ، والولد للفراس".

أما المثل الخامس فحذف منه ما حذف من المثل الرابع ، حيث تقدير القول (تصيبك البلايا للمنخرين) ، وغرض الحذف هنا، مثلما هو في بقية الأمثال السابقة واللاحقة هو الإيجاز في الألفاظ مع كثرة المعاني التي تتضمنها.

كذلك كان الحذف في المثل السادس(كلاهما وتمرا)، وأصله (خذ كلاهما وزد تمرا) أو (أعطيك كلاهما وأزيدك تمرا) ،ويضرب للإفراط في المزاح، وقد حذف منه الفعل + المفعول به في (أعطيك) و(أزيدك) ،وغرض الحذف دائما الإيجاز.

وأيضا الأمر نفسه في المثل السابع (في بطن زهمان زاده)، فقد حذف منه الفعل (يوجد) وتقديره بدون حذف (يوجد في بطن زهمان زاده)، وذلك من أجل الإيجاز.

ونخلص أخيرا إلى أن الإيجاز بنوعيه القصر والحذف أخص خصائصه المثل، وما شاع المثل وتداول بين الناس إلا لإيجاز عبارته وسهولة حفظه، فضلا على خصائصه الموسيقية وتناغم عبارته لتوافق نهاية شطريه إذ يتكون من جزئين غالبا.

7-2- المساواة:

وهي مساواة الألفاظ للمعاني بغير زيادة ولا نقصان ، والمساواة هي إحدى الطرق الثلاثة التي يلجأ إليها البليغ للتعبير عن كل ما يجول بنفيه من خواطر وأفكار، فالبليغ على حسب مقتضيات الأحوال والمقامات قد يسلك في أداء معانيه تارة طريق الإيجاز، وتارة طريق الإطناب وتارة طريقا وسطا بين بين، هو طريق المساواة⁽²¹³⁾.

وهناك من عدّها نوعا من الإيجاز ولم يعتبرها ضربا ثالثا مع الإيجاز والإطناب⁽²¹⁴⁾.

(213) - عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية، ص194.

(214) - عبد القادر حسين ، أثر النحاة في البحث البلاغي ، ص255.

وسواء كانت المساواة ضربا ثالثا مع الإيجاز والإطناب، أو كانت نوعا من الإيجاز، فمفهومها واحد ما ذكرناه، أي كون عدد الألفاظ مساو لعدد المعاني، ونمثل لذلك بعدد من الأمثال العربية كما يأتي :

* مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ تُمْلِيهَا الرِّيحُ مَرَّةً هَاهُنَا وَمَرَّةً هَا هُنَاكَ ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ الْمُجْدِيَةِ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى يَكُونَ إِنْجِعَافُهَا مَرَّةً⁽²¹⁵⁾

* تَرَكَ الذَّنْبَ أَيْسَرَ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ⁽²¹⁶⁾

* ذَهَبَتِ النَّعَامَةُ تَطْلُبُ قَرْنَيْنِ فَرَجَعَتْ مُصَلِّمَةً الْأُذُنَيْنِ⁽²¹⁷⁾

* عَيَّ صَامِتٌ خَيْرٌ مِنْ عَيِّ نَاطِقٍ⁽²¹⁸⁾

* شَنْشَنَةٌ أَعْرِفُهَا مِنْ أَحْرَمٍ⁽²¹⁹⁾

* لَنْ يَزَالَ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا تَبَايَنُوا ، فَإِذَا تَسَاوَوْا هَلَكُوا⁽²²⁰⁾

فالحديث النبوي (المثل الأول) على طوله لا إطناب فيه فكلماته مساوية للمعنى الذي يحتويه ، وبدون هذا الطول لا يتضح معنى المثل، فلو قال ع (مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذية على الأرض) لما فهم معنى هذا المثل ولا مغزاه. كذلك المثل الثاني(ترك الذنب أيسر من طلب التوبة) جاء عدد كلماته مساو للمعنى الذي يحتويه ، والمثل فيه معنى الحديث النبوي القائل: "تَرَكَ الْخَطِيئَةَ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ"⁽²²¹⁾، ومعناه الابتعاد عن ارتكاب المعصية أو الخطيئة أهون أو أسهل من طلب التوبة بعد فعلها، ودليل مساواة الألفاظ للمعاني أننا إذا جئنا للحديث أو المثل وشرحناه شرحا لغويا فهمنا معناه دون تأويل أو إضافة تذكر.

أيضا جاء المثل الثالث وألفاظه تحوي معانيه وجمع معاني الألفاظ نصل إلى المعنى العام للمثل (فذهبت) ، فذهبت أي توجهت إلى مكان ما ، (النعام) طائر معروف، (تطلب قرنين) مفهومة، فعادت أو رجعت مصلمة أي مقطوعة الأذنين.

(215) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص7.

(216) - نفسه، ص74.

(217) - نفسه، ص361.

(218) - نفسه، ص29.

(219) - نفسه، ص219.

(220) - نفسه، ص196.

(221) - أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان، كتاب الأمثال في الحديث النبوي، ص225، 226.

كذلك المثل الرابع (عي صامت خير من عي ناطق) ، وردت ألفاظه بقدر المعاني التي يؤديها، فالعي هو عدم القدرة على إيتاء الحجة، ومن لم يؤتى حجته كان الأفضل له أن يصمت ، لأن كلامه دون حجة أي مع عي كصمته، وذلك معنى المثل وهو شرح الألفاظ التي تحتويها عبارته.

وفي المثل الخامس (شنشة أعرها من أخزم)، الشنشة هي الطبيعة والغريزة⁽²²²⁾ ، وأخزم هو جد حاتم الطائي، ومعنى المثل هو مجموع شرح ألفاظه اللغوي لا زيادة ولا نقصان. والمثل السابع أيضا جاء معناه على قدر ألفاظه ، ويتكامل المعنى العام بمعنى كل لفظ مع الآخر، فلن يزال الناس بخير فيها دلالة المستقبل أي أن فعل يزال موجود في الحاضر ومستمر إلى المستقبل، (ما تباينوا) أي ما اختلفوا ، فالبين أو البون هو الاختلاف، والاختلاف هنا يعني المكانة والطبقة والطباع ، فإن حدث وتناوؤوا هلكوا، لأن بتساويهم استغناء لهم عن بعضهم فلا يبقى للواحد منهم من حاجة عند الآخر إذ يساويه في كل ما عنده.

وفي المساواة غرض الإفهام والتوضيح وإبعاد الملل، على عكس الإيجاز الذي يكون إبهام أحيانا، والإطناب الذي يكون فيه ملل في مرات عدة ، كما أنها أي المساواة تعطي المعاني مباشرة بعدد الألفاظ التي يحتويها المثل، ويقال أن ألفاظها قوالب لمعانيها⁽²²³⁾.

3-3- الإطناب:

وقال صاحب المثل السائر: «هذا النوع من الكلام أمعنت نظري فيه وفي التكرير وفي التطويل فملكنتي حيرة الشبه بينهما طويلا[...] وبعد أن أمعنت نظري في هذا النوع الذي هو الإطناب وجدت ضربا من ضروب التأكيد التي يؤتى بها في الكلام قصد المبالغة ألا ترى أنه ضرب مفرد من بينها برأسه لا يشاركه فيه غيره... »⁽²²⁴⁾.

فابن الأثير قد شابه في البداية بين الإطناب والتكرير والتطويل، لكنه بعد ذلك أيقن أنه من ضروب التأكيد ، أي تأكيد الكلام ويرى فيه قصدا للمبالغة.

وأشار أبو هلال العسكري للإطناب بقوله: «والقول القصد أن الإيجاز والإطناب يُحتَاجُ إليهما في جميع الكلام وكل نوع منه ، ولكل واحد منهما موضع[...] فالحاجة إلى الإيجاز في

(222) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص219.

(223) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص195، 194.

(224) - ابن الأثير ، المثل السائر، ص119/2.

موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه ، فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ...»⁽²²⁵⁾ ويقول غير العسكري: «البلاغة الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل»⁽²²⁶⁾.

وبضيف ابن الأثير في معنى الإطناب: «هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ، فهذا حدّه الذي يميزه عن التطويل، إذ التطويل هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة ، وأما التكرير فإنّه دلالة على المعنى مرددا كقوله لمن تستدعيه أسرع أسرع [...] ومنه ما يأتي لفائدة ، ومنه ما يأتي لغير فائدة، فأما الذي يأتي لغير فائدة فإنّه جزء من الإطناب وهو أخصّ منه»⁽²²⁷⁾. وبهذا فقد حدّد ابن الأثير الإطناب بأنه زيادة الألفاظ على المعنى ، لكن هذه الزيادة لم يتركها على إطلاقها بل ربطها بشرط الفائدة ، بينما أطلقها في التطويل، وجعل منه جزء يدخل في باب الإطناب، كما عرّف التكرير على أنه زيادة للألفاظ مع ترديدها.

وبذلك نكون قد وصلنا إلى مفهوم الإطناب الذي نوّد التمثيل له بنماذج من الأمثال العربية، لكن قبل ذلك نقول أن البلاغيين لم يقفوا عند حدّ الإطناب ، بل ذكروا له أنواع وأقسام، ففي (الإشارات والتنبيهات) ورد نص بشأن ذلك مضمونه قول صاحب الكتاب - بعد تعريف الإطناب-: «... وذلك على وجوه سبعة: الإيهام مع التفسير، وذكر الخاص مع العام، والتكرير للزجر، والإيغال، والتذليل، والتكميل، وأخيرا التتميم»⁽²²⁸⁾.

أما ابن الأثير فقد قسم الإطناب تقسيما آخر مراعاة لوروده فيقول: «والإطناب وجد تارة في الجملة الواحدة من الكلام ، ويوجد تارة في الجمل المتعددة [...] [ويرى أن] الذي يوجد في الجمل المتعددة أبلغ لاتساع المجال في إيراده»⁽²²⁹⁾.

ونحاول في إدراجنا للنماذج المثلية الإشارة للتقسيم الأول والتقسيم الثاني إن ورد، ومن ذلك الأمثال العربية التالية:

(225) - أبو هلال العسكري، الصناعتين.....، ص209.

(226) - نفسه، ص209.

(227) - ابن الأثير ، المثل السائر، 120/2.

(228) - محمد بن علي بن محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، ص135.

(229) - ابن الأثير ، المثل السائر، 121/2.

* ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَيْ الصِّرَاطِ سُورٌ فِيهِ أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ وَعَلَى تِلْكَ
 الْأَبْوَابِ سُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: ادْخُلُوا الصِّرَاطَ وَلَا تَعُوجُوا ، قَالَ:
 فَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ ، وَالسُّورُ حُدُودُ اللهِ ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ مَحَارِمُ اللهِ وَذَلِكَ الدَّاعِي الْقُرْآنُ (230).
 * ابْنُكَ ابْنُ أَبِيكَ ، لَيْسَ بِذِي أَبِي غَيْرِكَ (231).
 * الْأُمُورُ تُشَابَهُ مُقْبَلَةٌ وَلَا يَعْرِفُهَا إِلَّا ذُو الرَّأْيِ ، فَإِذَا أَدْبَرْتَ عَرَفَهَا الْجَاهِلُ كَمَا يَعْرِفُهَا
 الْعَاقِلُ (232)

* لَيْسَ خُلَّةً مِنْ خِلَالِ الْخَيْرِ تَكُونُ فِي الرَّجُلِ هِيَ أُخْرَى أَنْ تَكُونَ جَامِعَةً لِأَنْوَاعِ الْخَيْرِ كُلِّهَا
 فِيهِ مِنْ حِفْظِ اللِّسَانِ (233).
 * مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءٌ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، حَسْبُ الرَّجُلِ مِنْ طَعَامِهِ مَا أَقَامَ صَلْبِهِ ، فَإِنْ أَبَى
 قَتَلْتُ طَعَامًا وَتَلْتُ شَرَابًا وَتَلْتُ نَفْسًا (234)
 * مَا يَعْرِفُ فُلَانٌ الْحَوَّ مِنْ اللَّوِّ وَالْحَيِّ مِنَ اللَّيِّ (235)
 * الرَّجَالُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ ذُو عَقْلٍ وَرَأْيٍ ، وَرَجُلٌ إِذَا حَزَّ بِهِ أَمْرٌ أَتَى ذَا رَأْيٍ فَاسْتَشَارَهُ ، وَرَجُلٌ
 حَائِرٌ بَائِرٌ لَا يَأْتِمُرُ رُشْدًا وَلَا يُطِيعُ مُرْشِدًا (236)
 * التَّمْرَةُ إِلَى التَّمْرَةِ تَمْرًا وَالذُّودُ إِلَى الذُّودِ إِيْلٌ (237)

فالمثل الأول حديث نبوي طويل أخذ بمثابة المثل، والرسول ع يبين فيه أموراً أرادها الله سبحانه وتعالى، وضرب بها المثل للناس فقال: "ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط سور فيه أبواب متفتحة ، وعلى تلك الأبواب ستور مرخاة وعلى رأس الصراط داع يقول: ادخلوا الصراط ولا تعوجوا..."

والمثل (أو الحديث) إلى لفظة تعوجوا لم يطل ولم يزد لفظة على معناه ، لكنه بعد هذه اللفظة ، وبداية من (فالصراط...) بدأ الإطناب، ويظهر أن هذا الإطناب مما سماه علماء البلاغة بالإبهام مع التفسير ذلك أن الحديث كان مبهما في بدايته، فلا معنى للصراط غير ما

(230) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص6.

(231) - نفسه، ص .

(232) - نفسه ، ص151.

(233) - نفسه، ص27.

(234) - نفسه، ص409.

(235) - نفسه، ص515.

(236) - نفسه، ص329.

(237) - نفسه، ص282.

نعرفه ، ولا معنى للسور ولا للأبواب المفتحة التي يبدو أنها فتّحت قصدا لصيغة الكلمة وهي على وزن مفعلة ، وهذا ما يتضح بعد ذلك عند شرح معناها ، كما أنه لا معنى للداعي الذي يدعو على رأس الصراط بعبارة ادخلوا الصراط ولا تعوجوا، لكن بعد هذا يبدأ ع في تفسير كل ما ورد في الجزء الأول من الحديث حين قال: فالصراط هو الإسلام، والسور حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعي هو القرآن، والإطناب هنا وقع في عدد من الجمل ولم يقع في جملة واحدة وهو ما سبق أن ذكرنا أن ابن الأثير قد أشار إليه وقسم الإطناب لذلك ، وأورد أن هذا النوع من الإطناب أبلغ مما يقع في جملة واحدة لاتساع مجاله، ويبدو ذلك صحيحا .

فضلا على ما يفيد السامع من تفسير ما كان مبهما لديه، فقد جاء بشكل مرتب في وروده في الحديث ، كما يجعل المستمع يفهم بعد إبهام، مما يولد لذة غريبة في نفس السامع من أثر أنها عرفت ما كانت له جاهلة ، وربما هذا الإطناب جاء في محله لأن الأحاديث النبوية خاصة تحتاج إلى تفصيل وتفسير لأنه يعتمد عليها في فهم الشريعة الإسلامية ، فهي تفصيل لما جاء مجملا في القرآن الكريم.

أما المثل الثاني(ابنك ابن أيرك ، ليس بذى أب غيرك) ، فإن الإطناب وقع فيه في جملة واحدة هي (ليس بذى أب غيرك) ، وهو على وجه التذييل، ويعني تعقيب الجملة بجملة أخرى بمعناها للتوكيد سواء كانت الثانية مستقلة بنفسها أم لا⁽²³⁸⁾، كذلك جاءت الجملة الثانية للمثل (ليس بذى اب غيرك) توكيدا للجملة الأولى (ابنك ابن أيرك) ، أي ابنك ابن صلبك، ثم يؤكد بالجملة الثانية لمعنى الأولى(أنه ليس بذى أب غيرك) ، وقال ابن الأثير عن مثل هذا النوع من الإطناب:« وجدت ضربا من ضروب التأكيد التي يؤتى بها في الكلام قصد المبالغة...»⁽²³⁹⁾ ، وهذا ما حققته الجملة الثانية للمثل، وقد وقع هذا الإطناب في جملة واحدة ، وهي جملة المثل الثانية (ليس بذى اب غيرك) ، وهذا ما أشار إليه ابن الأثير في تقسيم الإطناب.

كذلك جاء الإطناب في المثل الثالث في جملة واحدة حيث الأصل هو الجملة الأولى (الأمور تشابه مقبلة ولا يعرفها إلا ذو الرأي) ، ثم تضاف الجملة الثانية (فإذا أدبرت عرفها

(238) - محمد بن علي بن محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، ص140.

(239) -ابن الأثير ، المثل السائر، 2/119.

الجاهل كما يعرفها العاقل) ، ويظهر في هذه الجملة المضافة ما أشير إليه في كتاب (الإشارات والتنبيهات) بالتقسيم، وهو أن يزداد في كلام زيادة ، لا لإزالة غير المقصود، بل لفائدة أخرى⁽²⁴⁰⁾، لأن المثل في جملته الأولى واضحا (الأمور تشابه مقبلة ولا يعرفها إلا ذو الرأي) ، أي أن الأمور لا يظهر حسنها من قبيحها عند إقبالها ولا يدرك حقيقتها إلا ذو الرأي ، أي الرجل الخبير العارف، فإذا أدبرت أي إذا ولت تساوى في معرفتها العاقل والجاهل لأنها عرفت ولم تعد مجهولة، وربما كانت هذه الجملة المضافة لزيادة الفهم فحسب ليس لأمر آخر ما ورد في المثليين السابقين.

أيضا في المثل الرابع وردت جملة (تكون في الرجل) زيادة على معنى المثل، إذ كان معناه يكتمل لو قال صاحبه: (ليس خلة من خلال الخير هي أخرى أن تكون جامعة لأنواع الخير كلها فيه من حفظ اللسان) ، ووقوع الإطناب في هذه الجملة (تكون في الرجل) زيادة وضعت لفائدة أخرى غير معنى المثل، وهو ما ذكرناه في المثل السابق بمعنى التتميم، إذ لا ضير من حذفها.

في حين أن الإطناب في المثل الخامس ورد في أكثر من جملة، إذ الحديث يعطي معناه بقول النبي ﷺ: "ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن"، فإن أردنا الاستزادة أضفنا قوله ﷺ: "حَسْبُ الرَّجُلِ مِنْ مَطَامِعِهِ مَا أَقَامَ صُنْبُهُ"، أما ما جاء بعد ذلك "فإن أبا فثلت طعام وتلت شراب وتلت نفس"، فهو إطناب في الحديث يراد به -على ما هو عند علماء البلاغة- التكميل، ويسمى أيضا الاحتراس وهو أن يكون الكلام محتملا خلاف المقصود منه ، فيؤتى بكلام آخر مزيل لاحتمال غير المقصود⁽²⁴¹⁾، إذ من الممكن أن يفهم من (إقامة الصلب) الشبع لكن النبي ﷺ يضيف هذه الزيادة "فإن أبا فثلت طعام وتلت شراب وتلت نفس"، لتوضيح ما قصد في الجزء الأول ولتوجيه ذهن المؤمن الوجهة الصحيحة ، ومنعه من احتمال قد يجره إلى الخطأ في فهم الحديث.

والإطناب -فضلا على ذلك - وقع في أكثر من جملة ، وهو هنا ليس كغيره من الإطناب في سائر الكلام ، إذا الغرض منه التفصيل لأوامر ديننا الحنيف يريد منها ﷺ هداية المسلمين إلى سواء السبيل.

(240) - محمد بن علي بن محمد الجرجاني ، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، ص145.

(241) - نفسه، ص143.

أما في المثل السادس ، فقد جاء الإطناب في جملة واحدة (الحي من اللي)، ويضرب المثل في الاستجهاال ونفي العلم عن المرء، ويظهر أن الجملة الثانية (الحي من اللي) توكيد للجملة الأولى، لأن المثل ورد كثيرا بشطره الأول، ولكنها أي الجملة الثانية أضيفت لتوكيد المعنى الأول فحسب لأن الحو والحي بمعنى واحد هو الحق ، واللي واللو هو الباطل ،وقيل فلان لا يعرف الحو من اللو أي لا يعرف الكلام البين من الكلام البين من الكلام الخفي⁽²⁴²⁾، وبذلك فالإطناب في هذا المثل جاء لأجل توكيد المعنى الوارد في الجملة الأولى.

في حين أن المثل السابع، جاءت جملته الأولى (الرجال ثلاثة) (حكم عام) مبهم يحتاج إلى تفسير ، فالجزء الأول دال على أن الرجال ثلاثة أصناف، لكن يأتي عدد من الجمل بعد ذلك على سبيل الإطناب المتعدد الجمل ليوضح ويفسر أقسام هذا التصنيف ، فالرجل من الصنف الأول ذو عقل ورأي ، أي له عقل يحكم من خلاله ورأي يفصل به، أما الرجل من الصنف الثاني ، فإنه إذا تعرض لموقف ما ولم يكن بإمكانه أن يحكم فيه لقلّة الخبرة والمعرفة، جاء لمن له الرأي فاستشاره وأخذ بمشورته ، في حين أن الرجل من الصنف الثالث لا هو بصاحب العقل والرأي ولا ممن يستشيرون غيرهم ويأخذون برأيهم، فهو حائر في حكمه، بائر في رأيه إلا ياتمر رشداً، والإطناب بذلك إطناب من نوع التفسير مع الإبهام، فجاءت جملته الأولى (الرجال ثلاثة) مبهمة تحتاج إلى تفسير ، فألحقت بهذا التفسير الذي وقع في عدد من الجمل، وهو -كما قال ابن الأثير- أبلغ من غيره الذي يقع في جملة واحدة لاتساع مجاله.

وفي الأخير جاء المثل الثامن في مضرب إصلاح المال والمثابرة على جمعه ، فقيل (التمرة إلى التمرة تمر) ، ورغم صغر التمرة وقلة قيمتها مقارنة بغيرها من المال إلا أن جمعها مع أختها من الممكن أن يجعل منها نسبيا في جمع المال واكتسابه ، وقيل التمر ولم يقل غيره لأنه كان مما يتداول في تلك الفترة بين العرب ، ثم جاءت الجملة الثانية (الذود مع الذود إبل) توكيد للأولى لأنها في مثل معناها ، وأخذت مثلا منفصلا عن الأول في الدلالة على المثل ما يدل عليه، أي في إصلاح المال والمثابرة على جمعه ، والذود هو ما جاوز الخمسة وقيل السبعة وقيل العشرة ، وتجارة الإبل كذلك عرفت آنذاك حين نشوء الأمثال عند العرب فتمثل

(242) - ابن منظور ، لسان العرب مادة (لوي) ، مج15، ص267 .

بها، وجاء الإطناب كما أشرنا في جملة واحدة في تصنيف ابن الأثير ، وهي على سبيل التوكيد في تصنيف غيره وهو ما سمي بالتذييل في كتاب (الإشارات والتبهيئات). ونخلص إلى أن هذه الأمثال المستشهد بها لوجود الإطناب قد تنوعت من حيث هي إطناب جملة واحدة تارة ، وإطناب جمل متعددة تارة أخرى ، كما اختلفت في دلالاته على التفسير مع الإبهام مرة وعلى التذييل أو التكميل أو التتميم مرات أخرى ، وبذلك نكون قد وسعنا إطار التمثيل وحققنا التوسع في تنوع دلالاتها .

8- خلاصة عامة للفصل:

مثما سبق فقد تناولنا في هذا الفصل جانب المعاني ودراسة الأساليب في الأمثال العربية ، وبداية لاحظنا أن الأسلوب الغالب على الأمثال هو الأسلوب الخبري ، ذلك أنها عبارة عن أخبار لحوادث جرت قبل فترة زمنية معينة نقلت إلينا في شكل أقوال موجزة

تحمل خلاصة هذه الحوادث للعبارة والاعتبار لها، لكن هذا لا يعني نفي وجود الأسلوب الإنشائي في الأمثال ، إنما وجوده قليل مقارنة بالخبري ويقتصر في جله على الاستفهام الاستنكاري لأجل التهكم والاستهزاء والنهي لأجل التنبيه وإسداء النصح، وربما للتوبيخ أيضا ، كما لا نغفل وجود النداء والأمر غير الحقيقي.

أما جانب الإسناد فقد لاحظنا أن الأمثال المستشهد بها فيها الكثير من الحذف والتقديم والتأخير، إضافة إلى التكرير والتعريف وهي أحوال وردت في أكثر الأمثال، والأمثال كما هو معروف بنى تركيبية ثابتة جاءت على صورة معينة، وضربت في مواقف مشابهة لحادثتها الأصلية، فلا يمكن تغييرها ، لأن العرب تناقلوها بصورتها تلك «واعتبروها بنيات ثابتة، بل أن التغيير في بنيتها التركيبية يسقط عنها اسم المثل ويجعلها جملا عادية»⁽²⁴³⁾، وربما أضفت هذه البنية التركيبية المتميزة للمثل وجها بلاغيا معنا ، فالحذف مثلا يحقق الإيجاز في عبارة المثل ، بينما التقديم والتأخير يحقق التميز للمتقدم والاهتمام به.

أما القصر فيعطي تخصيصا لأمره دون آخر ، ذلك أن حوادث الأمثال تخص أشخاص أو أماكن أو صفات يحاول صاحب المثل حصرها وقصرها على وجه معين، كما لعبت ثنائية الفصل والوصل دورا في عبارة المثل، فالوصل يكون دائما في الأمثال التي تحوي أكثر من شطر في عبارتها لأن حرف العطف الواو هو الممثل الوحيد لصورته في عبارة المثل ، أما الفصل فيقع دائما بين جملتي المثل إذا ما كان بينهما اتحاد تام في جانب المعنى.

كذلك كان الإيجاز والإطناب والمساواة خصائص بلاغية أسلوبية حاضرة في بنية المثل واحتل الإيجاز الرتبة الأولى من بينها ، فهو الميزة الخاصة والأكثر ورودا في المثل لأنه في أصله قولاً مقتضبا موجزا، أيضا ورد الإطناب بنوعيه في عبارة المثل في الجملة والجمال المتعددة ، وكان أكثر ظهوره في الأحاديث النبوية لاحتياجها للتفصيل والتوضيح ، وهو مع ذلك حقق أغراضا بلاغية متعددة منها الإبهام مع التفسير ، التذييل والاكتمال والتنميط وغيرها ، ثم كانت المساواة في المثل في رتبة ثالثة حيث تساوي اللفظ مع المعنى في عدد من الأمثال.

(243) - عبد الإله سليم، بنيات المشابهة في اللغة العربية- مقارنة معرفية- ، ص 44،45.

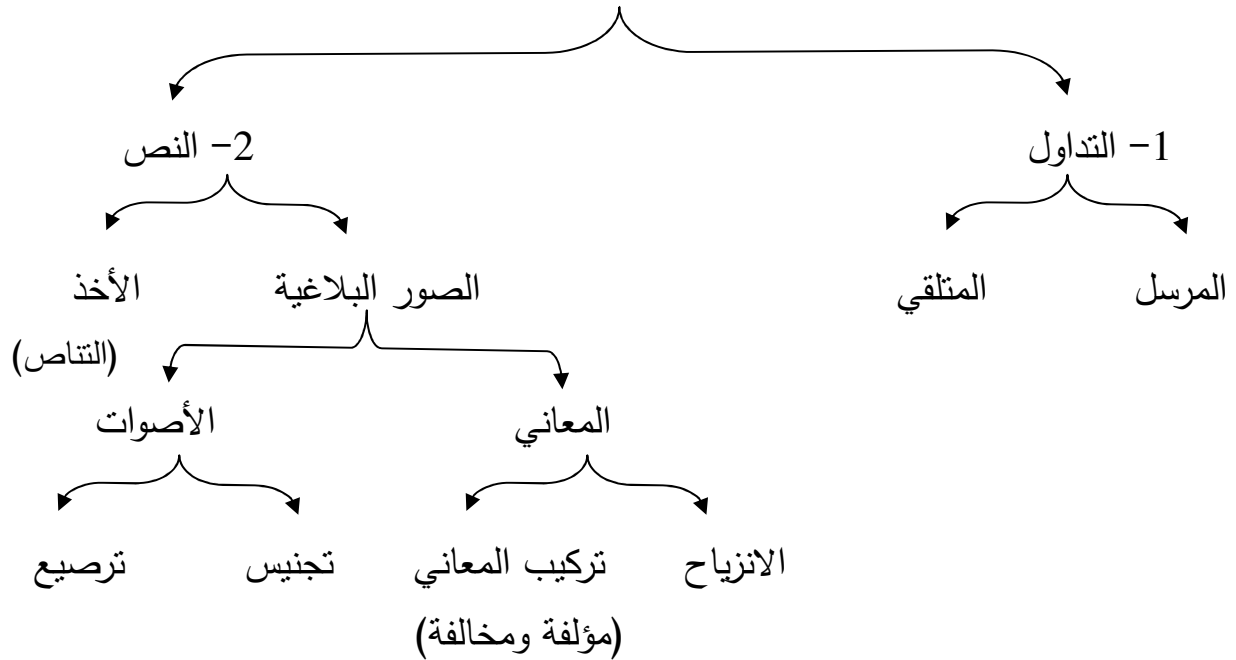
هذا وقد حاولنا أن نمثل لعدد من الظواهر الأسلوبية والمعنوية التي احتوتها الأمثال مع التوضيح والشرح لما تضمنه من أغراض في سبيل ذلك.

تعقيب - أثر الجانب البلاغي في تداول الأمثال:

إننا في هذا الجزء من البحث نحاول ربط النص (المثل) مع مجموع مميزاته البلاغية بتداوله وشيوعه بين الناس، وهو نفسه ما أوضحه العمري في ترسيمه وضعها كخلاصة عامة

لتصور العسكري للبلاغة في كتابه الصناعتين، والشكل التالي يظهر هذا التصور الذي وضعه العمري⁽²⁴⁴⁾.

مكونات البلاغة العامة



ونلاحظ أن العمري هنا قد قسم النص في نظر البلاغيين إلى نصين نص فعلي ونص متداول، فالنص الفعلي هو مجموع الصور البلاغية بنوعها المعاني والأصوات وتتناقص هذا النص مع نصوص أخرى، أو ربما مرجعية صاحبه في كتابة نصه، أما النص المتداول فهو صدى هذا النص عند غيره وغرض صاحبه من إرساله، أو يمكننا القول ان البلاغة تتعامل مع النص بعدة خطابا، والأخذ في الاعتبار أن الخطاب هو مجموع النص مع ظروف إنجازه والمقصود بها المرسل والمتلقي والظروف المحيطة بإنتاج النص، وذلك ما نحاول استثماره في تداول المثل العربي وشيوعه بين الناس .

إن المثل كما سبق أن اشرنا في المدخل مر في سبيل وصوله إلينا بمرحلتين ساهمت كل منهما في تداوله بين الناس وذيوعه، فالمرحلة الأولى هي مرحلة المشافهة وتستمر من بداية نشوء الأمثال- ولم يجري تحديد تاريخها- إلى بداية تدوين هذه الأمثال وجمعها، ثم تأتي مرحلة أخرى هي مرحلة الكتابة أو التدوين وهي مرحلة انتقال الأمثال وتناقلها بين الأجيال

(244) - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص292.

عن طريق المؤلفات الكثيرة التي جمعتها وشرحتها من مثل المجمع والمستقصى وكتاب الأمثال وأمثال العرب وغيرها.

ولذلك كله ارتأينا أن نقسم هذا الجزء من البحث إلى قسمين، القسم الأول هو أثر الجانب البلاغي في تداول الأمثال مشافهة أي قبل تدوينها والقسم الثاني هو أثر الجانب البلاغي في تداول الأمثال كتابة أي بعد تدوينها.

القسم الأول: أثر الجانب البلاغي في تداول الأمثال مشافهة (قبل تدوينها):

مما لا شك فيه أن سائر فنون الكلام نشأت أول ما نشأت مشافهة ، فالشعر بدأ مشافهة وتناقله الناس وأعجبوا بموسيقاه وحكموا عليه من خلالها ، فتأثرهم كان يبدأ بطريقتهم

لإنشاد الشعر وسماعه، كذلك كان حال الخطابة ومختلف الفنون الأدبية، والمثل واحد من هذه الفنون .

وذكر أن البلاغة العربية- وهي ما ارتبط بنقد الأدب- تؤسس أول ما تؤسس لبلاغة الاتصال الأدبي الشفهي، ويأتي في مقدمة هذا التأسيس معالجة الصوت [...] ومردود ذلك إرسالاً واستقبالا⁽²⁴⁵⁾.

ونحن في موضوع البلاغة ومع فن المثل، ولأن الصوت كما ورد في القول السابق- وكما أشارنا في الشعر وموسيقاه- هو الذي يجب التركيز عليه في الجانب الشفاهي، فإننا سوف نتناول الجانب الصوتي وتأثيره في تداول الأمثال لأن المشافهة بالدرجة الأولى تعني إرسال الصوت واستقباله، أي هي عملية تجري بين اثنين أحدهما مرسل والآخر مستقبل من أجل تحقيق غرض هو إيصال الرسالة والتي هي المثل.

إن حاسة السمع وآداتها الأذن هي أول ما تدرك الصوت عند إطلاقه ، ولأن الأمثال العربية كانت تطلق مشافهة ، فهي عبارة عن تتالي لمجموعة من الأصوات بسمعها العربي ، ويعرف بعد سماعه إياها معناها الذي يريد صاحبها إيصاله من خلال إطلاقه لها .

ولأن العربي في ذلك الوقت يعايش الظروف التي نشأ فيها المثل ، فهو بالضرورة يسهل عليه فهم معناه ومعرفة قصته الأصلية، بالتالي استعماله في كل موقف شابه ذلك الموقف أو قاربه، وبفعل أن عدد من الناس قد يسمعون هذا المثل في كل مرة يطلق فيها ، فهو سوف يشيع ويعرف ويتداول لكن هذا التداول - بالطبع- لن يتحقق هكذا إنما هو نتاج عوامل متعددة تساهم فيه.

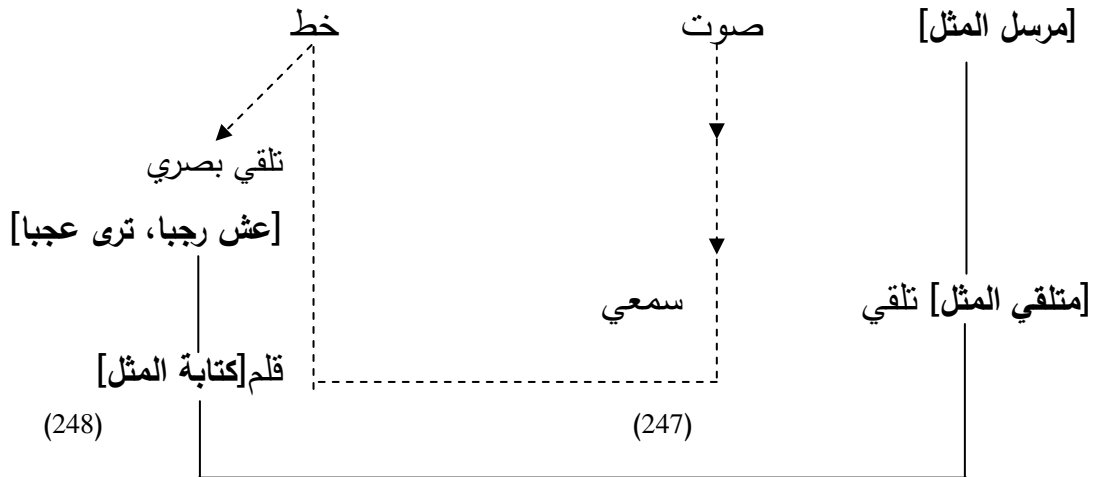
إن المثل بطبيعة الحال يحمل مضمونا قيمت- في الغالب- يدل على قصته الأصلية، ويقصد به إعطاء العبرة والاعتبار للموقف، لكن هذا الإدراك للمعنى الذي يحتويه المثل لا يتحقق إلا بعد سماع المثل ولن يكون هذا المضمون الوحيد الذي يرجع إليه ذبوع المثل وتداوله بين الناس، لأن المثل من جهة أخرى - في مقابل هذا المعنى- يتم بالسلاسة والوضوح .

فضلا على ذلك فالمثل يتسم بجانب صوتي عند إطلاقه ، بتوافق نهاية كلماته خاصة إذا ما تكون المثل من شطرين فيما سمي بلاغيا بالسجع في النثر والتصريح في الشعر، كذلك

(245) - جميل عبد المجيد ، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2000، ص75.

في توافق لفظتين نطقا واختلافهما معنا فيما سمي بالجناس، وقد أدرك العرب هذه الصور البلاغية قبل تدوين البلاغة بفضل ما كانوا يتميزون به من سمع ذواق يطرب للجميل من الألفاظ ويحس نغمه.

والعربي سواء كان مطلقا للمثل أو متلقيا له كفيل بهذا الجانب البلاغي الجميل، فقول العرب مثلا: عيش رجبا، ترى عجبا⁽²⁴⁶⁾، يحمل موسيقى صادرة عن تناغم مصاحب لنطقه بفضل توافق نهايتي شطري المثل المفصولين بالفاصلة (عش رجبا، ترى عجبا) ، ثم بعد تجويل هذا التتالي الصوتي إلى كتابة نجد أن (رجبا وعجبا) يشكلان جناس ناقص لتوافقهما في أكثر عدد الحروف المكونة لكلا من الكلمتين، وهذا التحويل من الصوتي إلى الحرفي ، ومن السماع إلى البصر، ومن المشافهة إلى الكتابة ، ذكره صاحب البلاغة والاتصال في ترسيمة نوردها فيما يأتي:



فالكلمة المنطوقة لها- حتما- أداء صوتي ، من علو وانخفاض ونبر وتنغيم وغير ذلك، وحين تكتب هذه الكلمة فإنها تفقد هذا الأداء ، الذي قد يحاول الكاتب تعويضه أو الدلالة عليه...⁽²⁴⁹⁾، وهذا ما يدل عليه صوت النهايتين (...رجبا...عجبا) ، وما يظهر في كتابة (عجبا- رجبا) من حيث نوع الحروف وترتيبها ، واختلاف معنى الكلمتين أي الجناس الناقص ، وهذا ما بحثناه في باب البديع وتوظيفه في المثل، كما تناولنا فيه كذلك المحسنات

(246) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص464.

(247) - جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص66.

(248) - [...] كل ما ورد بين المعقوفتين في الترسيمة هو من إضافة الباحث.

(249) - جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص67.

الصوتية ، لأن الأمثال من الكلام الذي تكثر فيه الأسجاع ، وربما كان ذلك راجعا لما عرف عن العرب من قول الأسجاع قديما أو ما عرف بسجع الكهان، فطبعوا به أمثالهم وتذوقوا من خلاله أمثال غيرهم.

وفضلا على الجانب الصوتي ، ودوره في شيوع الأمثال وتداولها نضيف عنصرا آخر أو صفة أخرى للأمثال وتظهر في المشافهة كما تظهر في الكتابة بإمكاننا تصنيفها أو ضمها للجانب الصوتي أيضا حين تقسيم المثل - في غالب الأحيان- إلى شطرين يساوي الواحد منها الآخر من حيث عدد الألفاظ وترتيبها ومقابلتها لبعضها البعض من حيث توافق الحروف وتآلفها ، فقول العرب مثلا(أول العي الاختلاط وأساء القول الإفراط) يتساوى شطريه في عدد الألفاظ ونوعها وحركتها (أول/ أسوء/||0|)، (العي/القول/|0|0|)، (الافراط/ الاختلاط/|0|0|0|) ، هذا ما ولد ما يشبه الوزن الشعري في المثل، مما سهل تداوله وحفظه وشيوعه بين العرب الذين ألفوا قافية الشعر ووزنه ، والنظم في مختلف بحوره.

إلى جانب ذلك- مما يخص العوامل البلاغية التي تظهر ليس بالضرورة أنه يتعلق بجانب المشافهة- نجد عاملا ثالثا أدى إلى تداول المثل وشيوعه ، ليس بالضرورة يتعلق بجانب المشافهة، وهو يخص الظروف التي نشأت فيها الأمثال وانتشرت ضمنها ، ولأن العرب هم من أنتجوا الأمثال وتداولوها ، فهي خير معبر عن شتى أمور حياتهم ، ثم هي إحدى فنونهم - إلى جانب الشعر - التي صورت واقعهم ، فهي ترتبط أشد الارتباط بحياتهم ، فكل لفظ من ألفاظها يعني جزء أو عنصرا من عناصر حياتهم الاجتماعية ، تتصل اتصالا مباشرا بواقع معيشتهم ، فكل مثل هو موقف لفرد من أفراد هذا المجتمع العربي إزاء حادث حياتي تعرض له في يوم من الأيام ، فتداوله غيره وشاع بين الناس ، وضربوه في مختلف المواقف.

إن التداول في مفهومه الواسع يعني الشيوخ والذيوخ ويرتبط أكثر ما يرتبط بالاستعمال الفعلي للشيء، فتداول المثل يعني دورانه والنطق به والتمثل بعباراته واستحضاره، وإذا عدنا إلى فترة المشافهة أمكننا- فيما أحسب- إحصاء ثلاثة أصناف لهذا التداول⁽²⁵⁰⁾ بحسب مجالات هذا التداول (الحياة اليومية ، الشعر، الخطابة).

(250)- لفظة التداول هنا قد حددنا معناها واستعمالها في هذا الموضوع مربوط بهذا التحديد.

مظاهر تداول الأمثال مشافهة:

*الحياة اليومية:

إن تداول الأمثال في الحياة اليومية أمر ليس بالغريب ولا الغامض ، لأن الأمثال تتبثق من صميم الحياة الاجتماعية، وتستثمر - إن صح التعبير - فيها، فالأمثال في جملتها كما ذكرنا ترتبط بمواقف تتصل بالواقع الاجتماعي وتعبّر عن كلام مأثور تتناقله الألسنة⁽²⁵¹⁾، ثم تستحضر في مواقف مشابهة لحوادثها الأصلية، وليس من الضروري أن يذكر قائلها ، بل إن مضمونها أو معناها يعطي جواز لإعادة إيرادها في تلك المواقف الجديدة بفعل أن هذه المواقف تستعيد لها لمشابهتها لحوادثها الأصلية أو أن معنا من معانيها ورد في عبارة المثل ذاك، فقول الرسول ﷺ: "مَنْ صَدَقَ اللَّهُ نَجَا"⁽²⁵²⁾، يعني النصيحة بالصدق مع الله سبحانه، كما تعني التأكيد على أن الله سبحانه ينجي من يحسن الظن به، ويصدقه في كل شيء وفيه معنى قوله تعالى: [وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ ١٤١] فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ١٤٢] (النازعات/41،40)، واستعمل هذا الحديث فيما بعد في الدلالة على معاني مشابهة لمضمونه أو تقترب منه.

هذا فضلا على الأمثال التي ترتبط بجانب التعاملات بين الناس ، فقولهم مثلا(مَنْ غَابَ غَابَ وَأَكَلُ نَصِيْبُهُ الْأَصْحَابُ)⁽²⁵³⁾ ، كذلك (مَنْ غَابَ غَابَ حَظُّهُ)⁽²⁵⁴⁾، موجود وظاهر في تعامل الناس وحياتهم ، كما يرد حتى في أمثالهم العامية من مثل قولهم(الْحَاضِرُ اعْطَوْهُ وَالرَّاقِدُ عَطْوُهُ وَالْغَائِبُ انْسُوهُ) ، ذلك أن الغائب وقت القسمة ينسى ويغيب حظه منها أي أنه لا يؤخذ بعين الاعتبار عند القسمة أو أن حظه ونصيبه يقسم بين الحاضرين.

*الشعر:

والمقصود بهذا العنصر هنا تضمين الأمثال في الشعر وهو صورة من صور التداول للأمثال لكن لدى فئة أخرى من المجتمع العربي ألا وهم الشعراء- في حين كانت الفئة الأولى هي فئة المجتمع البسيط- وورد بشأن ذلك نص مفاده أن تضمين الشعر للأمثال مشهور حتى أنهم جعلوه من الأساليب البلاغية (التذييل) ، وهو أن يلحق الشاعر بكلامه مثلا- أو كالمثل

(251) - محمود السيد حسن ، التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم، ص58.

(252) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص28- معجم الأمثال العربية ، 2440/3، 2441.

(253) - نفسه، ص452.

(254) - نفسه، ص451.

- يؤكد وبوضحه⁽²⁵⁵⁾، بل إن الشعراء عقدوا شعرهم أحيانا على أمثال ، يذكرون قصصها في شعرهم ، ثم يختمونها بالمثل نفسه⁽²⁵⁶⁾، وكذلك ورد عدد من الأمثال في مدونة البحث والتي نمثل منها بمجموعة من الأمثال فيما يأتي: (أَيُّ الرِّجَالِ المُهذَّبِ)⁽²⁵⁷⁾، ويضرب للرجل يعرف بالإصابة والصدق تكون منه الزلة، ويذكر أبو عبيد البكري، أن هذا المثل ورد في شعر للنابغة الذبياني وذلك في قوله:

وَلَسْتُ بِمُسْتَبَقٍ أَخَالًا تَلْمُهُ *** عَلَى شَعَثٍ ، أَيُّ الرِّجَالِ المُهذَّبِ؟⁽²⁵⁸⁾

كذلك ورد قول العرب (لَعَلَّ لَهُ عُذْرٌ وَأَنْتَ تَلُومُ)⁽²⁵⁹⁾

في صدر بيت شعر لمنصور النمري:

لَعَلَّ لَهُ عُذْرٌ وَأَنْتَ تَلُومُ *** وَكَمْ مِنْ مَلُومٍ وَهُوَ غَيْرُ مُلِيمٍ⁽²⁶⁰⁾

وقد ورد في موضع آخر على أنه عجز بيت شعري آخر:

تَأَنَّ وَلَا تَعْجَلْ بِلُومِكَ صَاحِبًا *** لَعَلَّ لَهُ عُذْرٌ وَأَنْتَ تَلُومُ

كما جاء قول النبي ﷺ: "أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا"، في بيت شعري لأحد العرب ويدعى جندب:

يَا أَيُّهَا المَرءُ الكَرِيمُ المَعْلُومُ *** انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا⁽²⁶¹⁾

ويظهر أن هذا المثل إنما يضرب للمرء يسترحم لذي رحمه أي يطلب منه رحمة من له قرابة معه.

أيضا قول العرب في مثلها السائر (أعطي القوس باريها)، وقيل (بارئها) بالهمز، في

بيت شعر:

يَا بَارِي القَوْسِ بَرِيًّا لَيْسَ يُحْسِنُهُ *** لَا تَظْلِمِ القَوْسَ أَعْطِ القَوْسَ بَارِيهَا⁽²⁶²⁾

وتضمن شعر مجنون ليلي مثلا شعريا هو قول العرب في النهي عن الطمع (تقطع

أعناق الرجال المطامع) في قوله:

(255) - والتذييل أيضا يرد في النثر كما يرد في الشعر وتناولنا منه في أوجه الإطناب.

(256) - محمد جمال صفر، الأمثال العربية القديمة - دراسة نحوية-، ص196.

(257) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص44.

(258) - نفسه، ص44، وهذا البيت للنابغة الذبياني (طويل) ، كما ورد بيت آخر للبحثري(خلانق لو يلقى زياد مثالها إن لم يقل أي

الرجال المهذب) (طويل).

(259) - نفسه، ص73.

(260) - نفسه، ص73.

(261) - نفسه، ص216.

(262) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص298.

طَمَعْتُ بِلَيْلَى أَنْ تَرِيَعَ وَأَيْمًا *** تُقَطِّعُ أَعْنَاقَ الرَّجَالِ الْمَطَامِعِ (263)

وهذه بعض النماذج التي وردت في المدونة، ولعلّ تعليلنا لاستعمال المثل في الشعر يتحدد بغرضين اثنين، أولاً الجانب الشكلي لأن تضمين المثل في الشعر يعطيه جمالا ونغما موسيقيا من حيث هو يشبه الحلي التي تتحلى بها المرأة لتظهر جمالها، فليس الحلي هي كل جمال المرأة، إنما هي جزء منه ويزيد بوجودها كذلك المثل ليس هو كل ما في الشعر ولكنه يجمله، أيضا لأن المثل يتقارب مع الشعر في عدد من الخصائص منها (النغم الموسيقي، الوزن، تحمل الضرورة، وأنه يستجاز فيه ما لا يستجاز في غيره كما هو حال الشعر)، فضلا على ذلك يأتي في المرحلة الثانية جانب المعنى إذ يضيف المثل على معنى الشعر طابعا مميزا لا يأتي إلا وجوده فيه.

كما أن الشعراء -إضافة لذلك- ضمنوا أشعارهم عددا من الأمثال لما تحتويه الأمثال من معاني عليا، ولأن العرب أحبوا الشعر وولعوا به كان توظيفهم لهذه الأمثال في شعرهم مما يشيرون به إلى حفظهم لهذه الأمثال واهتمامهم بتداولها، وليس أحب إليهم من الشعر لذلك ضمنوه إياها، لأنهم بذلك يعلنون مكانتها لديهم، ويلمحون إلى قيمتها بينهم، لما تكتسبه من علو مرتبة في نفوسهم لارتباطها الشديد بحياتهم.

فالأمثال كالشعر صورة صادقة عن واقعهم وطرائق معيشتهم، كما أن كثيرا من ألفاظها لا تعني شيئا إلا ضمن ما عرفوه وتداولوه بينهم، ودليل ذلك أن بعض المفردات التي تحتويها هذه الأمثال لها دلالة واضحة في حياتهم، كقوله مثلا (جدح جوين من سويق غيره) (264)، فجدح الرجل السويق، إذا دافه بماء أو لبن أو غيرهما ثم حركه بالمجدح وهي الخشبية التي يعرض رأسها، والشراب المخوض مجدوح، والمجدوح أيضا شيء كان يتخذ في الجاهلية في الحروب، وهو أن يعتمد إلى الناقة فتقصد ويخط دمها بما قدروا عليه من دقيق أو سويق أو غير ذلك فيأكلونه (265)، ولو لم يشرح هذا المثل لفظة لفظة أما فهم معناه في غير عصره.

*الخطابة:

(263) - نفسه، ص408. وأورد البكري البيت للبعيث، ولكنه ورد أيضا في شعر مجنون ليلى وشعر قيس بن ذريح (طويل).

(264) - نفسه، ص406.

(265) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص407.

إن الخطابة فن نثري احتل مكانة عند العرب، لا تختلف عن مكانة الشعر رغم أنها كانت دونه في بداية عهدها إلا أنها شيئاً فشيئاً أخذت مكانتها لديهم وتعززت هذه المكانة بمجيء الإسلام، وقد كان الخطباء قبل وبعد الإسلام يحلون بها بعدد من الحلي من مثل الأشعار المختلفة والحكم والأمثال.

وزاد عليها الإسلام توظيف آخر هو استعمال الأحاديث النبوية والآيات القرآنية ، وكان الغرض من كل ذلك تجميل شكل الخطب بما تحلى به من الأمثال والحكم، وكذلك الشعر والأحاديث النبوية والآيات القرآنية من جهة ، ومن جهة أخرى تدعيم معنى الخطبة وتوكيده ، ثم جلب نظر السامعين من الجمهور لما في الشعر والأمثال والحكم من موسيقى وإيجاز معنى.

فضلا على أن العرب كانوا يفهمون التلميح ويقدمونه عن التصريح وجاء المثل كذلك إذ كان كناية دون تصريح ، إلى جانب اهتمام العرب بالأمثال وتداولها وجمعها لعدد من موضوعات العصر الذي نشأت فيه فمنها ما كان للعرب ومنها لعادات العرب من الكرم والجود والمروءة، كذلك مما كرهوه من الصفات كالبخل والجبن والخيانة.

كما أنها أي الأمثال بعد مجيء الإسلام تضمنت الكثير من أحاديث النبي ﷺ ومعاني بعض آيات القرآن الكريم ، وكل هذا كانت الخطابة تحتاج إليه، وتوظف معانيه لما مسته من ميادين الحياة العربية القديمة في حالات الحرب والسلم وحالات الجاهلية والإسلام . واعتبر كل ذلك تداول للأمثال لأن الخطابة بدورها كانت تلقى شفاهة أمام جمهور المستمعين في شتى الأغراض والمواضيع، فكانت خطابة حرب وسلم، خطابة صلح ، خطابة حماس، خطابة دينية، وفي كل ذلك احتاجت إلى تداول الأمثال التي طالما عبرت عن معرفة الحياة وإدراكها بكل جوانبها.

ومثلما نقول عن الخطابة نقول عن الحياة اليومية ومن الشعر، لأن كل من هذه الثلاثة كانت مشافهة، واستعمال المثل فيها هو من قبيل تداوله مشافهة، كلما عرض الموقف له واستحضرت الحوادث بكل ما تحويه من معنى وشكل، لأن المثل كما يقال تكامل بين الشكل والمعنى ، وهو أي المثل بنية لغوية متميزة من كل النواحي، ثم هو معنى لكل ما يختصر قصته في عبارة موجزة ، كما أنه سهل الإدراك غير غامض.

والمثل يختلف عن الأسلوب الشعري والقصصي، ومن ثم فهو يدور في نطاق محدود

يسهل من خلاله ابتكاره وتداوله من غير استغراق في كنهه أو إعمال الذهن لأجل الوقف على مغزاه⁽²⁶⁶⁾، فهو في الغالب سهل المفردات ، واضح العبارة، لا يشكل فهمه لتحديد مجاله بأمور الحياة اليومية التي يعيشها العربي ويدركها بكل شؤونها خاصة إذا ما تعلق أمر تداوله بالعرب القدامى في فترة المشافهة .

فهم يدركون معانيه تمام الإدراك ، لكن التداول لا يتعلق بهذا الإدراك فحسب، بل يتعلق بكل ما أشرنا إليه من أسباب ، وفوق كل ذلك اتصال المثل بحياة العربي ،فضلا على فطرة العربي اللغوية وذوقه الخاص الذي يضمن له إدراك هذه الأمثال معنا ومبنا.

القسم الثاني: أثر الجانب البلاغي في تداول الأمثال كتابة (بعد تدوينها)

إن تدوين الأمثال وجمعها كان أمرا لا بد منه لحفظها من الضياع، وضمن تناقلها بين الناس في مختلف العصور والأماكن، مثلما جرى تدوين الشعر كان تدوين الأمثال، فجاء جمعها بداية في عدد من الصفحات القليلة، ثم جمعت هذه الصفحات وصارت أكثر، وشيئا فشيئا أصبحت مدونات الأمثال من أكبر الكتب التي تؤلف، واحتوت الآلاف من الأمثال، ثم كان شرحها، ومن بين هذه الشروح مدونة بحثنا (فصل المقال في شرح كتاب الأمثال).

⁽²⁶⁶⁾ - محمود السيد حسن، التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم، ص556.

ووصلت الأمثال إلى مختلف أصقاع المعمورة بتضمينها دقات الكتب التي أعطتها تنقلا أسرع وبقاء أطول، وكان كل من أراد بإمكانه الإطلاع على هذه الأمثال، وبشرونها المختلفة، وتداولها الناس بذلك، وجرت في حديثهم ، كما تداولوا الشعر.

غير أن هذا التداول لم يوجد هكذا ، إنما كان راجعا لعدد من الأسباب سهّلته ، فالناس مثلا لم يتداولوا القصص والروايات بحرفيتها، وهذا ما يؤدي بنا لإدراك أول أسباب هذا التداول ، وهو الإيجاز ، ذلك أن إيجاز العبارة في المثل هو ما ضمن له الرواج والذيع، إذ يقول العسكري « ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام وتدخل في جل أساليب القول أخرجوها في أقواها من الألفاظ ليخف استعمالها، ويسهل تداولها، فهي من أجلّ الكلام وأنبه وأشرفه وأفضله لقلّة ألفاظها، وكثرة معانيها، ويسير مؤونتها على المتكلم مع كبير غايتها وجسيم عائدتها»⁽²⁶⁷⁾.

وبذلك كان معنى المثل أكثر من عدد المفردات التي تكوّن عبارته ، لذلك أحبّته العرب، وتداولته لما يمكنه أن يتضمن من معاني كثيرة في مقابل عبارة قصيرة ، فقول العرب مثلا (إياكم وخضراء الدمن) ، وهو حديث نبوي سار وجرى مجرى المثل عند العرب، واعتبر من جوامع الكلم التي قال عنها **ع** "أوتيت جوامع الكلم"، وهي الكلمات القليلة بالمعاني الكثيرة، وهو نفسه ما تضمنه هذا المثل ، فهو على قصره -إذ يتكون من ثلاثة مفردات وحرف ربط(و)- ويمكن أن بشرح معناه في كتب ، وربما مجلدات، فهو نصيحة منه **ع** ، يتحدد معها مستقبل كل مسلم ومسلمة يرغبان في بناء بيت سعيد تشرفُ به الأمة وتزكيه دعوات المسلمين وتباركه صلوات الله ، إذ يلفت انتباه كل المسلمين أن الجمال ليس هو الأساس في اختيار المسلم لزوجته وأم أولاده، ويحذر في قوله (إياكم) وهو اسم فعل أمر بمعنى احذروا ، وخضراء الدمن كما قال عنها النبي **ع** في تكملة الحديث: "...قيل : وما خضراء الدمن يا رسول الله، قال: المرأة الجميلة في المنبت السوء"، أي المرأة الجميلة الخلقة في البيئة السيئة ، والمنبت هو المكان الذي تنبت فيه المرأة مثل الشجرة أي مكان تربيتها ومنزل أبيها، فجمالها لا يشفع لها إذا ما كان منبتها الذي تلقت منه رعايتها الأولى سيئا.

(267) - أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تدقيق محمد أبو محمد الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الفكر ، 1988، الطبعة الثانية، 4/1 ، 5.

ويدعمه قول آخر للنبي **ع** "اختاروا لأبنائكم الأخوال فإن العرق دساس"، وقال **ع** الأخوال ولم يقل الأعمام، لأن الخال أخ المرأة، والإسلام يعطي للمرأة كبير القيمة وأعلى المكانة، فهي صلاح المجتمع وفلاحه، فإذا صلحت صلح وإذا فسدت فسد، ولذلك يقول شوقي:

الأمُ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعَدَّتْهَا *** أَعَدَّتْ شَعْبًا طَيِّبَ الْأَعْرَاقِ

ومثلما قلنا عن هذا المثل (إياكم وخضراء الدمن) يمكننا أن نقول عن غيره من الأمثال مما قصرت عبارتها وزاد معناها واتسع، لذلك تداولها العرب، وجرت في كلامهم وكثرت في محاوراتهم ومحادثاتهم.

ثاني سبب كان من اجله التداول هو احتواء المثل على الصور البيانية من مثل (الاستعارة، والتشبيه والكناية والمجاز)، والصور البديعية المعنوية الدلالية من مثل (الاقْتَبَاسِ، الطباق والمقابلة وغيرها)، لما تضيفه هذه الصور على معنى المثل من طبع وطبيعة خاصين لا يكونان في غيره، فالتشبيه والاستعارة مثلا لهما كبير الدور في إيضاح المعنى وإجلائه، فقول العرب (إنما هو كبرق الخلب)⁽²⁶⁸⁾، الذي يضرب للمخلف الموعد والكاذب في حديثه يشبهه ببرق الخلب وهو البرق الكاذب الذي لا مطر له، فهذا المثل يعطي في عبارته وجها بلاغيا جميلا هو أفضل من قولنا (إنما هو كاذب).

كذلك الاستعارة في قولهم (إياك أن يضرب لسانك عنقك)⁽²⁶⁹⁾، حيث يستعير لفظة الضرب لتشبيه اللسان بالسكين، لكن دون ذكر المشبه به والاكتفاء بالمشبه على سبيل الاستعارة المكنية، ويتضح من خلال هذه الاستعارة للفظة الضرب قيمة حفظ اللسان ومدى ضرره إذا أطلق له العنان، إذ يتحول إلى سكين يقطع عنق صاحبه بما يمكن أن يصدر عنه، وهكذا تكون البلاغة في صورة الاستعارة إيضاح للمثل وإجلال لمعناه بالتالي تسهيل لتداوله وشيوعه بين الناس.

أيضا يساهم كل من الطباق والمقابلة في هذا التداول بفضل ما لها من ترسيخ لفكرة المثل ومعناه، كما أن تقابل المفردات فيهما يعطي انتقال من الضد إلى الضد مما يصنع جمالا خاصا في عبارة المثل، فقول العرب (الصِدْقُ عِزٌّ وَالْكَذِبُ خُسُوعٌ)⁽²⁷⁰⁾، وأيضا

(268) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص112.

(269) - نفسه، ص23.

(270) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص36.

(الْحَمْدُ مَغْنَمٌ وَالْمَذْمَةُ مَغْرَمٌ) (271) ، يجعل التقابل واضحا بين مفردات المثليين (الصدق والكذب) ، (العز، والخضوع) ، (الحمد والمذمة) ، (المغنم والمغرم).

كما أن المقابلة تصنع ما يشبه التقييم في عبارة المثل إذ يشكل التقابل بين مفرداتها من المثل شطرين يتساوى فيهما عدد المفردات وتتعاكس أو تتقابل في المعاني ، ولأن العرب أصحاب فطرة في تحسس جمال اللغة وإدراك معانيها ، كان منهم أن أحبوا هذه الأمثال لما فيها من أشكال وصور متعددة تترجم غنى هذه اللغة واستغنائها عن غيرها.

وأصحاب الأمثال هم أناس تحكموا في زمام اللغة وأحسنوا لعبتها فأبدعوا في تشكيلها صورا مثلية من المعاني ، وتعرض لما استعصى من الصور والمفردات ، وبذلك كان للعرب أن أحبوا وتداولوها بينهم حتى شاعت واتسع مجالها.

هذا فضلا على أن دلالة المثل على معناه ومضمون قصته ، وأيضا موافقته للموقف الذي يضرب فيه في الكثير من الحالات والظروف جعل هذا التلازم بينه وبين قصته، فإذا ذكر هو استحضرت قصته، وإذا روت قصته كان هو ماثلا في المقابل ، مما جعل الأمثال تتداول بين الناس لملائمتها لموقفها.

والأمثال بذلك تحقق القاعدة التي قامت على أساسها البلاغة العربية ألا وهي (مناسبة المقال للمقام) أو كما يقال (لكل مقام مقال)، كذلك كان حال المثل في غطائه في مختلف المواقف، إذ المثل دليل الفكرة التي يتضمنها ، فكان بذلك يتداول ليعبر عنها.

وقد ورد أن الجاحظ مثل للبلاغة من الخطابة والأمثال والحكم أكثر من غيرها لأن من بين الأغراض التي نشأت البلاغة لأجلها كان الإقناع، والخطابة كانت وسيلة للإقناع قديما في مواقف الحرب والسلم والإصلاح وشؤون الدين، كذلك كان المثل والحكمة وسيلة للإقناع لدى العرب إذ تناقلها العرب ودلت على حياتهم وارتبطت بما عرفوه من عادات وتصرفات ، وصارت تستحضر كلما تناسب الموقف مع مضربها الذي قيلت فيه أول مرة.

والمثل أخيرا مهما كان مشافهة أو كتابة وكيفما اختلفت اسبب ودواعي التداول فيه، سواء كانت صوتية أو غيرها ، فهو أي المثل قد شاع وراج بين العرب وتداولوه لاتصاله بحياتهم وارتباطه بمعيشتهم أولا، ثم لميزات تركيبية خاصة توفرت فيه واتسم بها، أدركها العرب - قبل نشوء البلاغة كعلم- بفضل ذوقهم الفطري المتميز الذي أمكنهم أن يتذوقوها

(271) - نفسه، ص241.

ويضمن لها مثل هذا الرواج والتداول في مختلف نواحي الحياة اليومية والإبداعية، لأنه تم توظيفه في ميدان الكتابة الغنية التي أخذت مكان الخطابة في العصر العباسي.

الفصل الثاني: ألوان البديع في المثل

- 1-توطئة .
- 2-البديع عند علماء البلاغة .
- 3- البديع وارتباطه بموسيقى الشعر عند المحدثين
- 4-توظيف البديع في الأمثال:
 - 1-4- محسنات بديعية صوتية (التناسب الصوتي) .
 - 2-4- محسنات بديعية دلالية (التناسب الدلالي) .
 - 3-4- محسنات بديعية صوتية دلالية (التناسب الصوتي الدلالي)
- 5 - خلاصة عامة للفصل .

1- توطئة :

إن الصناعة اللفظية اقترنت عند العرب بقول الشعر في عصوره الأولى، فعرف عندهم بكونه صناعة، وهذا ما تضمنه قول العمري: « إن القول بالمصدر الإلهامي للشعر لم يبلغ -حتى في المراحل الأولى- الوعي بأن الشعر صناعة ناتجة عن جهد فردي ومعاناة مع اللغة » (1).

أي أن الشاعر يعاني في سبيل إخراج القصيدة إلى الوجود، لذلك نجد العرب الجاهليين يمضون الحول بكامله في كتابة قصائدهم وتتقيحها وإعادة نظمها في كل مرة عن لهم ذلك، فيقدمون البيت ويؤخرون الآخر، أو يحذفون منها ويضيفون كل ما له دور في تحسين القصيدة وتزيين شكلها .

فالإهتمام بتجويد الصياغة اللفظية -إن- كان هم الشعراء القدامى قبل ظهور علم البلاغة على أسسه وأصوله المعروفة، لذلك فقد قيم الشعر على أسس نقدية بلاغية، حيث كانت البلاغة توأم النقد الذي لا يستغني عنه ولا يفارقه، وعبيد الشعر من أمثال زهير والحطيئة كانوا ممن رسخوا الاهتمام بالصنعة اللفظية، ولم يكن الشعر عندهم معنى فحسب، بل صناعة يتسابقون في إتقانها ويتبارون في سبيل ذلك .

كما أشار إليه العمري في كتابه بقوله: « يرى الأردستاني ومن نقل عنهم أن الوعي الشعري كان قد تجاوز حدود الوظيفة الخطابية- وهي قائمة على حسن التشبيه وإصابة الوصف، مع شرف المعنى وجزالة اللفظ وصحة المبنى، مما أعتبر حدا أدنى لقيام الشعر واستوائه، هذا المستوى الذي عبر عنه بعمود الشعر- إلى وظيفة بديعية » (2).

فالعمري يشير إلى أن أصحاب الشعر قد تجاوزوا به مستوى الخطاب، بل وتعدوا به ما عرف بعمود الشعر ليحققوا بواسطته وظيفة بديعية جديدة، بفضل ما يميزه من تجويد يتعمد أصحابه أن يلبسوه إياه قصد إظهار تفوقهم في إنتاجه وافتخارهم بالمستوى الذي وصلوا إليه فيه، وهذا ما أصبح بعد ذلك مثار النقد وإظهار التفرد والتميز، وارتبط بطبيعة الشعر وبموسيقاه حتى لا يكاد يذكر الشعر دونه .

2- البديع عند علماء البلاغة :

(1)- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، إفريقيا الشرق الدار البيضاء ، المغرب، 1999، ص50.

(2)- نفسه ، ص52.

جاء في الإيضاح أن علم البديع « هو علم يعرف به تحسين وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة »⁽³⁾، أي أنه مجموعة قواعد تعرف بها كيفية جعل الكلام حسنا من حيث الشكل والمعنى، لكن هذا مقرون برعاية تطابقه مع مقتضى الحال، وذلك بمناسبة هذا الكلام للحالة التي يرد فيها ونفسية الجمهور الذين يوجه إليهم، مع كونه مفهوما لديهم وواضحا لهم.

وورد في كتاب (في البلاغة العربية) أن ابن خلدون يعرف البديع بقوله: « هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التتميق : إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما، أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك »⁽⁴⁾.

يشير ابن خلدون في قوله السابق إلى أن علم البديع هو كل ما يزين الكلام ويحسنه بنوع من التتميق والزخرف، ويذكره بعد ذلك بأنواعه وأقسامه أو بما يعرف بالمحسنات البديعية، اللفظية والمعنوية .

ويقول القزويني أن السكاكي قد عرف البلاغة في كتابه المفتاح، وأشار إلى طرفيها الأعلى والأسفل [البيان والبديع]، وإلى ما بينهما من درجات متفاوتة، ثم نوع الفصاحة إلى نوعين، نوع راجع إلى المعنى ونوع راجع إلى اللفظ⁽⁵⁾، ويقصد بتتويع الفصاحة إلى نوعين انقسام البديع إلى محسنات بديعية لفظية ومعنوية، أي أن السكاكي يعيد البديع إلى الفصاحة بينما يرد البيان والمعاني إلى البلاغة.

وورد في (الإشارات والتببيهاات) أن البديع هو علم يعرف منه وجوه تحسين الكلام، باعتبار نسبة بعض أجزائه إلى بعض بغير الإسناد والتعلق، مع رعاية أسباب البلاغة⁽⁶⁾، وقال بغير الإسناد والتعلق للفصل بين علم البديع والمعاني، ثم رعاية أسباب البلاغة أي مطابقة مقتضى الحال ووضوح الدلالة .

أما عن تأسيس علم البديع، فقد نسب إلى عبد الله بن المعتز في أكثر المصادر، والمتصفح لكتاب البديع [الذي قيل أنه يشتمل على هذا العلم] يجد أنه يشتمل أولا على خمسة أبواب، يتحدث فيها ابن المعتز عن أصول البديع الكبرى - من وجهة نظره - وهي

(3) - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، المجلد الثاني، 4/6 .

(4) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية - علم المعاني، ص 425 .

(5) - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 193 .

(6) - محمد بن علي بن محمد الجر جاني، الإشارات والتببيهاات في علم البلاغة، ص 233 .

: « الاستعارة والجناس والمطابقة ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها »⁽⁷⁾ ، ونجد ابن المعتز هنا يعد الاستعارة أصل من أصول البديع الكبرى ، ولكنها - كما أسلفنا الذكر في الفصل الأول - وردت عند الأغلب من علماء البلاغة على أنها قسم من أقسام البيان.

فضلا على ذلك فقد ذكر ثلاثة عشر فنا بديعيا آخر، من بينها « التعريض والكناية وحسن التشبيه »⁽⁸⁾، ونجده مرة أخرى يورد أقسام البيان في البديع، وأحسبه يظنها مما يندرج تحت ما يسمى بالمحسنات البديعية المعنوية، فالكناية والتعريض والتشبيه صور بلاغية تتعلق بالدلالة أكثر ما تشير إلى تزيين الكلام وتنميته من ناحية الشكل والموسيقى.

ومن هنا يمكننا أن نقسم البديع - كما قال السكاكي في تنظيره للمحسنات البديعية وتقسيمها لأول مرة - إلى محسنات بديعية معنوية وأخرى لفظية، وقال من تحدث على ذلك « أن من بحثوا قبله في المحسنات كانوا يوردونها مختلطا بعضها ببعض، ولما حاول أحدهم أن يفرق بين المعنوي واللفظي منها كما فعل هو »⁽⁹⁾.

وقد أشار القرزويني إلى هذه المحسنات بنوعيتها، وقسم كل منها إلى أقسام، « فمن المعنوية ذكر المطابقة أو الطباق، والمقابلة والمناسبة أو مراعاة النظر، والمشاكله والاستطراد والمزاوجة، والعكس^(*) والتورية واللف والنشر، والجمع والتفريق والتقسيم [...] والجمع مع التقسيم والجمع مع التفريق والمبالغة والإغراق والغلو والمذهب الكلامي [...] تأكيد المدح بما يشبه الذم والعكس^(**) والتوجيه، ومن اللفظية أورد الجناس ورد العجز على الصدر والسجع والموازنة [...] ولزوم ما لا يلزم »⁽¹⁰⁾، واختلفت هذه المحسنات بنوعيتها بالزيادة والنقصان عند البلاغيين.

إن الاختلاف في تقسيم البديع وتعدد هذه الأقسام جعل الاهتمام بكل ذلك إلى درجة تحول البديع إلى مجرد سجلات، تغذي بدورها البحث البلاغي المنطلق من خلفيات معرفية ومذهبية مختلفة، ليظهر بعدها ما سمي بالتأليف البديعي، ثم ينتقل البديع من التنظيم إلى النظم، الذي أدى إليه تراكم سجلات البديع، مما دعا إلى النظم والشرح⁽¹¹⁾.

(7) - عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية - علم المعاني ، ص 432 .

(8) - نفسه ، ص 433 .

(9) - نفسه ، ص 461 .

(*) - العكس هنا محسن بديعي.

(**) - العكس هنا بمعنى عكس الشيء أي الذم بما يشبه المدح .

(10) - الخطيب القرزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ص 5 - 105 .

(11) - محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وإمداداتها ، ص 60 ، 61 .

وقد نظم علي بن عثمان الأربلي (ت 670 هـ) - وكان معاصرا لابن أبي الأصبع المصري- قصيدة مدح من ستة وثلاثين بيتا في كل بيت منها نوع من أنواع البديع التي كانت شائعة في عصره، وقد وضع فإزاء كل بيت اسم المحسن البديعي الذي تضمنه، واعتبرت هذه القصيدة المحاولة الأولى في الاتجاه الذي أخذ بعد ذلك يشيع بين الشعراء بدخولهم في ميدان البديع ينظمون فنونه في قصائد عرفت فيما بعد باسم البديعيات، وفيما يأتي أنموذج منها :

بَعْضُ هَذَا الدَّلَالِ وَالْإِدْلَالِ *** حَالٌ بِالْهَجْرِ وَالتَّجْنُبِ حَالِي

(الجناس اللفظي)

طَلَبَ دُونَهُ مَنَالَ الثُّرَيَّا *** وَهَوَى دُونَهُ زَوَالَ الْجِبَالِ

(الغلو)

وَعَرَامٌ أَقْلَهُ يُذْهِلُ الْآ *** سَادَ فِي خَيْسَهَا عَنِ الْأَشْبَالِ

(المبالغة)

مَا جِدُّ بَعْضُ فَضْلِهِ بَدْلُهُ الْمَا *** لَ وَقَلَّ الَّذِي يَجُودُ بِمَالِ

(رد العجز على الصدر)

لَيْسَ فِيهِ عَيْبٌ يُعَدِّدُهُ الحُسَادُ *** إِلَّا العَطَاءَ قَبْلَ السُّؤَالِ

(الاستثناء)⁽¹²⁾

ويقال أن أقدم من نظم البديع وشرحه صفي الدين الحلبي [...]. وقد توسعت شروح البديعيات وأمتد مجالها حتى صارت تخوض في القضايا الأدبية العامة، وتنتصر لمذهب على مذهب كما هو الحال في بديعية ابن حجة، الذي وجد المؤلف في محتواه ما يسمح بتسميته خزانة الأدب، لأنه زيادة على المادة الأدبية الغنية الموجهة، هناك توجه خاص بالمؤلف جعله ينتصر لمذهب التورية على مذهب الجناس، ويخصص للتورية أكبر حيز من الكتاب⁽¹³⁾.

ومعنى كلام العمري أن البديع قد كثر وتراكم، لأن ابن المعتز عندما ألف كتابه (البديع) عدد أقسام البديع ولم يحصرها، إنما ترك الباب مفتوحا للزيادة عليها، لذلك نجد أن البلاغيين اختلفوا في عددها، حتى أن هذا التراكم تحول إلى سجلات لهذا العلم، سميت فيما بعد بالبديعيات، ثم شرحت، ولما توسعت صارت ترديدا وتكرارا لما سبق .

(12) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص 470، 471 .

(13) - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وإمداداتها، ص 63 .

وليس هذا فحسب -أي أن البلاغيين لم يختلفوا في تعداد المحسنات فقط- بل اختلفوا أيضا حتى في تسمياتها واصطلاحاتها، فقد أشار صاحب(المثل السائر) إلى اختلاف البلاغيين في بعض المصطلحات والفنون البديعية وألقابها، حتى أن منهم من يضع لفن واحد من البديع إسمين، إعتقادا منهم أن ذلك النوع نوعان مختلفان وليس الأمر كذلك (14) .

والقزويني في ذكره لمراعاة النظير -محسن بديعي معنوي- قال أنه يسمى أيضا التناصب والائتلاف والتوفيق، وسماه كذلك تشابه الأطراف [وورد في مصادر أخرى مناسبة]، كما أن الإحصاء جاء باسم التسهيم، والعكس بلفظ التبديل(15).

وبذلك نكون قد رسمنا صورة عامة لما يعنيه البديع عند علماء البلاغة، وأشرنا إلى اختلافهم في إصلاحاته أحيانا، واشتراكهم في المساهمة في تطويره وتوسيع مجاله في أحيائين كثيرة .

3- البديع وارتباطه بموسيقى الشعر عند المحدثين :

إن الشعر-كما ورد عند العمري-يقوم على المسموع والمعقول، والمسموع هو الشرط الأساسي الجوهرية الذي لا يتحقق الشعر بدونه، في حين يكون المفهوم شرط كماله(16). ويقصد بالمسموع إنشاد الشعر أو غنائه، أما المعقول فهو معاني الشعر التي لا يدركها السامع إلا إذا أنشد الشعر أمامه، أو تلقاه كتابة .

ومما لا شك فيه أن هذا الشعر قد بني على جماليات تظهر أكثر في شكله الخارجي، وهي كلما غصنا فيه ازدادت وضوحا وجمالا، ودراسته -بالتالي - لم تعد وصفية فحسب، بل فيها تحليل وغوص إلى أبعد معانيه وأدقها، ولعل للبديع حضورا مثلته بعض هذه الصور .

واقترن وجود مثل هذه الصور في الشعر عند النقاد المحدثين بعلم حديث، ظهر منذ وقت ليس بالبعيد، ألا وهو علم الأصوات، ولكن هذا الاقتران بالصوت لا يستغني فيه عن جانب الدلالة على اعتبار المعنى هو غاية كل دارس- خاصة إذا ما تعلق الأمر بالدراسات اللغوية -لأن الشعر كغيره، رسالة يتولى الشاعر إيصالها إلى غيره، عبر وسيلة هي -في

(14)- عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية..... ، ص 467 .

(15)- الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ص 19 ، ص 24 ، ص 34 .

(16)- محمد العمري ، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية - نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب ، 2001 ، ص 69 .

الأصل - متفق عليها، ومعروفة لدى كل من المرسل (الشاعر) والمتلقي (السامع) وهي اللغة، والتي تعرف على أنها عدد من الوحدات الصوتية الدالة .

واقتران البديع بالصوت في دراسة الشعر عند المحدثين يرتبط بالجانب الإيقاعي والعروضي أي بالوزن والقافية وحرف الروي في الشعر العمودي، وبما يعوضها في الشعر الحر .

وجاء في كتاب (الموازنات الصوتية) أن المقوم الإيقاعي في الشعر يتكون من ثلاثة عناصر أساسية هي « الوزن والتوازن والأداء»⁽¹⁷⁾.

وقد فصل القول في هذه العناصر الأساسية الثلاثة، فأستأنف حديثه شارحا لها : « فالوزن هو المقاطع أو التفعيلات، سواء كانت منتظمة أو حرة، وهذا مجال الدراسة العروضية، والتوازن أو الموازنات وهو عبارة عن تردد الصوامت (التجنيس) والصوائت (الترصيع) ، اتصالا وانفصالا في مستويات التمام والنقص حسب تعبير القدماء، أما الأداء فهو عملية التجسيد الصوتي (الشفوي)، حيث يقوم القارئ أو المنشد بتأويل العناصر الوزنية والتوازنية وما يقع بينهما من انسجام وإختلاف، في التفاعل مع الدلالة اتساقا واختلافا (التضمين) »⁽¹⁸⁾.

وذكر العمري أن قدامة بن جعفر قد أشار على المستوى التطبيقي للإحساس بتضامن الصوت والدلالة في إنتاج الفاعلية الشعرية، فمن الصور البلاغية عنه ما هو لفظي ومنها ما هو معنوي، ومنها ما هو نتاج لتفاعل اللفظ والمعنى مثل التجنيس، بل وحرص على تكامل العناصر الصوتية والدلالية⁽¹⁹⁾.

ويقصد العمري في قوله السالف بالصور البلاغية الصورالبديعية، وبديل على ذلك (منها ما هو لفظي ومنها ما هو معنوي ...)، ولا يكون إلا في البديع، وهو ما يدل على أن القدماء قد تفتنوا إلى ما تحدث عنه المحدثون من ارتباط صور البديع بعروض الشعر وإيقاعه، إلا أنهم لم يتعمقوا فيه، بل اكتفوا بما تضمنته الدراسة الوصفية فحسب، في حين كان تناول المحدثين للتراث القديم مقرون بما ورد إليهم من الغرب ، حيث شكل هذا التمازج مع ما تميزوا به من إدراك وقدرة على التحليل دافعا قويا للوصول بهم إلى مستوى راق في الدراسات النقدية .

(17) - محمد العمري ، الموازنات الصوتية ، ص 9 .

(18) - نفسه ص 9 ، 10 ، 11 .

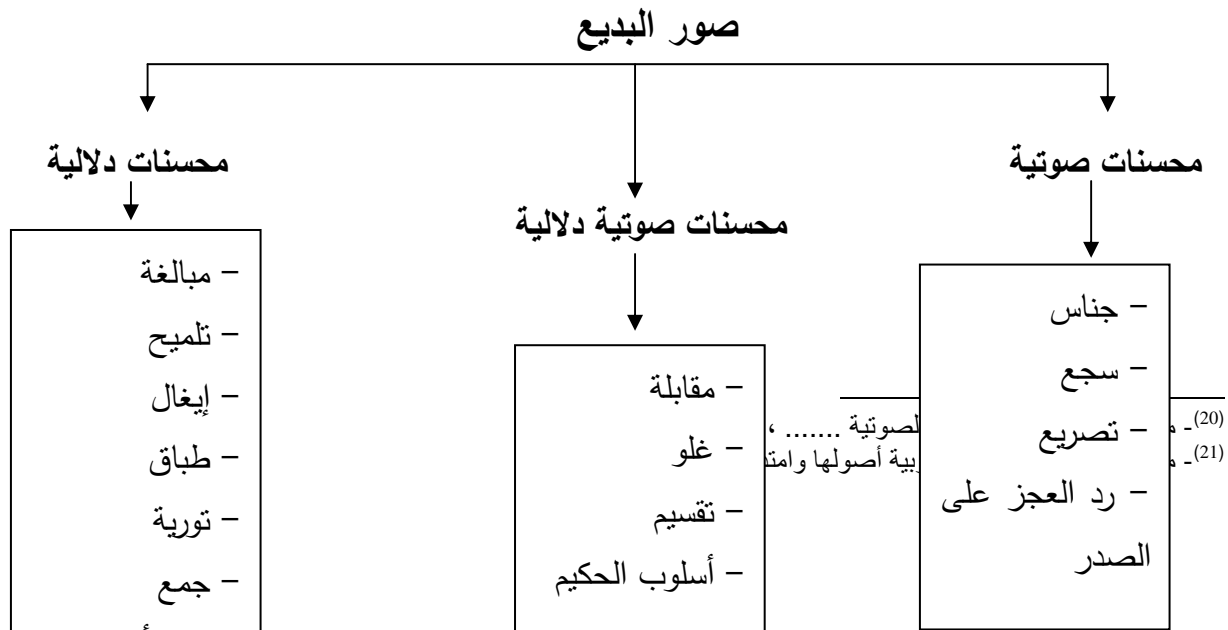
(19) - نفسه ، ص 54 .

ويضيف العمري: « أنه ينبغي التأكيد على أن العامل الإيقاعي الذي أهم الجاحظ ليس عنصرا صوتيا مجردا كما هو الشأن عند أصحاب البديع، بل هو نتاج التفاعل بين الصوت والدلالة والتركيب»⁽²⁰⁾.

4- توظيف البديع في الأمثال :

إن ما تناولناه في مستوى الشعر وما يتميز به من موسيقى بالإمكان استثماره في دراسة الأمثال من ناحية البديع، ذلك لتقاطع الخطابة مع الشعر من جهة، ولاشتراك المثل والخطابة من جهة أخرى، حيث أن الجاحظ اعتبر كل منهما مثال لمدى توفيق العرب بلاغيا، وبشأن تقاطع الشعر مع الخطابة قيل أن مرد هذه التداخلات بينهما هو التقاؤهما في الغرض والمقصد من حيث إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر لمقتضاه⁽²¹⁾. فكل منهما - كما جاء في القول - غايته اجتلاب النفوس واستمالتها لتتأثر بموقف أو تقتنع برأي، فقد عرفت الخطابة على أنها تقوم على الاستمالة والتأثير والإقناع، والشعر ذاتي يخاطب العواطف ويستميل القلوب حتى تقتنع بمعناه العقول .

ومن هنا صار بالإمكان دراسة المثل مثلما درس الشعر من ناحية الموسيقى والوزن والمعاني، وقد نظرنا في البديع فوجدنا صوره مقسمة إلى أقسام ثلاثة . فضلا على تقسيمها الثنائي إلى معنوية ولفظية . الصوت والدلالة وتفاعلها معا، فقسمنها بذلك إلى : محسنات بديعية صوتية ومحسنات بديعية دلالية، ويمكن توضيحها وفق الشكل الآتي :



(20) -

(21) -

4-1- محسنات صوتية (التناسب الصوتي):

يعني أن وجودها يتحقق بأصوات تميز، فالجناس مثلا هو اتفاق كلمتين في الحروف واختلافهما في المعنى، والحروف هي أصوات، أي أن وجودها يتحقق بالتجسيد الشفوي الصوتي لهذه الحروف، وربما يقال أن نوع الحروف يختلف عن الأصوات، فنجيب أن الجناس لا يرتبط بنوع الحروف فقط، بل بمخارجها، فكما أن بين (المغرب والمغرب) جناس، والأولى تعني الصلاة (العبادة) والثانية هي البلد وتعني (المكان)، كذلك بين (الحزم والعزم) جناس، فالجناس في الحالة الأولى ارتبط بنوع الحروف وعددها، وفي الثانية ارتبط بمخارج الحروف (الأصوات)، إذ (العين والحاء) من مخرجين متقاربين ويظهر ذلك في النطق بها .

4-1-1- الجناس :

وهناك من يسميه تجنيسا ومن يسميه مجانسا⁽²²⁾، ورغم هذا الاختلاف في التسمية إلا أن المعنى واحد، وهو ما أشرنا إليه سابقا، أي أنه فن من فنون البديع اللفظي، وهو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام [الشعر أو النثر] ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها⁽²³⁾، ونمثل لذلك بعدد من الأمثال العربية فيما يأتي :

*أَتَى أَبْدُ عَلَى لُبْدٍ⁽²⁴⁾ .

*اِخْتَلَطَ الْحَابِلُ بِالنَّابِلِ⁽²⁵⁾ .

*إِذَا لَمْ تَغْلِبْ فَاخْلِبْ⁽²⁶⁾ .

(22) - عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية ، ص 614 .

(23) - عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية ، ص 613 .

(24) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 462 .

(25) - نفسه ، ص 421 .

(26) - نفسه ، ص 113 .

* الجَارُ ثُمَّ الدَّارُ وَالرَّفِيقُ قَبْلَ الطَّرِيقِ (27).

* الجَرِيضُ دُونَ القَرِيضِ (28).

* رَبِّ لَحْظٍ أَنَّمْ مِنْ لَفْظٍ (29).

* المِعْرَى تُبْهِي وَلَا تَنْهِي (30).

الجناس

جناس ناقص

هو ما اختلف فيه
اللفظان في واحد من
الأمر الأربعة التي
ذكرت في الأول.

جناس تام

وهو ما تناسب فيه
اللفظان في:
- عدد الحروف
- نوعها
- ترتيبها
- هيئتها الحاصلة من
الحركات والسكنات

ونلاحظ أن الأمثال السابقة كلها من نوع الجناس الناقص، إذ نجد فيها دائما اختلاف في نوع الحروف، وهو من الأمور الأربعة التي ذكرت في الجناس التام، فمثلا (أبد ولبد) في المثل الأول نجد ههما يختلفان في الحرف الأول منهما فقط (الألف واللام)، ويتفقان في الأمور ثلاث الأخرى :

أ / ب / د / ل / ب / د /
3 2 1 3 2 1

وكذلك الحال في المثل الثاني ، حيث الجناس واقع بين (الحابل والنابل) :

ال / د / ح / با / ب / ل / ال / د / ح / با / ب / ل /

(27) - نفسه ، ص 392 .

(28) - نفسه ، ص 444 .

(29) - نفسه، ص 486 .

(30) - نفسه ، ص 192 .

5 4 3 2 1 5 4 3 2 1

وأيضاً في بقية الأمثال الأخرى، مع إختلاف بسيط في زيادة عدد الحروف بين اللفظين

أو ترتيبها:

أ / خ / ذ / ب / ت / غ / ذ / ب /
4 3 2 1 4 3 2 1
(اختلفت في حرفين بدل حرف واحد في المتلين السابقين)

الذ / ر / ف / ي / ق / الذ / ط / ر / ي / ق /
5 4 3 2 1 5 4 3 2 1

الاختلاف في ترتيب الحروف (حرف الراء في اللفظتين)

مع الاختلاف في نوعها (الفاء والطاء فيهما)

وأبد في المثل الأول هو الدهر، ولبد اسم آخر نسور لقمان السبعة⁽³¹⁾، والذي

كان معه هلاكه، ويضرب المثل الثاني عند اختلاط الأمور واشتباكها، حتى يصير من الصعب التمييز بينها .

الجريض في المثل الخامس هو الموت، وقيل هو الغصص عند الموت أو الريق الذي يغص يمنع من القريض أي قول الشعر⁽³²⁾، والمثل الأخير يضرب للشيء يبهي دون نفع يرتجي منه ولا فائدة .

ومثلاً يظهر فإن الجنس الذي تحويه هذه الأمثال وغيرها مما تضمنته المدونة هو من نوع الجنس الناقص، فالكلمات المتجانسة فيها إلى جانب اختلافها في المعنى، فهي تختلف في نوع الحروف أو في ترتيبها أو في هيئتها الحاصلة من الحركات والسكنات .

ونجد في هذه المجموعة من الأمثال العربية بروز الجانب الصوتي الذي تولد من تجاور الكلمات المناسبة من حيث نوع الحروف أو ترتيبها، ويعود ذلك « إلى ظهور هذا المقوم [الصوتي] كقيمة فنية كبيرة في التراث الأدبي العربي القديم شعرا كان أم أسجاعا أم خطبا وأمثالا، بالقياس إلى النص القرآني، فإذا ما نظر إلى البنية نظرة كمية شكلية - وكذلك كانت

(31) - خير الدين شمسى باشا ، معجم الأمثال العربية ، 1 / 100 .

(32) - نفسه ، 971/2 .

نظرة الباقلاني- [في إعجاز القرآن] بدا أوفر حظا في النص الأدبي منه في النص الديني»
(33).

فوجود المقوم الصوتي في المثل ليس بالجديد، ولكنه سمة النص الأدبي القديم عند العرب، ربما لأنهم كانوا يعتمدون السماع في الحكم على الجودة -فيما أظن- لتمييزهم بأذن ذواقة وحافظة قوية، إذ أن تراثهم آنذاك لم يكن مدونا بل كانوا يحفظونه حفظا، وجانب الصوت كان مساعدا على هذا الحفظ، والأمثال كذلك تناقلتها العرب جيلا بعد جيل، وهي كما ذكرت المصادر نشأت في أغلبها في العصر الجاهلي، وذلك ظاهر فيما احتوته من مظاهر البيئة والعادات والخصال والصفات وحتى أسماء الأشخاص والحيوانات.

وقد كان جانب الصوت هذا واحد مما أعطى للمثل قيمة، إلى جانب ما يتضمنه من فكرة وما يعبر عليه من معنى، خاصة من حيث ارتباطه بالحياة العربية بكل معطياتها ونقله لكل مجرياتها .

4-1-2- السجع:

وهو محسن بديعي لفظي يخص النثر فقط، ومقابله في الشعر يسميه البلاغيون (التصريع) ، ويعرف السجع بقول ابن الأثير: « وحده أن يقال تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد»⁽³⁴⁾، والتواطؤ هنا بمعنى التوافق والتماثل أي أن تتوافق أواخر الأشرطة من الكلام .

(33)- محمد العمري ، الموازنات الصوتية ، ص 106 .

(34)- ابن الأثير ، المثل السائر ، 195/1 .

والأصل في السجع - كما قال ابن الأثير - إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء والنفس تميل إليه بالطبع⁽³⁵⁾، وذلك ما جعل كلام العرب كله يتضمن هذه الصور من تزيين الكلام وتجميله، ونأخذ مثلاً على ذلك الأمثال العربية التي احتوت على كثير من الكلمات المسجوعة، ونورد منها :

ابْنُكَ ابْنُ أَيْرِكَ ، لَيْسَ بِيْذِي أَبٍ غَيْرِكَ⁽³⁶⁾

توافق الفاصلتين

إِذَا سُئِلَ أَرَّرَ ، وَإِذَا دُعِيَ انْتَهَرَ⁽³⁷⁾

(35) - ابن الأثير ، المثل السائر ، 197/1 .

(36) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 225 .

(37) - نفسه ، ص 407 .

توافق الفاصلتين

فالمثل الأول ورد عن أبي بكر (38) ، والأير هو الصلب، وابن أيرك أي ابن صلبك، وقد وقع السجع في لفظتي (أيرك وغيرك) .

والمقصود بمعنى المثل الثاني هو البخيل، وهو محذوف هنا، لكن المعنى يدل عليه، إذ أرز أي تقبض من بخله واجتمع وثبت (39) ولم ينبسط للمعروف، وانتهاز أي استغل الفرصة وأسرع إلى الطعام إذا دعي إليه، وجاء السجع في الكلمتين (أرز وإنتهز) . وكذلك نجد الكلمات المسجوعة في عدد من الأمثال الأخرى التي احتوتها المدونة من مثل:

أَوَّلُ الْعِيِّ الْإِخْتِلَاطُ وَأَسْوَأُ الْقَوْلِ الْإِفْرَاطُ (40)

توافق الفاصلتين

كَالْأَشْقَرِ إِنْ تَقَدَّمَ نُجْرٌ وَإِنْ تَأَخَّرَ عُقْرٌ (41)

توافق الفاصلتين

ونجد أن وقوع السجع في كل مثل قد أكسبه جمالا في العبارة وتوازنا تحسه الأذن في التناسب بين كلمات الشطرين، الذي يولده تعادل في عدد الحروف المكونة لمفردات كل شطر، مما يجعل النفس تميل إليه لأنها تحب الموسيقى وتطرب لها، وذلك مما يساعدها على حفظ الأمثال وتداولها .

إلا أن هذا السجع لا تقف وظيفته عند الاعتدال وتواطؤ الفواصل -كما ذكر ابن الأثير- إنما ينبغي أن تكون الألفاظ حلوة حادة طنانة رنانة لا غثة باردة، أي أن صاحبها لا يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها وما يشترط له من الحسن [أيضا] ، وهو في الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابا من الكر سف(*)، أو ينظم عقدا من الخزف الملون (42) .

(38) - نفسه ، ص 225 .

(39) - ابن منظور ، لسان العرب ، مادة أرز ، مج ، ص .

(40) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 31 .

(41) - نفسه ، ص 376 .

(*) - الكرسف هو القطن وهو الكر سوف جعله ابن الأثير وصفا للثياب وإن لم يكن ، لسان العرب ، مادة (كرسف) ، مج 9 ، ص 297 .

(42) - ابن الأثير ، المثل السائر ، 1 / 197 ، 198 .

فابن الأثير يستقبح من السجع ما كان متكلفا أو متعسفا في وضعه، أما إذا جاء محمولا على الطبع غير متكلف فإنه يكون في غاية الحسن⁽⁴³⁾، وهذا ما نلمسه في الأمثال، لأنها ليست مما تكلف صاحبها فيها وضع ألفاظها المسجوعة، إنما هي أقوال وردت عفويا على لسان أناس عاديين، ربما كانوا من عامة الناس، وحتى ما جاء منها في صورة الحكمة كان للسجع فيه غرض ومقصد، هو نقل فكرة المثل ومحاولة الإقناع بها لما فيها من الفائدة والصواب .

4-1-3- التصريح :

وهو محسن بديعي لفظي يختص بالشعر ولا يقع في النثر، وهو توافق بين فاصلتي الصدر والعجز في البيت من الشعر، أي انتهاء الصدر بنفس الحرف الذي ينتهي به العجز، أو هو « هو جعل العروض مقفاة كالضرب وعلى وزنه»⁽⁴⁴⁾، والعروض هي الكلمة الأخيرة من الصدر، والضرب هو الكلمة الأخيرة من العجز .

وتناولنا لهذا النوع من المحسنات راجع إلى ورود الأمثال في شكل أبيات شعر أو أن أبيات الشعر تتضمن بعضها، ويروى أنه من الشعراء من كان شعره في جله أمثالا، مثلما قيل في صالح بن عبد القدوس^(*) ، ويقال : « لو أن صالحا نثر أمثاله في شعره، وجعل بينها فصولا من كلامه، لسبق أهل زمانه وغلب على مد ميدانه»⁽⁴⁵⁾.

وقد وردت في مدونة البحث عددا من الأمثال الشعرية وكان في بعضها التصريح الذي نمثل له بما يأتي :

أرْخِ يَدَيْكَ وَاسْتَرْخِ	إِنَّ الزَّيَادَ مِنْ مَرِّخِ ⁽⁴⁶⁾
العروض	الضرب

تصريح

ونلاحظ في البيت الشعري توافقا بين حرف القافية والحرف الذي ينتهي به الصدر في لفظتي (إسترخ ومرخ) ، مما يصنع تناغما بين الشطرين، حيث الأولى فعل بمعنى إسترخ والثانية

(43) - نفسه ، 1 / 198 .

(44) - محمد بن علي بن محمد الجر جاني ، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، ص 274 .

(*) - شاعر عباسي من حكماء الشعراء ، أمر المهدي بقتله وصلبه على جسر بغداد سنة 167 هـ لزندقته .

(45) - عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية ، ص 431 ، 432 .

(46) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 203 .

اسم شجر يدعى قديماً بشجر النار⁽⁴⁷⁾، لأنه يشتعل بسرعة، والزناد معروف على أنه حجر يحدث عند احتكاكه بحجر من نوعه اشتعالاً، ومعنى المثل أرخ يديك واكتف بالقليل من القدح⁽⁴⁸⁾، ولا يكتمل معنى المثل إلا بتمام الشطر الثاني، ويضرب للكريم لا يحتاج للسؤال الكثير حتى يوجد بما عنده وكذلك احتوى المثل التالي على التصريح حيث يقول صاحبه:

إِنَّ بَنِي صَبِيَّةٍ صَيْفِيُونَ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رَبِيعِيُونَ⁽⁴⁹⁾

تصريح

وقد سبق إيراد هذا المثل في باب الكناية، وذكر بشأنه أنه ورد على لسان سليمان بن عبد الملك عندما أحس بدنو أجله وليس له من أولاده من يستخلفه، لأنهم فتية صغار لم يصلوا إلى السن التي يسمح لهم فيها بذلك⁽⁵⁰⁾، ويضرب فيما يحب من ولد الشبيبة، وقد وقع التصريح بين لفظتي (صيفيون وربيعيون) في حرف النون بكونهما يقعان في آخر الصدر والعجز معا . وقد وقع التصريح في بقية الأمثال الشعرية على نفس الصورة التي ظهر بها في المثلين السابقين :

لَبْتُ قَلِيلاً يَلْحَقُ الدَّارِيُونَ(ن) أَهْلُ الجبابِ البُدْنَ المَكْفِيُونَ⁽⁵¹⁾
النَّاسُ إِخْوَانٌ وَشَتَّى فِي الشَّيْ(م) وَكُلُّهُمْ يَجْمَعُهُمْ بَيْتُ الأَدَمِ⁽⁵²⁾
تَرَى الفَتِيَانَ كَالنَّخْلِ(ل) وَلَا يُدْرِيكَ مَا الدَّخْلُ⁽⁵³⁾

تصريح

ويحدث هذا التتابع الصوتي بين نهايتي الصدر والعجز في الأبيات الشعرية السابقة نغماً موسيقياً في إنشادها، وذكرها في مواقف التمثل به (مضاربهها) مما يكسبها جمالا خاصا، تضاف إليه المعاني التي يتضمنها .

(47)- خير الدين شمسى باشا ، معجم الأمثال العربية ، 1 / 247 .

(48)- نفسه ، 1 / 247 .

(49)- أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 222 .

(50)- خير الدين شمسى باشا ، معجم الأمثال العربية ، 1 / 569 .

(51)- أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 288 .

(52)- نفسه ، ص 197 .

(53)- نفسه ، ص 194 .

ولكل من الأمثال السابقة موقف يضرب فيه، ويستحضر به، فالمثل الثالث مثلا يضرب في خداع المظاهر وعدم دلالتها على حقيقة الناس في تشبيه الفتیان بالنخل تراه باسقا طويلا ولا تدري ما بداخله، وفي ذلك يقال :

فَمَا عِظْمُ الرَّجَالِ لَهُمْ بِفَخْرٍ *** وَلَكِنَّ فَخْرَهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرٌ
بُغَاثُ (*) الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاخًا *** وَأُمُّ الصَّقْرِ مِقْلَةٌ نَزُورٌ (*)
ضِعَافُ الطَّيْرِ أَطْوَلُهَا جُسُومًا *** وَلَمْ تَطُلِ البُرَاةُ (*) وَلَا الصَّقُورُ (54)

وفي مثل ذلك يقول الشافعي:

أَرَى الغِرَّ فِي الدُّنْيَا إِذَا كَانَ فَاضِلًا *** تَرَقَّ عَلَى رُؤُوسِ الرَّجَالِ وَيَخْطُبُ
إِنْ كَانَ مِثْلِي لَا فَضْلَةَ عِنْدَهُ *** يُقَاسُ بِطِفْلِ فِي الشَّوَارِعِ يَلْعَبُ (55)

والتصريح في الأمثال الشعرية مثلما هو في غيرها من أبيات الشعر الأخرى يضيف عليها طابعا موسيقيا خاصا، فضلا على ما تحويه الأمثال من معان يساهم في تجدها في كل مرة الموقف الذي تستحضر فيه.

4-1-4- رد العجز على الصدر :

وهو واحد من المحسنات البديعية اللفظية، ويعرّفه علماء البلاغة على أن «يجيء في بيت واحد لفظ مكرر، أو تجنيس، أو ملحق به» (56)، ويشيرون بذلك أنه يرد في الشعر، إلا أن غيرهم لم يقصره على الشعر، بل مثل له نثرا وشعرا للدلالة على أنه يرد في الكلام بنوعيه (57)، كما أن الخطيب القرظي يقرر أن رد العجز على الصدر يأتي في النثر كما يرد في الشعر، ويعرفه في كل منهما على حدا، فيقول في النثر أنه «جعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أول الفقرة، والآخر في آخرها» (58)، أما في الشعر فهو «أن يكون أحدهما في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول أو حشوه أو آخر أو صدر الثاني» (59)، لأجل ذلك سوف نمثل له في النوعين من الأمثال الشعرية والنثرية كما يأتي:

(*)- بغاث الطير : أضعف أنواعها .

(*)- مقلاة نزور : أي مقلاة لعدد البيوض التي تعطيتها .

(*)- البراة : جمع مفردة البازي وهو طير جارح يشبه الصقر .

(54)-وردت هذه الأبيات في معجم كنوز الأمثال والحكم،

(55)- الإمام الشافعي ، ديوان الشافعي ، ص 26 .

(56)- محمد بن علي بن محمد الجر جاني ، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، ص 268 .

(57)- عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية ، ص 642 ، 643 .

(58)- الخطيب القرظي ، الإيضاح في علوم البلاغة ، مج 2 ، 6 / 102 .

(59)- نفسه ، 6 / 102 .

* أَحِبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبُكَ يَوْمًا (60)

* فُرَارَةٌ قَدْ سَفَّهَتْ فُرَارًا (61)

* مَنْ فَازَ بِفُلَانٍ فَقَدْ فَازَ بِالسَّهْمِ الْأَخِيبِ (62)

* مَنْ نَجَلَ النَّاسَ نَجْلُوهُ (63)

والواضح أن عدد من المفردات قد تكرر في هذه الأمثال، ومن ذلك (حبيبك، هونا، عسى، يكون، بغيضك، يوما) في المثل الأول، وهو حديث نبوي يروى عن الرسول ﷺ، ويضرب في النهي عن الإفراط في الحب أو البغض، والأمر فيهما بالاعتدال (64)، وكذا نجد تكرارا للمفردات في الأمثال اللاحقة من مثل (فرارة، فاز، نجل).

وعن المعنى فالفرارة هي البهيمة تنفر أو تقوم ليلا فيتبعها الغنم (65)، ويضرب للصغير يخطأ فيتبعه الكبير في السفه والخفة، وتكرار الألفاظ يعرف عند البلاغيين برد العجز على الصدر، والكلمة فيه تذكر في أول الكلام ثم تتكرر في موضع آخر منه بعد ذلك، والغالب أن يكون تكرارها في آخره مثلما ورد في المثل الثاني والرابع، وقد تعاد في غير آخر الكلام كما هو في المثل الأول والثالث.

وهذا النوع البديعي عند وروده في النثر يكسب المقطع النثري صوتا مميزا تحسه الأذن حين النطق به، لأن الألفاظ المكررة فيه هي ألفاظ متجانسة من حيث بنيتها الحرفية، وهي فوق كل ذلك -عند تكرارها- وكأنها تعيد ترتيب معاني المقطع النثري من حيث أنها تربط بين الشرط الأول والثاني من خلال ارتباطها بالكلمة الأولى التي تجانسها، وهي بذلك تبني بناء دلاليا جديدا في ربطها لشطري المقطع النثري .

أما عن ورود هذا المحسن البديعي في الشعر، فقد جاء في الأمثال الشعرية الآتية:

أَعْطَاكَ قَبْلَ سُؤَالِهِ فَكَفَاكَ مَكْرُوهُ السُّؤَالِ (66)

(60)- أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 264 .

(61)- نفسه، ص 321 .

(62)- نفسه، ص 271 .

(63)- نفسه، ص 102 .

(64)- خير الدين شمسي باشا، معجم الأمثال العربية، 1 / 131 .

(65)- نفسه، 2 / 1657 .

(66)- أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 238 .

لفظين متجانسين مكررين

ويضرب للكريم لا يحتاج إلى الطلب لكي يوجد بما عنده لمن يستحق، فيعطيه، ويكفيه بذلك ما يخرجه من مكروه السؤال، والبيت من حيث الشكل يظهر فيه توافق الكلمة الأخيرة من الصدر مع الكلمة الأخيرة من العجز، وهو القسم الأول من أقسام رد العجز على الصدر عند ابن المعتز (67) :

مَوَالِينَا إِذَا افْتَقَرُوا إِلَيْنَا وَإِنْ أَثْرُوا فَلَيْسَ لَنَا مَوَالٍ (68)

لفظين متجانسين مكررين

والمثل من التوبيخ إن كان موجها لمن لا يعرف معنى الصداقة ولا حقها، وهو عزة نفس وافتخار إذا ورد على لسان من يقدر الصداقة حق قدرها، فهم في جانب أصدقائهم إذا إحتاجوهم، فإن إغتنوا إبتعدوا، والبيت يحتوي على تجانس بين لفظتي (موالينا وموال)، حيث الأولى تقع في أول صدر البيت والثانية تقع في آخر عجزه، وهو ما أشار إليه ابن المعتز بالقسم الثاني من رد العجز على الصدر.

وبأتي القسم الثالث لهذا النوع البديعي في المثل الآتي :

* إِذَا قَالَتْ حَدَامٌ فَصَدَّقُوهَا *** فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَدَامٌ (69)

(67) - عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية..... ، ص 642 ، 643 .

(68) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 270.

(69) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 41 .

(70) - عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية..... ، ص 642 ، 643 .

(*) - قيل أنها زرقاء اليمامة وقيل غير ذلك مما ورد في معجم الأمثال العربية ، 2 / 1783 ، 1784 .

وفي هذا المثل ورد شكل آخر لرد العجز على الصدر، حيث تتوافق آخر كلمة فيه بعض ما فيه⁽⁷⁰⁾، فنجده يكرر كلمة حذام^(*)، فتأتي في وسط الصدر، وتكرر آخر العجز (في نهاية البيت)، وقد سار هذا المثل واشتهر بين الناس وعرف حتى تمثل به الكثير من أهله ومن غيرهم.

وقد تكرر اللفظة في البيت الواحد من غير انتظام وبغير صيغتها، كأن ترد في وسط الصدر وتعاد وسط العجز أو في آخره، وتختلف فتكون جمعا مرة ومفردا أخرى أو غير ذلك مثلما جاء في الأمثال الآتية :

- * كَتَارِكَةٌ بِيضَهَا بِالْعَرَاءِ *** وَمُلْبَسَةٌ بِيضَ أُخْرَى جَنَاحًا (71)
- * وَإِذَا تَكُونُ كَرِيهَةً أُدْعَى لَهَا *** وَإِذَا يُحَاسُ الْحَيْسُ يُدْعَى جُنْدُبٌ (72)
- * وَإِذَا يُصِيبُكَ وَالْحَوَادِثُ جَمَّةً *** حَدَّثَ حَدَاكَ إِلَى أَخِيكَ الْأَوْثَقُ (73)

ونجد أن رد العجز على الصدر في الأمثال الشعرية مميّزه ما ميز وروده في الأمثال النثرية، من حيث الأثر في الصوت لفعل تكرار المفردات، كما أن لذلك أثر في المعنى حين ارتباط الصدر بالعجز، لأن الكلمة إذا تكررت استدعت وضعها الأول، فارتبط المعنيان لتكوين معنى البيت ككل .

4-2- محسنات دلالية (التناسب الدلالي) :

يبدو أن هذا النوع من المحسنات يختص بالجانب الدلالي أو هو يتحقق بواسطته، لأن هناك تبدلات دلالية تتم عن طريق الألوان البلاغية، ومن ثم فإن البلاغة تأسيسا على ذلك تساهم في تبدلات المعنى الدلالي^(*)، فهي إذن أحد روافده الفنية، ولذا نشأت علاقة وطيدة البلاغة وعلم الدلالة⁽⁷⁴⁾.

(71) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 416 .

(72) - نفسه ، ص 419 .

(73) - نفسه ، ص 268 .

(*) - ذكرت كذلك في المرجع وأظنه يقصد المعنى أو الدلالة .

(74) - عبد الواحد حسن الشيخ ، العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي - دراسة تطبيقية ، سلسلة اللغة العربية ، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفني ، المنزه ، مصر ، الطبعة الأولى ، 1419هـ - 1999 م ، ص 16 ، 17 .

ونحن بدورنا سوف نستثمر العلاقة السابقة من أجل إيضاح غرض استعمال هذه النوع من المحسنات، وإبراز مدى مساهمتها في تبديل المعنى، وربما المشاركة في صنع معنى جديد، ونتناول من خلال ذلك عرضاً لعدد من المحسنات التي تحقق الغرض ذاته في نوع من الكلام الفصيح الذي زخر به تراثنا العربي ألا وهو الأمثال التي هي موضوع بحثنا هذا .

4-2-1-المبالغة :

المبالغة محسن بديعي معنوي-على اعتبار التقسيم الثنائي للمحسنات البديعية- عرف قديماً عند ابن المعتز-واضع علم البديع-، وقد تحدّث عنه وعدّه من محاسن الكلام (شعره ونثره) ، ورأى أن المقصود به هو الإفراط في الصفة، وجاء بعده قدامة بن جعفر وكان أول من أطلق عليه تسمية المبالغة (75).

كما عرفها العسكري في كتابه (الصناعتين ...) بقوله:« المبالغة أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته، وأبعد نهاياته، ولا تقتصر في العبارة عنه [وأظنه قصد التعبير عنه] أدنى منازل وأقرب مراتبه ... » (76).

فالتعريفان هنا -لابن المعتز والعسكري-يجعلان المبالغة بمعنى الإفراط في الصفة والوصول بالمعنى إلى أرقى وأبلغ صورته، وتوجد في النثر والشعر على السواء، وسوف نمثّل لها بما يأتي من الأمثال العربية :

* أَعْطَاهُ بِقَوفٍ رَقَبَتَهُ (77)

*أَعْلَمُهُ الرِّمَایَةَ كُلَّ حِینٍ *** فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي (*) (78)

*بَلَعَ فُلَانٌ مِّنَ الْعِلْمِ أَطْوَرِيَهُ (79)

ونلاحظ أن في كل مثل من الأمثال الثلاثة الواردة توجد مبالغة من نوع خاص، لأن القز وبني والسكاكي قد قسموا المبالغة إلى أقسام ثلاثة على حد ما جاء في الإيضاح: « ..وتتخصر [المبالغة] في التبليغ والإغراق والغلو...» (80).

(75)-عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية - علم المعاني ، ص 509 ، 510 .

(76)- أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص 403 .

(77)- أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 248 .

(*)- ويروى (فلما استدّ ساعده رماني) .

(78)- أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 420 .

(79)- نفسه ، ص 301 .

(80)- القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ص 60 .

فالمثل الأول يدل على عطاء البر والجود، حيث يبلغ بالكريم أن يعطي الشيء بجملته ولا يترك منه شيئاً لنفسه، لأن القوف هو الشعر السائل في نقرة القفا وأصله للحيوان⁽⁸¹⁾، وأستعمل هنا للتعبير على بلوغ الجود والكرم عند العرب مبلغاً كبيراً لم يكن لغيرهم، ويندرج هذا النوع من المبالغة هنا تحت ما سماه القرز ويني بالتبليغ، إذ هو عنده «كون الشيء المبالغ فيه بالوصف ممكناً في العقل والعادة»⁽⁸²⁾، لأن المبالغة هنا ليست بعيدة عن عادة العرب في الكرم، حتى أنه يقال (أكرم من حاتم)، وحاتم واحد منهم، وذلك ما يجعلها أكثر موافقة للتصديق من قبل العقل .

أما في المثل الثاني فوعدت المبالغة في لفظة (كل حين) للتعبير على المداومة وإعطاء معنى البيت أكثر وضوحاً من حيث هو يكتفي عن نكران الجميل، وللوصول بهذا المعنى إلى أقصاه استعمل الشاعر لفظة (كل حين)، وهي تنضوي تحت معنى القسم الثاني من المبالغة وهو الإغراق⁽⁸³⁾، لأنها توافق العقل من حيث احتوائها معنى الاستمرار والتفاني والإخلاص في التعليم، لكنها تخالف العادة، فلا يمكن تحققها في الواقع، وإن حصلت فهي شاذة، والشاذ كما يقال يحفظ ولا يقاس عليه .

في حين أن المثل الثالث تضمن معنى الغلو وهو القسم الثالث من المبالغة⁽⁸⁴⁾، في تصنيف البلاغيين ، ذلك أن أطوريه أي حديه، ووصف الشخص ببلوغ حد العلم أمر لا يمكن تحققه لا عقلاً ولا عادة، مما جعله من باب الغلو في المبالغة حتى لو أن هذا الوصف-كما هو ظاهر- كان على سبيل التعظيم والتفخيم لشأن هذا الرجل.

ولو أن الغلو لم يكن محبباً لدى علماء البلاغة لأنه اعتبر تجاوزاً للحد الذي يراه العقل صحيحاً ومقبولاً ثم هو تجاوزاً لما اتفق عليه الناس وسارت عليه أعرافهم، وكل ذلك اعتبروه مغرماً غريباً مغالياً⁽⁸⁵⁾.

وكذلك كانت المبالغة في الأمثال مثلما جاءت في سائر الكلام شعره ونثره، بل كانت أشد وأكثر وجوداً في المثل على اختلاف أقسامها الثلاثة، لأن إطلاق المثل لا يتلاءم دائماً مع

(81) - خير الدين شمسى باشا ، معجم الأمثال العربية ، 1 / 410 ، 411 .

(82) - القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة ، ص 60 .

(83) - نفسه ، ص 60 .

(84) - نفسه ، ص 60.

(85) - عبد الإله سليم ، بنيات المشابهة في اللغة العربية، ص 18.

مورده فهو تلميح لمعنى يتضمنه في سبيل الدلالة على موقف يستحضره. والمبالغة من محاسن الكلام وبديعه إذ تبلغ إذ تبلغ بالمعنى شدة وضعفا حدا غير متناه(86).

لكن هناك من يراها غير ذلك ويردها، ذلك لا يعنينا في هذا المقام، إنما نسعى لأن نستشهد على وجودها في الأمثال، وقد كان لنا أن دللنا على ذلك في عدد من أمثال العرب التي هي قسم من كلامهم أودعوه ما أودعوا شعرهم من صور البيان وتتميق اللفظ وجمال الصنعة.

وما المبالغة إلا صورة من صور هذا الحسن البديعي، الذي يساهم بشطر كبير في إضفاء طابع دلالي خاص على كلامهم وعلى أمثالهم بصورة أدق، من حيث أن حوادث المثل الأصلية تتخذ أنموذجا فترد في قمة الوصف إعطاء العبرة ورسم المثل، وربما صورت الحل أحيانا.

ثم هي فوق كل ذلك كثيرا ما تحوي علاقة مشابهة مثلما وردت في (جشمت إليك عرق القرية) ، ذلك أنه شبه عرقه لطول جهده ومعاناته بعرق القرية الذي لا يكون والعرق عندها سيلان مائها.

4-2-2- التلميح:

وهو أن يشير ناظم هذا النوع في بيت أو قرينة سجع إلى قصة معلومة، أو نكتة مشهورة، أو بيت شعر حفظ لتواتره، أو إلى مثل سائر يجريه في كلامه على جهة التمثيل(87) وقد ورد في الأمثال العربية من ذلك نماذج عديدة لأناس لهم قصص مشهورة عرفت وسارت بين الناس حتى وضعت مثلا لكل ما قاربها وشابهها.

ولم تقتصر هذه القصص في الدلالة على أسماء الأشخاص فحسب، بل دلت على الحيوانات، كذلك وعلى غيرها من الأشياء وأسماء الأماكن، ومن ذلك نورد الأمثال الآتية:

* أَشَأْمُ مِنْ أَحْمَرَ عَادٍ(88)

* جَزَاءُ سِنْمَازٍ(89)

* لَا آتِيكَ الْقَارِظَ الْعَنْزِي(90)

* لَا نَاقَتِي فِي هَذَا وَلَا جَمَلِي(91)

(86) - عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية.....، ص513-514.

(87) - نفسه، ص458،457.

(88) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص459.

(89) - نفسه، ص386.

(90) - نفسه، ص473.

* مَوَاعِيدُ عَرْقُوبٍ⁽⁹²⁾

* أَشْأَمُ مِنَ الْبَسُوسِ⁽⁹³⁾

فالمثل الأول فيه إشارة إلى قصة عاد أي ثمود، وأحمر عاد هذا هو أحمر ثمود وهو قدار بين قديره وقديره أمه وأبوه سالف، وهو (أحمر عاد) الذي عقر ناقة النبي صالح عليه السلام، فأهلك الله بفعله ثمود⁽⁹⁴⁾.

وضرب به المثل في جلب الشؤم لقومه، وكذلك ضرب المثل بالبسوس خالة جساس بن مرة لأنها جرت قومها إلى حرب دامت أربعين سنة من أجل ناقة لها تسمى سراب، وسميت الحرب باسمها، فقيل حرب البسوس، ذلك أنها تركتها ترعى في حمى كليب بني وائل بن ربيعة أخ المهلهل (الشاعر المعروف) فرأها كليب وكان قد منع أن ترعى هي وغيرها في حماه فقتلها، فقتل جساس كليب غدرا بإيعاز من البسوس خالته واشتعل فتيل الحرب، فضرب بها المثل في الشؤم هي الأخرى.

والى نفس الحادثة ينسب المثل الرابع (لا ناقتي في هذا ولا جملي) وهو قول الحارث بن عباد عندما اتخذ الحياد في حرب البسوس، لكنه دخلها بعد ذلك مرغما بعدما قتل المهلهل ابنه جبير الذي بعثه والده من أجل الصلح بين بكر قوم جساس وتغلب قوم كليب.

أما (جزاء سنمار) فهو إشارة إلى ذلك المهندس الذي بنى قصر الخورنق للملك النعمان، فجازاه أن رماه من أعلى برج فيه خوفا من أن يبني مثله لغيره.

ويشير المثل الخامس (مواعيد عرقوب) إلى قصة عرقوب الذي أخلف وعده مع أقرب الناس إليه، مع أخيه بعدما وعده بأن يعطيه النخلة، وكان كلما طالبه بأن يفي بوعدته يتعلل له بسبب، فلما أطلعت قال دعها تصير بلحا ولما أبلحت قال دعها تصير رطبا، ولما أرطبت قال دعها تصير تمرا، ولما أتمرت جاءها ليلا وقطعها، فضرب به المثل بخلف الوعد.

أما المثل الثالث (لا آتيك القارظ العنزي) فإنه يشير إلى قصة القارظ العنزي الذي خرج في يوم ولم يعد إلى أهله، فلما ينس القوم من عودته صار يضرب به المثل في حدوث المستحيل، فيقال (لا أفعل كذا حتى إذا ما القارظ العنزي آبا)⁽⁹⁵⁾، وكذلك كانت حليلة وقصتها

(91) - نفسه، ص388.

(92) - نفسه، ص113.

(93) - نفسه، ص504.

(94) - خير الدين شمسي باشا، معجم الأمثال العربية، 1/299.

(95) - قصة ذلك بالتفصيل في معجم الأمثال العربية، 1/231.

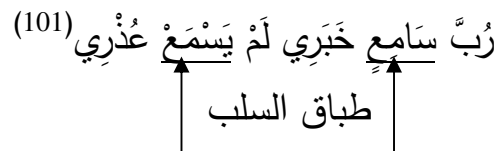
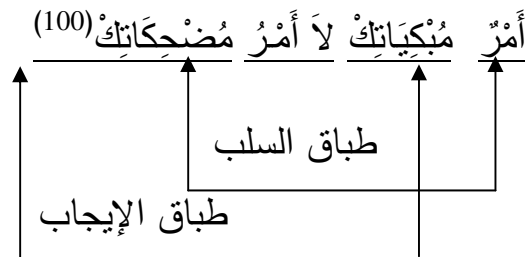
في قولهم (ما يوم حليلة بسر)⁽⁹⁶⁾، وأيضا قصة صحر وعقابها من دون ذنب اقتترفته في قولهم (مالي ذنب إلا ذنب صحر)⁽⁹⁷⁾.

ونخلص إلى أن هذا المحسن البديعي يعطي دلالة في نفسه ودلالة في استعماله، فهو بقصته يضيف للسامع معرفة بعدد من القصص التي عرفت قديما، واشتهرت لذبوع صيتها وجريانها مجرى المعرفة العامة، أما عن دلالة استعماله فإن تضمينها في الأمثال أعطاها أكثر شهرة وسارت مسرى الأمثال بين الناس وتداولوها.

ومن دلالاتها يكتسب المثل معناه وتجمل صورته، ويقول علماء البلاغة أن أبلغ التلميح ما حصل به زيادة في المعنى المقصود وسماه قوم التلميح بتقديم الميم (التلميح)، كأن الناظم أتى في بيته [أو في مثله] بنكتة زادته ملاحظة⁽⁹⁸⁾.

4-2-3- الطباق:

ولهذا المحسن مسميات أخرى كالمطابقة والتطبيق والتضاد، والطاق في اصطلاح رجال البديع الجمع بين الضدين أو بي الشيء وضده في كلام أو بيت شعر⁽⁹⁹⁾، أي هو الجمع بين الضدين في كلام واحد، وقد ورد كثير في الأمثال ونمثل له منها بما يأتي :



(96)- أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص127 وتفصيل قصتها في معجم الأمثال لعربية، 2310-2309/3

(97)- يمكن الإطلاع على قصتها في معجم الأمثال العربية، 2287/3.

(98)- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية.....، ص458، 457.

(99)- نفسه، ص495.

(100)- أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص319، 320.

(101)- نفسه، ص72.

نجد أن هذين المثلين يحتويان على نوعين من المطابقة أو الطباق ، ففي المثل الأول (أمر- لا أمر) طباق سلب لأن اللفظين لا يتضادان في المعنى إنما بزيادة لا النافية، أي أن الأول مثبت والثاني منفي، وهذا ما أعطاهما معنى التضاد الموجود بين النفي والاثبات. أما (مبكياتك- مضحكاتك) فإن البكاء والضحك لفظان متضادان في المعنى مباشرة، ويضرب هذا المثل في إساءة النصح لمن يعرف من يرشده ويصدق معه وتقول العامة في مثل ذلك (حُدْ رَأْيِي مِنْ يُبْكِيكَ وَلَا تَأْخُذْ رَأْيِي مِنْ يُضْحَكِكَ، اللَّيُّ يُضْحَكُكَ غَيْرُ يَضْحَكَ عَلَيْكَ). في حين جاء الطباق في المثل الثاني طباق سلب بين (سامع-لم يسمع) من حيث الأولى فيها معنى الإثبات والثانية فيها معنى النفي كان التضاد بين الإثبات والنفي، ونوعي الطباق هذين تحدّث عنهما علماء البلاغة، فالإيجابي هو ما صرّح فيه بإظهار الضدين ، والسلبى هو ما لم يصرح فيه بإظهار الضدين، أو ما اختلف فيه الضدان إيجاباً و سلباً⁽¹⁰²⁾، وهو ما ظهر في المثلين السابقين، أما الإيجابي فنمثل له بما يأتي:

* الْحَسَنَةُ بَيْنَ السَّيِّئَتَيْنِ⁽¹⁰³⁾

* الْحَوْرُ بَعْدَ الْكَوْرِ⁽¹⁰⁴⁾

* رُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ⁽¹⁰⁵⁾

* رُبَّ عَجَلَةٍ تَهْبُ رَيْئًا⁽¹⁰⁶⁾

(102)- عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية، ص498،497.

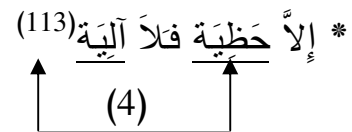
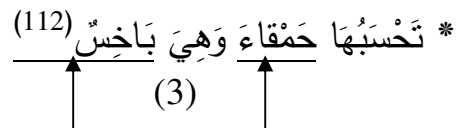
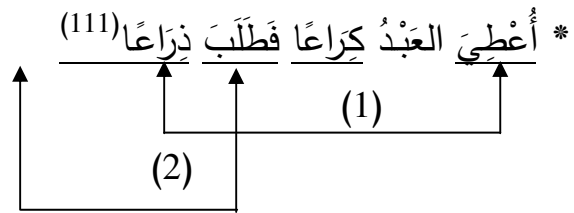
(103)- أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص317.

(104)- نفسه، ص175.

(105)- نفسه، ص287.

(106)- أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص335.

والطباق في كل هذه الأمثال من نوع الطباق الموجب وهو بين (الحسنة والسيئة)،
(الحر والكور)، (ساع وقاعد)، (عجلة وريث).
أما عن معنى ما ورد في هذه الأمثال ، فالحور في المثل الثاني بعد الكور هو
النقصان بعد الزيادة أو النقض بعد الإبرام⁽¹⁰⁷⁾، ويضرب للتراجع في الأمر، ويقال في لسان
العرب حار بعدما كار، وفي الحديث: "نعوذ بالله من الحور بعد الكور"⁽¹⁰⁸⁾.
والمثل الرابع يضرب للرجل يشدد حرصه على حاجته ويخرق فيها حتى تذهب⁽¹⁰⁹⁾، وهو
مثل حواربي لأنه مقتطع من سلسلة من الكلام فيما يظهر لأن الخرق أو الأفساد في الحاجة بعد
الحرص والتعجل في قضائها يعطي الاعتبار للترتيب في غيرها بعد ذلك.
وقد أشار البلاغيون فضلا على ذلك إلى نوع آخر من الطباق سموه بالإيهام بالتضاد
وهو أن يوهم لفظ الضد أنه ضد مع أنه ليس كذلك⁽¹¹⁰⁾، وقد وجدنا له نماذج من الأمثال
العربية اخترنا منها ما يأتي على سبيل الاستشهاد:



وأظن أن الكراع هو الرجل وهو أسفل الجسم مما يدل على سفلى المكانة ، والذراع هو
أعلى الجسم مما يدل على علو المكانة، وهو ما يدعو للإيهام بالتضاد بين اللفظين (كراعا-

(107)- خير الدين شمسي باشا ، معجم الأمثال العربية ، 1050/2، 1049.

(108)- نفسه، 1049/2، 1050.

(109)- نفسه، 1198/2-1200.

(110)- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية.....، ص497، 498.

(111)- أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص397.

(112)- نفسه، ص168.

(113)- نفسه، ص237.

ذراعاً)، كذلك بين (أعطي وطلب)، فالعطاء يكون بالمنح عن رضا النفس والطلب يكون بالسؤال والإلحاح، والسامع لذلك يحس بالتضاد بين اللفظين (أعطي) و(طلب).

وفي المثل الثاني بين حمقاء وبأخس، فالحمقاء هي التي لا تعرف شيئاً ولا تدرك، أما البأخس فهي الداهية ، ويظهر التضاد من خلال إطلاق المثل (تحسبها وهي ...) مما يوهم بمعنى التضاد إنطلاقاً من مقابلة الظن (تحسبها) لليقين (وهي).

وعلى منوال ذلك جاء المثل الثالث في المقابلة بين (آلية) و(حظية) ، حيث الحظية هي المحظوظة عند زوجها [لأنها تقوم بواجبها تجاهه]، والآلية المقصرة في واجبها إزاءه⁽¹¹⁴⁾ ويمكن أن نجعل (حظية- آلية) طباق بالنظر إلى صيغة المثل (إلا.... فلا....) أي (إن لم تكوني حظية فلا تكوني آلية)، وكأنه يجعل لها مرتبة بين المرتبتين.

والطباق بأنواعه الثلاثة يساهم في إجلاء المعاني وإيضاحها ، لأن الأشياء كما يقال بأضدادها تتضح وتظهر، فمقابلة الشيء لضده تجليه أكثر، فنحن لا نعرف الطويل إلا في مقابل القصير ولا الأسود إلا ويقابله الأبيض.

ولا بد أن هذا الطباق بوجوده في الأمثال يعطي معان أخرى تختلف عنها في غيره من الكلام، فهو فيها يعبر على تناقضات الحياة واختلاف الطبائع لعلاقة الأمثال الوطيدة بالحياة العربية، فهي تتبع منها وتوجه إليها ،لأنها مواقف لعدد من الناس مروا بها في مختلف أطوار حياتهم، ثم هي بعد ذلك تضرب لأناس آخرين في مواقف مشابهة لا لشيء إلا لأنهم استحضروها بحكم التشابه، فضلاً على أنها تسدي النصيحة أو تبين الخطأ أو تظهر الحكم على التصرف.

4-2-4- التورية:

ويقال لها الإيهام والتوجيه والتخيير، وهي من فنون البديع المعنوي، ومعناها في اصطلاح علماء البديع أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان ، قريب ظاهر غير مراد، وبعيد خفي هو المراد⁽¹¹⁵⁾.

وبالرغم من أن المعنى القريب غير مقصود دلالة اللفظ عليه ظاهرة ، والبعيد دلالة اللفظ عليه خفية ، فيظن السامع أن المعنى القريب هو المراد، إلا أن المتكلم قد جعل القرينة

(114) - خير الدين شمسى باشا ، معجم الأمثال العربية، 601،602/1.

(115) - عبد العزيز عنيق، في البلاغة العربية.....، ص540.

في كلامه لتدل على المعنى البعيد فهي تشير إليه ولا تظهره⁽¹¹⁶⁾، أي أن هناك قرينة يتضمنها الكلام لتدل على أن المعنى الذي يقصد ليس هو المعنى الظاهر إنما هو معنى خفي يريده هو، ويجب على السامع أن يفهمه .

ولأن الأمثال يلجأ فيها قائلها أحيان كثيرة إلى محاولة إخفاء مقصدها الحقيقي ، فإن التورية كانت سبيل ذلك فيها، وندل على ذلك بما يأتي من الأمثال:

* أَلْقِ دَلْوَكَ فِي الدِّلَاءِ⁽¹¹⁷⁾

* انْقَطِعَ قُوِيٌّ مِنْ قَاوِيَةٍ⁽¹¹⁸⁾

* جَاءَ بِإِحْدَى بَنَاتِ طَبِقٍ⁽¹¹⁹⁾

* جَاءَ فُلَانٌ يَنْفُضُ مِذْرَوِيَهُ⁽¹²⁰⁾

* سَمَّنَ كَلْبَكَ يَنْبَعَكَ⁽¹²¹⁾

* عَيْنِيَّةُ تُشْفِي الجَرَبَ⁽¹²²⁾

* إِنَّ البِعَاثَ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ⁽¹²³⁾

إن لفظة (الدلو) و (الدلاء) في المثل الأول لا تعني معناها الظاهر، إنما تستعمل للدلالة على ضرورة إبداء الرأي عند المناقشة مع الغير ، وقيل أن المقصود من هذا المثل الحث على طلب الرزق ، فكأن الرزق أرزاق تقسم ، ولكل نصيبه كما أن لكل دلوه يلقيه في الدلاء فيأتيه⁽¹²⁴⁾ ، وقرينة الإلقاء تظهر المعنى القريب للدلو .

والمثل الثاني يضرب في انقطاع صحبة الإخوان القرباء غير أن صيغة المثل (انقطاع قوي من قافية) غير ذلك، لأن المعنى الظاهر للمثل هو انقطاع الفرخ من البيضة عند الفقس، بينما المعنى الخفي هو ما قصد في مضرب المثل، كذلك في التورية كما أشرنا سابقا في اصطلاحها فيورى فيها معنى (يظهر) ويقصد معنى آخر (المعنى الخفي).

(116) - عبد الواحد حسن الشيخ، العلاقات الدلالية والتراث البلاغي، ص154.

(117) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص293.

(118) - نفسه، ص463.

(119) - نفسه، ص477.

(120) - نفسه، ص449.

(121) - نفسه، ص489.

(122) - نفسه، ص146.

(123) - نفسه، ص129.

(124) - خير الدين شمسي باشا، معجم الأمثال العربية، 521/1.

وبنات طبق في المثل الثالث هي الأفاعي، بينما المعنى المقصود هنا هي أن يأتي فلان بأمر داهية، ويبدو أن القرينة التي تمنع السامع من توقع المعنى الظاهر هو قول المتكلم (جاء).

كذلك المثل الرابع الذي ترد فيه لفظه مذرويه (وهي طرفا الآلة) التي يقصد بها اليدين، وقرينة امتناع ورود المعنى الظاهر في ذهن المستمع هو قول المتكلم (جاء فلان) أي بنسبة المذروين للإنسان، وبها يكون القصد هو اليدين.

وورود لفظه (الكلب) في المثل الخامس لا تعني معناها القريب إنما يقصد بها اللئيم الذي يتبعك متى رأى فيك الفائدة، والعنية في المثل السادس هي القطران، وقيل تعالج به الإبل إذا جربت⁽¹²⁵⁾، وقرينة منع ورود هذا المعنى في ذهن السامع هو موقفه الذي يضرب فيه إذ العينة يقصد بها الرأي السديد والهاء المتصلة ترجع على الرجل.

ولفظه البغات تعني كل ما يصاد من الطير واحدته بغاة⁽¹²⁶⁾، ويستتسر أي يصير نسرا، هذا معناه الظاهر، أما عن معناه المقصود فالذليل يتصل بالأعزاء فيعز بهم ودليل هذا المعنى الموقف الذي يضرب فيه، وهو ما يورى من المعنى.

والتورية تكون في المفرد (اللفظ المفرد) كما تكون في المركب، أي في التركيب⁽¹²⁷⁾، ففي المثل الأول والثاني والثالث والرابع جاءت التورية في اللفظ المفرد (الدلو والدلاء)، (قوي، قاوية)، (بنات طبق) و(مذرويه).

أما في المثل الخامس والسادس والسابع فقد جاءت التورية في التركيب لأن المعنى الظاهر أو المقصود لا يتم إلا بتمام التركيب (إن البغات بأرضنا يستتسر) (سمن كلبك يتبعك)، (عنيته تشفي الجرب)، وبذلك يكون المعنى القريب الحقيقي سائر للمعنى البعيد المجازي.

واستعمال القرينة هام جدا في التورية لأنها تساعد السامع على فهم مقصود الدلالة فتصرف ذهنه إلى المعنى البعيد دون القريب⁽¹²⁸⁾، وبالتالي يتحقق غرض قائل المثل من إلقائه بوضوح دلالاته ومعناه.

4-2-5- المشاكلة:

(125) - خير الدين شمسي باشا، معجم الأمثال العربية، 1590/2.

(126) - نفسه، 568/1.

(127) - عبد الواحد حسن الشيخ، العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي.....، ص156.

(128) - عبد الواحد حسن الشيخ، العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي.....، ص155، 154.

المشاكلة هي ذكر الشيء بلفظ غيره المصاحب له لوقوعه في صبحة ذلك الغير تحققاً أو تقديراً⁽¹²⁹⁾، وذكر اللفظ لغير الشيء الذي وضع له من باب الإنزياح أو العدول بالألفاظ على أصل وضعها لتستعمل للتعبير عن معنى آخر، وتدخل هنا الحقيقة والمجاز إذ ذكر الشيء بلفظ غيره لا يعبر عن الحقيقة ، إنما هو من باب المجاز، ونجد أن البديع هنا يتداخل مع المجاز كما يتداخل معه في التورية وغيرها.

والأمثال باحتوائها للمجاز بكل أنواعه ، وكذا لصور البديع تضمنت عددا من صور

المشاكلة نمثل لها بما يأتي:

* لأرَيْتَكَ لَمَحًا بَاصِرًا⁽¹³⁰⁾

* لَا يَجْتَمِعُ السِّيفَانِ فِي غَمْدٍ⁽¹³¹⁾

* لَوْ كَرِهْتَنِي يَمِينِي مَا صَحِبْتَنِي⁽¹³²⁾

* مَاتَ فُلَانٌ بِبِطْنَتِهِ لَمْ يَتَّعْضُضْ مِنْهَا شَيْءٌ⁽¹³³⁾

* النُّقْدُ عِنْدَ الْحَافِرِ⁽¹³⁴⁾

* هُمَا زِنْدَانٍ فِي وَعَاءٍ⁽¹³⁵⁾

* وَجَّهَ الْحَجَرَ وَجْهَةً مَالَهُ⁽¹³⁶⁾

* فُلَانٌ لَا يُعْوِي وَلَا يُنْبِحُ⁽¹³⁷⁾

إن في هذه الأمثال ألفاظا ذكرت لغير معانيها الموضوعة لها أصلا، وشكَّلت تشكيلا جديدا بأن أفرغت من معانيها الأصلية، ومأنت معاني جديدة اكتسبتها من سياق وضعت فيه وموقف ذكرت ضمنه، ومن ذلك (لمحا باصرا، السيفان ، يميني،بطنته، الحافر).

فاللمح الباصر هو البرق ، ويضرب للأمر الجلي الواضح ويقصد به هنا الإيعاد والوعيد بما لا يحب السامع، وما يدل على ذلك لفظة (لأرينك)، والسيفان هما الرجلان وكأني به يشبه الرجل بالسيف لصرامته وحكمه الجازم في الأمور، واليمين هي اليد بينما يقصد بها هنا صاحب الملازم لصاحبه ملازمة اليد لصاحبها، وقرينة ذلك أن اليد متصلة بالشخص فلا

(129) - نفسه، ص160.

(130) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص488.

(131) - نفسه، ص394.

(132) - نفسه، ص165.

(133) - نفسه، ص436.

(134) - نفسه، ص398.

(135) - نفسه، ص198.

(136) - نفسه، ص326.

(137) - نفسه، ص185.

يتركها، أما صاحب ففرد مستقل يمكن له الاستغناء عنه إذا مل من مصاحبتة، وقال اليمنى ولم يقل اليسرى لأنه لا يستغني عنها في فعل يقوم به ، كذلك حال صاحب القريب أكثر من غيره فهو موضع السر ومصدر الثقة.

والبطنة هي الشبع من الأكل في حين يقصد بها في هذا المثل الأجر الكامل والعمل الصالح لم يتغضض أي لم ينقص منه شيء، أي أنه مات وأجره كامل لم يدنسه ولم ينقصه ذنب اقترفه وقرينة هذه الدلالة لفظة مات التي صاحبت لفظة البطنة فأعطتها معنى مخالفا .

وكذلك الحافر لا يقصد به معناه وهو أصعب الدابة، بينما يقصد به أن البيع أي تقدير الدفع أو النقد أن البيع أو حين البيع مباشرة ، لا يفصله فاصل وقرينة هذه الدلالة للحافر لفظة النقد التي تعني وقوع البيع ، وتقول العامة أيضا (النَّدَابُ عِنْدُ رَأْسِ المَيْتِ) .

وكذلك كان ورود المشاكلة في الأمثال الثلاثة الأخرى، لأنه دائما يوجد اللفظ المصاحب الذي يكسب غيره دلالة جديدة، وبذلك يمكن القول أن المشاكلة هي عدول الالفاظ عن معانيها الأصلية لأنها تفرغ لها من محتواها المعنوي وملأها بمحتوى معنوي جديد أرادته صاحب القول ووضعه، ورسم له غرضا خاصا.

ولا بأس أن نشير أن علماء الدلالة قرنوا المشاكلة بالترادف، غير أنها تختلف عنه في كون معانيها القديم(الحقيقي) والجديد (يمكن تسميته بالمجازي) مختلفان في ذهن السامع، وهو في غاية الانتباه لهذه الحقيقة ، أما في الترادف فالمعنيان متقاربان بل ومتطابقان[...]. ، فالفروق كبيرة واضحة في المشاكلة [بين المعنيين]، رقيقة دقيقة وتموجة في الترادف⁽¹³⁸⁾.

والمشاكلة في الأمثال لها دور كبير من حيث كون مضرب المثل يختلف عن مورده، وإنما يضرب في مختلف المواقف للمقاربة، فنجد المثل الواحد يضرب في أكثر من موقف.

4-2-6- تأكيد المدح بما يشبه الذم أو العكس:

إن أول من فطن إلى هذا النوع من البديع المعنوي كان عبد الله بن المعتز، فقد عدّه في كتابه (البديع) من محاسن الكلام وسماه[بالاسم الذي ذكرناه] [...] ومن البلاغيين من يسميه الاستثناء[...].، إلا أن تسمية ابن المعتز له أدل في الواقع عليه من التسمية التي نسبت له فيما بعد(الاستثناء).⁽¹³⁹⁾

(138) - عبد الواحد حسن الشيخ، العلاقات الدلالية والبحث البلاغي، ص164.

(139) - عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية، ص582.

وتأكيد المدح بما يشبه الذم ضربان: أفضلهما أن تستثني من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيه، والثاني أن يثبت لشيء صفة مدح ، ويعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى له...⁽¹⁴⁰⁾، وقد ورد هذا النوع البديعي كثيرا في كلام العرب كما ورد في أمثالهم ونمثل له بما يأتي:

* هَوَتْ أُمُّهُ⁽¹⁴¹⁾

* لَنْ تَعْدِمَ الْحَسَنَاءُ ذَامًا⁽¹⁴²⁾

* إِنَّهُ لَشَرَّابٌ بِأَنْفَعِ⁽¹⁴³⁾

* الْقَيْدُ وَالرِّثْعَةُ⁽¹⁴⁴⁾

* إِنَّ مِنَ الْبَيَّانِ لَسِحْرًا⁽¹⁴⁵⁾

إن في هذه الأمثال الخمسة أسلوب يختلف عن المعهود، فمدح الأشياء والأشخاص يكون دائما بعبارات الثناء والشكر والتمجيد، غير أنها في هذه الأمثال وردت بصورة أخرى هي ذكر المثل في ضيغته الظاهرة في شكل ذم، إنما هو في الحقيقة يراد به المدح.

ففي المثل الأول (هوت أمه) يظهر أنه دعاء على الأم بأن تهوي أي تسقط، وذلك دعاء لا يستحب إنما موضعه ومضربه يختلف عن ذلك الظاهر، فهو يطلق ويراد به مدح المرء والدعاء له بالخير مثل قولهم: (لَا فُضَّ فُوكَ).

كذلك المثل الثاني يحوي لفظي (تعدم) (ذاما)، وهما لفظتان توحيان بالذم، وهوان الشيء ، إنما وجود النفي المتضمن في الأداة (لن) قبل الفعل (تعدم) يقلب الذم مدحا، ويمتد هذا المدح من الحاضر إلى المستقبل أي (لا تعدم في الماضي ولا تعدم في الحاضر ولن تعدم في المستقبل)، وذلك إشادة بحسنها ، لكن وجود الذام لها راجع إلى الكمال لا يكون لبشر أولا، ثم إلى كون الناس ينتقدون منك السيء والحسن ثانيا، وصدق من قال (إرضاء الناس غاية لا تدرك)، وتقول العامة في مثل ذلك (القمر فيه لوله والشمس فيها شهولة).

أيضا يظهر المثل الثالث ذما لصاحبه حين يقول (إنه لشراب بأنقع)، أي أنه كثير الشرب (شراب صيغة مبالغة على وزن فعَّال أي كثير الفعل)، وأنقع ج م نقع وهو الماء الراكد ،

(140) - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص75، 74.

(141) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص84.

(142) - نفسه، ص44.

(143) - نفسه، ص152.

(144) - نفسه، ص54.

(145) - نفسه، ص16.

ومنه المستتبع الذي يحوي الحشرات، وغيرها من الحيوانات الصغيرة، لكن حقيقة معنى هذا المثل هو مدح لصاحبه أي أنه مدرك لأمر الحياة وخبير بخباياها ، إلا أن ذلك لا يعني عدم استعماله أحيانا في ذم الشخص.

كما أن المثل الرابع يظهر في صيغته بمعنى ذم العيشة واستصعابها، وذلك ما تولده دلالة (القيد)، لكن لفظة (الرتعة) أعطت معنى جديد لهذه الصيغة ، حيث تحول من الذم إلى المدح ، إذ المدح هو اللازم في الموقف ، ففي المثل كناية عن الراحة واليسر وقد أوردنا هذا المثل بكثير من الشرح في باب الكناية.

ومثل ذلك ورد المثل الأخير (الخامس) (إن من البيان لسحرا)، وهو حديث نبوي، روي عن الرسول ﷺ في تحذيره من البيان لفعله في الناس فعل السحر الذي يقلب الخطأ صوابا والمكروه محبوب وهكذا ، فالرسول هنا يمدح البيان لكن بإظهار تحذيره من خلال تشبيهه إياه بالسحر، إلا أن أمر ذلك غير مطلق فيما يبدو ولأنه لم يقل (إن البيان لسحرا) إنما قال (إن من البيان لسحرا) أي منه السحر ، ومنه غير ذلك.

وفي مقابل تأكيد المدح بما يشبه الذم نجد عكسه أي تأكيد الذم بما يشبه المدح، وهو ضربان كذلك أحدهما أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم ، بتقدير دخولها ، وثانيهما أن يثبت للشيء صفة ذم ويعقب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى له⁽¹⁴⁶⁾، وهو مثل الذي سبقه وظف في الأمثال كثيرا ، ونستشهد له بعدد منها:

* دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُعَيْتِهَا *** وَأَفْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي⁽¹⁴⁷⁾

* كَالْفَاخِرَةِ بِحَدَجِ رَبَّتِهَا⁽¹⁴⁸⁾

* كُلُّ مُجْرٍ فِي الْخَلَاءِ يُسْرُ⁽¹⁴⁹⁾

* مَالِي وَاللَّشِيُوخِ النَّاهِضِينَ كَالْفُرُوحِ⁽¹⁵⁰⁾

* مُحْسِنَةٌ فَهَيْلِي⁽¹⁵¹⁾

* مَالَهُ بَدْمٌ وَمَالَهُ صَيُورٌ⁽¹⁵²⁾

(146) - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص77.

(147) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص250. والبين كما أشرنا ينسب للحطيئة (البيسط).

(148) - نفسه، ص401.

(149) - نفسه، ص203.

(150) - نفسه، ص290.

(151) - نفسه، ص306.

(152) - نفسه، ص188.

إن المثل الأول هو بيت شعري للحطيئة يهجو به الزبرقان بن بدر وخبره مشهور⁽¹⁵³⁾ إلا أن شطره الثاني (العجز) يظهر وكأنه مدح لوجود لفظتي (الطاعم) و(الكاسي)، وهما اسما فاعل في الصيغة لكن دلالتهما هما (المطعم) و(المكسو) على وزن مفعول، ودليل ذلك لفظة (أقعد) التي تسبقهما، والشطر الأول (الصدر) فهي نهي على وجه الازدراء والإهانة والتحقير (دع المكارم لا ترحل لبغيتها)، وذلك ما جعل البيت (المثل) مدح أريد به ذم أو تأكيد الذم بما يشبه المدح.

كذلك المثل الثاني الذي يحتوي لفظة (الفاخرة)، وتعني الافتخار، وذلك لا يكون إلا بشيء نمتلكه بينما هذه الفاخرة تفتخر بما لا تملك (حدج رتبها)، وذلك مما يعاب على المرء، وبحسب عليه ويذم به، والحدج هو المركب والربة هي السيدة⁽¹⁵⁴⁾، وذلك يدل على الذم بما يشبه المدح (الفاخرة).

وما يجعل هذا المثل يتصل بحياة العرب القديمة لفظة (الحدج)، وهو ما تركبه المرأة ويسمى أيضا الهودج يوضع على ظهر الناقة للسيدات من القوم، وكذلك لفظة (رتبها) أي كانت الأمة والسيدة فهو زمن العرب الأوائل، وغالبا ما ينتمي إلى ما قبل الإسلام مراعاة بما ذكر عن فترة نشوء الأمثال.

أيضا احتوى المثل الثالث لزم بصيغة مدح وهو (كل مجر في الخلاء يسرّ)، فلفظة (يسرّ) هنا تعني الفرح بالتالي الافتخار، وهو موضع المدح، لكن ما يقرب المعنى أن هذا الذي يجري إنما يجري في الخلاء ليس هناك من يسابقه فهو لا يسبق نفسه حاله حال الجبان في قول المتنبي:

وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانَ بِأَرْضٍ *** طَلَبَ الطَّعْنَ وَحَدَهُ وَالنَّزَالَ

فليس هناك من يقابله، فيعرف فضل غيره عليه، فالمثل إذن من باب الذم، والازدراء لهذا الذي يجري في الخلاء.

كذلك جاء المثل الرابع والخامس والسادس بصورة المدح وإفادة الذم الذي تعطيه دلالة المثل بالنظر إلى قصته الأصلية التي يرجع إليها أو الموقف الذي يضرب فيه.

ومما يظهر أن هذا المحسن سواء بتأكيد المدح بما يشبه الذم أو العكس يعطي للمعاني أكثر جمالا، إذ الأمور بأضدادها تتضح وتفهم، والصفات بمقابله بعضها تتجلى معانيها وتظهر

(153) - نفسه، ص 251.

(154) - نفسه، ص 401.

قيمتها ، فلا ندرك قيمة الخير إلا إذا قابل الشر، ولا الجميل إلا إذا قابل القبيح وهكذا، كما أن أثره يبدو بذلك أوقع في النفس خاصة طريقة الازدراء التي يلقي بها في مثل (أقعد فأنت الطاعم الكاسي).

4-2-7- الجمع:

وهو أن يجمع بين متعدد في حكم واحد أو أن يجمع المتكلم بين شيئين أو أكثر في حكم واحد كقوله تعالى: [المَالُ وَالْبُنُوتُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] (الكهف/46)⁽¹⁵⁵⁾ ، أي أن يجمع المتكلم الأمرين وبشركهما في حكم واحد ، وكثير ما ورد في كلام العرب مثلما ورد في الأمثال التي نستشهد بها فيما يأتي:

* خَيْرٌ مَا رُدَّ فِي أَهْلِ وَمَالٍ⁽¹⁵⁶⁾

* عَلَى بَدءِ الْخَيْرِ وَالْيَمَنِ⁽¹⁵⁷⁾

* فَتَى لَا يُحِبُّ الزَّادَ إِلَّا مِنَ النَّقَى *** وَلَا الْمَالَ إِلَّا مِنْ قَنَا وَسُيُوفٍ⁽¹⁵⁸⁾

* لَقِيْتُهُ أَوَّلَ صَوِّكَ وَبَوِّكَ⁽¹⁵⁹⁾

* لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِّ⁽¹⁶⁰⁾

* اللَّيْلُ وَأَهْضَامُ الْوَادِي⁽¹⁶¹⁾

* مَا دُقْتُ عِنْدَهُ عَبَكَةً وَلَا لَبَكَةً⁽¹⁶²⁾

ففي المثل الأول جمع بين الأهل والمال في حكم واحد (خير ما رد) ، ويظهر أن في هذا المثل حذف تقديره (جعل الله ما جئت خير ما رجعت به الغائب) أي أن رجوعك بصحتك وعفائك خير ما رد في مالك وأهلك.

كذلك جمع بين (الخير واليمن) وبين (القنا والسيوف) في المثل الثاني والثالث، ويبدو أن المثل الثاني يضرب في الدعاء بالخير للزوجين و(على بدء) أي على بدء الحياة فهو مقتطع من جزء أكبر، أو هو من حوار (مثل حوار).

(155)- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية.....، ص574، 573.

(156)- أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص78.

(157)- أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص82.

(158)- نفسه، ص155.

(159)- نفسه، ص507.

(160)- نفسه، ص98.

(161)- نفسه، ص322.

(162)- نفسه، ص400.

وجمع بين (الصوك والبوك) في المثل الرابع أي بين (أول مرة وأول شيء) على حسب ما ورد في اللسان من أن الصوك هو أول مرة والبوك هو أول شيء⁽¹⁶³⁾.

أما في المثل الخامس فقد جمع بين (اليدين والفم) لغرض الدعاء بالشر على الرجل أي أصابك الله في اليدين والفم، وخصهما بالدعاء لأنهما مصدر الأذى ، فاليدان يضرب بهما والفم يؤذي به كلاما.

ولا بد أن الجمع بين متعدد في حكم واحد له غرضه ، ذلك أنه يهدف إلى تأكيد الحكم الذي يجمع فيه هذا المتعدد، وربما المبالغة في تصوير المعنى الذي يحتويه ، فقولهم مثلا (ماذقت عنده عبكة ولا لبكة)، يظهر مدى بخل الرجل وإمساكه ، فهو يصور شكلا نموذجيا للبخل.

كذلك قولهم (الليل وأهضام الوادي) الذي يمكن أن يؤتى به للدعاء على من آذاك تقول له: (الليل وأهضام الوادي) أي (عليك الليل وأهضام الوادي) ، ولا يجب أن تقصد قولك، إنما تعني أنكى المصائب وأكثرها ضررا.

وقد رأى عدد من البلاغيين أن هذا المحسن البديعي (الجمع) قد يأتي مصاحبا لمحسّنات أخرى، فيرتبط معها ويشكل محسنات جديدة، وذكروا من ذلك (الجمع مع التقسيم) و (الجمع مع التفريق) و (الجمع مع التقسيم والتفريق)⁽¹⁶⁴⁾ ، ويمكن أن نمثل لذلك مما ورد في الأمثال العربية بما يأتي:

* عُشْبٌ وَلَا بَعِيرٌ⁽¹⁶⁵⁾

* مَرَعَى لَا أَكُولَةَ⁽¹⁶⁶⁾

* الْمَنِيَّةُ وَلَا الدِّنِيَّةُ⁽¹⁶⁷⁾

فهذه الأمثال تجمع بين الشينين (عشب، بعير)، (مرعى، أكولة)، (المنية، الدنية) لكنها تفرق بينهما بلا النافية ، وهذا التفريق يعني النفي في المثلين الأول والثاني والرفض في المثل الثالث، ذلك في الجمع مع التفريق .

أما في الجمع مع التقسيم فلا نكاد نعثر لمثل يتضمن ذلك، يبقى الجمع مع التقسيم والتفريق معا فنمثل له بقول العرب (لا يجتمع السيفان في غمد ولا الفحلان في نود)⁽¹⁶⁸⁾ وأيضا

(163) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (صوك)، مج10 ، ص458.

(164) - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص576-580.

(165) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص292.

(166) - نفسه، ص292.

(167) - نفسه، ص290.

قولهم (لَا أَبُوكَ نَشِيرَ وَلَا التُّرَابُ نَفَذٌ)⁽¹⁶⁹⁾، فالأول يضرب للرجلان القويان يختلفان في الأخلاق لا يتوافقان، والثاني يضرب في طلب مالا يجدي فعله أو أن يتساوى فعله وتركه معا، وفي المثلين جمع بين (السيفان، والفحلان) من جهة، وبين (أبوك و التراب) من جهة أخرى، لكن هذا الجمع فيه تفريق بلا النافية ثم تقسيم في جعل المثل بشطرين تربط بينهما واو العطف. ويبدو أن الغرض واحد في الجمع سواء كان لوحده أو مع التقسيم أو مع التفريق أو معهما معا.

4-2-8- التتميم :

وسماه أبو هلال العسكري بالتكميل، وقال فيه «أن توفي المعنى حظه من الجودة، وتعطيه نصيبه من الصحة [...]»، ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده ، أو لفظا يكون فيه توكيده إلا تذكره»⁽¹⁷⁰⁾، أي هو إتمام المعنى بكامله و تجويد صورته حتى لا ينقصها شيء، وللأمثال في ذلك حظ لا بأس به نمثل له بعدد منها جاء على شكل أبيات شعرية كما يأتي:

- * وَلِرَهْطِ حَرَابٍ وَقَدْ سُوْرَةٌ *** فِي الْمَجْدِ لَيْسَ غُرَابُهَا بِمُطَارٍ (171)
 * وَلَيْسَ عَنَابُ النَّاسِ لِلْمَرْءِ نَافِعًا *** إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ لُبٌّ يُعَانِيهِ (172)
 * يُدَكِّرُنِي حَامِيمٌ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ *** فَهَلَّا تَلَا حَامِيمٌ قَبْلَ التَّقَدُّمِ (173)
 * لَا تَنْتَهَ عَن خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ *** عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ (174)
 * تَأَنَّ وَلَا تَعْجَلْ بِلَوْمِكَ صَاحِبًا *** لَعَلَّ لَهُ عُذْرٌ وَأَنْتَ تَلُومُ (175)

فرهط وقدّ هما رجلان من بني أسد، وسورة تعني منزلة وفضيلة⁽¹⁷⁶⁾، أي أن معنى المثل الأول لرهط أو لقوم حراب وقدّ منزلة وفضيلة في المجد (ليس غرابها بمطار)، أي لا يطير غرابها وبها تم المثل واكتمل.

(168) - نفسه ، ص 394.

(169) - نفسه، ص 423.

(170) - أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين - الكتاب و الشعر - ، ص 434 .

(171) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 277 .

(172) - نفسه ، ص 273 .

(173) - نفسه ، ص 313 .

(174) - نفسه ، ص 93 .

(175) - نفسه ، ص 73 .

(176) - نفسه، ص 277 .

أما المثل الثاني فيضرب للرجل تعريضا به إذا لم يكن ممن يعرفون أخطائهم ويعاتبون أنفسهم ، فينفي جدوى عتاب الناس له، ويكمل معنى البيت بقوله (إذا لم يكن للمرء لب يعاتبه) أي ضمير مدرك يحاسبه و ينبهه متى أخطأ.

والمثل الثالث يضرب للتحسر على الشيء يمضي و الندم على عدم إدراكه، وذلك يظهر (فهلا) أي (لماذا لم)، و قد روي أن هذا البيت قاله قاتل محمد بن طلحة ابن عبدة الله يوم الجمل (177)، ويظهر تمام المعنى بالشرط الثاني (العجز) الذي يبين ندم القاتل على حسب ما أظنه.

وفي المثل الرابع حث على إتيان المرء بما ينهي الناس عن الإتيان به، ويظهر أن هذا المثل فيه معنى التوبيخ الذي به يتم معنى البيت (عار عليك إذا فعلت عظيم)، فهو بداية ينهي عن إعاية خلق على شخص والإتيان بمثله، ويوضح ذلك النهي أكثر بالتوبيخ في الشرط الثاني.

وكذلك جاء المثل الخامس حيث ابتدأ بطلب التأيي وعدم التعجل في إلقاء الأحكام ثم بين سبب هذا الذي يطلبه في البيت نفسه (شطره الثاني) بقوله (لعل له عذرا و أنت تلوم)، وبذلك اكتمل المعنى و تم و زاد البيت جودة و تماسكا من حيث ارتباط الشرط الثاني بالشرط الأول .

4-2-9 الإيغال :

وعرفه أبو هلال العسكري بقوله : «وهو أن يستوفي معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحا و شرحا و توكيدا وحسنا» (178) أي أن معنى الكلام يتم قبل تمام عبارته ، وأن ما يلحق من العبارة يجوز حذفه، إنما يؤتى به ليزيد الكلام وضوحا وحسنا و جمالا، ونجد منه في الأمثال ما يأتي :

* الصَمْتُ حُكْمٌ وَقَلِيلٌ فَأَعْلُهُ (179)

* العَصَا مِنَ العُصِيَّةِ وَالْأَفْعَى بِنْتُ الحَيَّةِ (180)

* عَيْرٌ بُجَيْرٌ بَجْرَهُ ، نَسِيٌّ بُجَيْرٌ حَبْرَهُ (181)

(177) - نفسه ، ص 313 .

(178) - أبو هلال العسكري ، الصناعتين..... ، ص 422 .

(179) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 30 .

(180) - نفسه ، ص 221 .

(181) - نفسه ، ص 93 .

* مَا أَنْتِ إِلَّا كَابِنَةُ الْجَبَلِ مَهْمَا يَقُلْ تَقُلْ (182)

* مَا يَعْرِفُ فُلَانٌ الْحَوَّ مِنَ اللَّوِّ وَالْحَيِّ مِنَ اللَّيِّ (183)

* مَنْ غَابَ خَابَ وَأَكَلَ نَصِيْبُهُ الْأَصْحَابَ (184)

فالمثل الأول ينتهي معناه عند (الصمت حكم) ، و المراد بالحكم هنا الحكمة، لأنه يمنع صاحبه من التورط في الأثم والعنت وغيره (185)، وذلك لما عرف من فائدة الصمت، و(قليل فاعله) زيادة لا يضير المثل أن تحذف، إضافتها تجليه أكثر وتوضحه، لأن العالم بقيمة الصمت قليل حقا فلولا لرأينا الصمت يخيم على الناس .

وفي المثل الثاني نجد أن شطره الأول هو ما يحمل الدلالة و المعنى إذ يصلح أن يكون وهو فعلا مثل في ذاته (العصا من العصية)، والشطر الثاني إيضاح للصورة والمعنى، وكأنه يقول (العصا من العصية مثلما هي الأفعى بنت الحية)، وهو إيضاح لطبيعة العلاقة بين العصا والعصية.

كذلك في المثل الثالث جاء الشطر الأول منه دالا على محتواه ومقصده (عير بجير بجره) أي عير الأبحر غيره من ليس به بجر يبجره الذي به ونسب إليه داءه ، أما شطره الثاني (نسي بجير خبره) فهو تعقيب تعريض - إن صح القول - بما فعله بجير مع غيره يمكن الإستغناء عنه في المثل، فنقول (عير بجير بجره).

وعلى منوال الأمثال الثلاثة وردت الأمثال البقية إذ المثل الرابع يكمل المعنى عند (ما أنت إلا كابنة الجبل)، وابنة الجبل هي الصدى إذ هو كالصدى يردد كلام غيره ولا رأي له. وأيضا المثل الخامس مكررا من حيث المعنى في الشطرين ، مع اختلاف في الألفاظ مما يجعل الشطر الأول دالا على المعنى لوحده دون الحاجة إلى الشطر الثاني ، إنما أضيف لزيادة الوضوح والجلاء ، و تقول العامة في مثل ذلك المعنى (ما يعرف كوعو من بوعو) أي (لا يعرف كوعه من بوعه) ، والكوع معروف أما البوع فهو موضع اتصال الأصابع بالكف ، و يضرب هذا المثل في الإستجهال ونفي العلم عن المرء .

(182) - نفسه ، ص 189 .

(183) - نفسه ، ص 515 .

(184) - نفسه ، ص 452 .

(185) - خير الدين شمسي باشا ، معجم الأمثال العربية ، 1441/2 .

والمثل السادس ينتهي معناه عند (من غاب خاب)، وتأتي عبارة (وأكل نصيبه الأصحاب) زيادة في معناه تعطيه وضوحاً وجلاءً ، و يرد في ذات المعنى المثل الشعبي القائل (الحاضر أعطوه و الغائب أنسوه و النائم غطوه).

وبالإيغال نكون قد أتينا على ختام المحسنات البديعية الدلالية ، لكن هذا لا يعني استثناء جميع جوانبه، بل إننا اختصرنا بعضها و أدمجناها في بعض، فالغلو مثلا و الإغراق و التبليغ أدمجناها في المبالغة، والتفريق والجمع مع التقسيم و الجمع مع التفريق و الجمع مع التقسيم والتفريق أدمجناها في الجمع و هكذا، كما لم نذكر بعضها لأننا فيما نحسب لم نجد في الأمثال التي تحويها المدونة ما يدل عليها كاللف والنشر والعكس والإلتفات ... وغيرها .

و يمكن القول أن هذه الصور هي من العوامل التي تؤدي إلى تبدل المعنى وانزلاقه ، لذلك وجب على من يعالج الألوان البلاغية خاصة البيانية و البديعية أن يتعامل معها من خلال منظور علم الدلالة (186) ، و هذا ما حاولنا جاهدين تفصيله من خلال شرح المثل و التعرض لضربه و القضية . إن أمكن . و ربط كل ذلك بموقف وروده أو مدى مساهمة الصورة البديعية في رسم دلالاته، سواء على ثباتها أو بتغييرها بدلالة أخرى يدل عليها السياق الذي تستعمل فيه ، إذ البلاغة تقوم على فكرة لكل مقام مقال ، والتي تشير إلى اتخاذ المعنى كقاعدة أساسية تبني عليها (187) .

4-3- محسنات صوتية دلالية :

مما يظهر من تسمية هذه المجموعة من المحسنات البديعية أنها ترتبط بالجانب الصوتي النغمي من جهة، و بالجانب الدلالي المعنوي من جهة أخرى ، و ليس ذلك الأمر بالغريب لأن وجود أصوات معينة يدل دلالات معينة ، ثم إن الكلام ندركه أولاً بالأصوات ثم نتدبر في معانيه ، ومن هذه المحسنات نورد ما يأتي :

4-3-1 المقابلة :

وهي محسن بديعي اختلف في تعريفه الكثيرون، فقد عرفا العسكري بقوله:«المقابلة إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة ، فأما ما كان منها في

(186) - عبد الواحد حسن الشيخ ، العلاقات الدلالية و البحث البلاغي العربي ، ص 16 ، 17 .

(187) - نفسه ، ص 19 .

المعنى فهو مقابلة الفعل بالفعل [...]مثاله قوله تعالى: [فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا](النمل/52) ، فخواء بيوتهم وخرابها بالعذاب مقابلة لظلمهم [...].، ونحو قوله تعالى [أيضاً]:[وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرْنَا مَكْرًا] (النمل /50) [...].،فهذا مقابلة باللفظ والمعنى ... « (188).

في حين أن الخطيب القزويني أدخل ما يخص المقابلة في المطابقة (الطباقي) وقال: « وهو أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم بما يقابلها، أو يقابلها على الترتيب، والمراد بالتوافق خلاف لتقابل ، وقد تتركب المقابلة من طباقي و ملحق به»(189)

ويضيف صاحب (الإشارات والتنبيهات) عن ذلك أنها يمكن أن تكون ثنائية أو ثلاثية أو رباعية أو خماسية (190) .

ولا بد - فيما أحسبه- أن هناك فرق بين المطابقة و المقابلة، ورغم عدم وضوحه أحيانا للبعض إلا أنه يجب أن يراعى في التفريق بينهما، ذلك أن التقابل إذا كان بين أمرين اثنين فهو طباقي (مطابقة)، وما زاد عنه فهو مقابلة ، ونرى أن هذا الفرق من شأنه أن يرسم الحدود بين المقابلة والمطابقة فيقف دون تداخلهما ، وما دام الأمر كذلك فيبقى أن نمثل للمقابلة ، و ما دما في بحثنا هذا نقصر على الأمثال العربية ، فلا بأس من أن نأخذ منها بعض المقابلة التي وردت فيها ومن ذلك ما يأتي :

* الْحَمْدُ مَغْنَمٌ	وَ الْمَذْمَةُ مَغْرَمٌ (191)
مغرم ≠ مغنم (1)	
	الحمد ≠ المذمة (2)

* أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا	وَأَبْغَضُ بَغِيضِكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا (192)
(أحبب ≠ أبغض) (1)	حبيبك ≠ بغيضك (2)
	مكرر (حبيبك ≠ بغيضك)

(188) - أبو هلال العسكري ، الصنائع ، ص 371 ، 372 .

(189) - الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ص 16 .

(190) - محمد بن علي بن محمد الجرجاني ، الإشارات و التنبيهات في علم البلاغة ، ص 238 ، 239 .

(191) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 241 .

(192) - نفسه ، ص 264 .

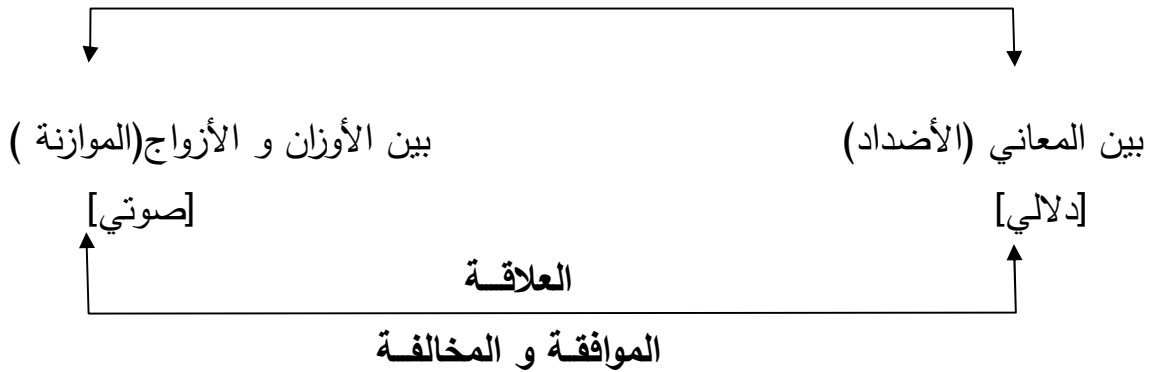
ومتلما نلاحظ فإن المثليين احتويا مقابلتين ، ففي الأول كانت بين (الحمد و المذمة) مطابقة من جهة، وبين (مغرم و مغرم) مطابقة ثانية من جهة أخرى، وقلنا في تعريف المقابلة أن ما زاد عن الضدين في الكلام فهو مقابلة .

كذلك الأمر في الحديث النبوي (المثل الثاني) فنجد في شطره الأول طباقا بين (حبيبك، بغيضك)، وبإضافة الشطر الثاني نجد هذا الطباق تكرر ثانية وأضيف له طباق آخر بين (أحب ، أبغض) مما يخرج من دائرة المطابقة إلى دائرة المقابلة لتعدد الأضداد فيه .

و ما زاد المثل جمالا في النطق به تلك المناسبة بين الألفاظ (حبيبك ، بغيضك) (هونا، يوما) ، (أحب ،أبغض) ، وبفعل توزع هذه المفردات على كل المساحة التركيبية التي يحتلها المثل (أحب حبيبك هونا بغيضك يوما و أبغض بغيضك هونا حبيبك يوما)، مما أكسب نطق المثل طابعا صوتيا موسيقيا فريدا قلما نجده في الكلام ،وليس ذلك بغريب لأنه ورد على لسان من هو قمة البلاغة و البيان بعد الله سبحانه و تعالى.

ويمكن التعبير عن كل ما ذكرنا بشأن المقابلة بالترسيمة التي اقترحها محمد العمري في كتابه (الموازنات الصوتية) وهي بالشكل الآتي :

المقابلة (193)



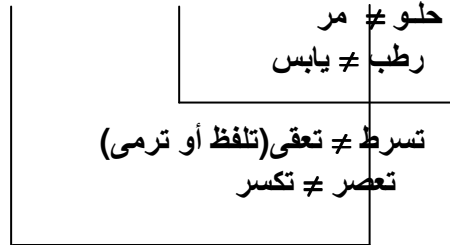
فعلاقة الموافقة تكون بين الأزواج أو الثنائيات من حيث الأصوات، وهي في مثلينا (حبيبك ، بغيضك) (أحب،أبغض)، (مغرم ، مغرم)، أما علاقة المخالفة فتكون بين المعاني المتضادة .

وكذلك كانت المقابلة في الأمثال التي سوف نوردتها فيما يأتي :

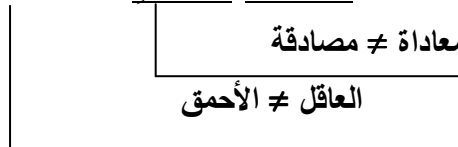
(193) - محمد العمري ، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية و الممارسة الشعرية ، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة و الشعر ، ص 23 (و قد أضفنا إليها إضافات على ما وردت عليه في كتاب العمري) .

* لَا تَكُنْ حُلُوًّا فَتُسْرَطَ وَ لَا مَرًّا فَتُنْعَى (194)

* لَا تَكُنْ رَطْبًا فَتُعْصَرَ وَ لَا يَابِسًا فَتُكْسَرَ (195)



* مُعَادَاةُ الْعَاقِلِ خَيْرٌ مِنْ مُصَادَقَةِ الْأَحْمَقِ (196)



ونميز في هذه الأمثال أيضا عدد من الثنائيات الضدية تعادل ثنائيتين في كل مثل مما يظهر المقابلات التي تحتويها هذه الأمثال، والتي هي كما سبق التمثيل في المثليين الأولين موازنة بين الأصوات والأزواج، ثم هي إلى جانب ذلك تضاد بين الدلالات .
ويبدو أن الأمثال الثلاثة عبارة عن نصائح، فالأول والثاني فيه معنى التوسط والاعتدال حيث يحث على إلزام الوسط في كل الأمور، أما المثل الثالث فيقول الزمخشري في معناه أن العاقل لا يضع الشيء في غير موضعه والأحمق ربما أراد نفعك فضررك (197)، وقال المنتبي في ذات المعنى (198) :

وَمِنَ الْعَدَاوَةِ مَا يَنَالُكَ نَفْعُهُ *** وَمِنَ الصَّدَاقَةِ مَا يُضِرُّ وَيُؤْلِمُ (الكامل)

فالمقابلة إذ هي تزوج بين مكونين مكون صوتي ومكون دلالي، فالأول يظهر في الألفاظ ومدى موافقتها لبعضها من حيث البناء الظاهري أو التركيبي، والثاني يبدو في علاقة المخالفة (التضاد) التي تربط بين المفردات ضمن التركيب الواحد أو بين التركيبات المتجاورة.

(194) – أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 316 .

(195) – نفسه ، ص 317 .

(196) – نفسه ، ص 187 .

(197) – خير الدين شمسي باشا ، معجم الأمثال العربية ، 3 / 2372 .

(198) – أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 187 .

والمميز في كل الأمثال التي تناولناها أن المقابلة فيها كانت ثنائية و لم تتجاوز ذلك ، رغم أن علماء البديع يرون أن أعلى درجات المقابلة وأبلغها هو ما كثرت فيه عدد المقابلات، لكن شريطة أن لا يكون بها تكلف (199).

4-3-2 التقسيم :

التقسيم فن من فنون البديع المعنوي ، ومن أوائل من عرض له أبو هلال العسكري وفسره بقوله:«التقسيم الصحيح أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه ولا يخرج منها من أجناسه [...] فمن ذلك قوله تعالى: [هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا] (الرعد/12)، وهذا أحسن تقسيم لأن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع ليس فيهم ثالث» (200).

ويورد العمري أن التقسيم قسيم المقابلة -على حد قول ابن رشيق- لأنه هو الآخر ذو شقين : دلالي وصوتي (201)، ذلك أن تقسيم الكلام إلى مقاطع متساوية يصنع موازنة صوتية بين هذه المقاطع، وستشهد لذلك بعدد من الأمثال العربية -باعتبارها موضوع البحث- التي رسمت صورة التقسيم في صيغتها :

* إِذَا وَقِيَ الرَّجُلُ شَرًّا لَفَلَقَهُ وَقَبْقَبِهِ وَدَبْدَبِهِ فَقَدْ وَقِيَ (202)

* الرَّجَالُ ثَلَاثَةٌ : رَجُلٌ ذُو عَقْلٍ وَرَأْيٍ، وَرَجُلٌ إِذَا حَزَّ بِهِ أَمْرٌ أَتَى دَا رَأْيٍ فَاسْتَشَارَهُ، وَرَجُلٌ حَائِرٌ بَائِرٌ لَا يَأْتَمُرُ رَشْدًا وَ لَا يَطِيعُ مَرَشْدًا (203)

* شَهْرٌ نَرَى وَشَهْرٌ نَرَى وَشَهْرٌ مَرَعَى (204)

* مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءُ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ الرَّجُلِ مِنْ طَعَامِهِ مَا أَقَامَ صُلْبَهُ، فَإِنْ أَبَى فَنَلْتُ طَعَامًا وَتَلْتُ شَرَابًا وَتَلْتُ نَفْسَ (205)

فالمثل الأول مثلا يمكن تحليله وفق الترسيمة التي وضعها العمري للتقسيم (206)، كما

يأتي :

(199)- عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية ، ص 508 .

(200)- أبو هلال العسكري ، الناعتين ، ص 375 .

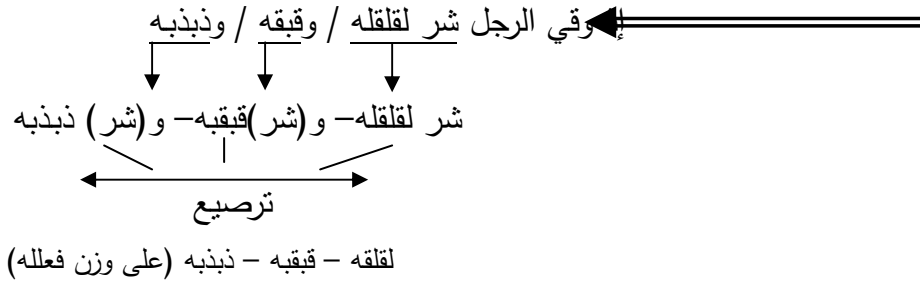
(201)- محمد العمري ، الموازنات الصوتية ، ص 26 .

(202)- أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 27 .

(203)- نفسه ، ص 329 .

(204)- نفسه ، ص 119 .

(205)- نفسه ، ص 409 .



وقيل أن في المثل حذف ، ذلك أن أصله (إذا وقى الرجل شر لقلقه و قبقبه وذذبه فقد وقى [الشر كله])، ولكن المثل في صيغته الأولى قد استوفى معناه لأن عبارة (فقد وقى) تدل على الحذف دون ذكره ، فالقلق هو اللسان و القبقب هو البطن و الذذب هو الفرج (207).

وهذا المثل كما أوضحنا في الشكل السابق يقسم تلقائياً إلى ثلاثة مقاطع، الأول (إذا وقى الرجل شر لقلقه) ، والثاني (قبقبه) ، والثالث (ذذبه) ، وعلى تقدير المعنى يمكن أن يكون المقطع الثاني (وشر قبقبه)، ويكون الثالث (شر ذذبه)، ويظهر في أن المقاطع الثلاثة متساوية في حجم المعنى أو كميته، حيث كل مقطع يساوي غيره في المعنى، أو هي تتقاسم المعنى الكلي للمثل ، فكل من القلق والقبقب والذذب مجلب شر لصاحبه ، كما تتساوى هذه المقاطع في عدد الكلمات وحتى أوزانها (كما أشرنا في التحليل).

كذلك قسم المثل الثاني إلى أقسام ثلاثة مما دل عليه قوله (الرجال ثلاثة) ، إلا أن هذا التقسيم يختلف عما ورد عليه في المثل الأول ، فهو تقسيم من حيث المعاني أكثر من الألفاظ، وحسب التوافق اللفظي بدأ كل مقطع من التقسيم بنفس اللفظة (رجل)، فالأول ذو عقل ورأي يحكم بهما، والثاني يفتقر للعقل والرأي لكنه يقبل المشورة من ذوي العقول المتفتحة، والثالث (حائر بائر) لا رأي له ولا مشورة .

ويبدو أن من أعطى هذا التقسيم هو رجل مدرك للأمور عالم بخباياها كيف لا والمثل

يروى لعمر بن الخطاب Ψ وهو من هو في تاريخ الإسلام وبين عظمائه.

(206) - محمد العمري ، الموازنات الصوتية ، ص 27 .

(207) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 27 .

أما المثل الثالث فنجد فيه تقسيم المثل الأول من حيث تساوي مقاطعه صوتيا، وتكامل معانيها لأن القائل يقصد به أشهر الربيع الثلاثة فيقول : شهر ثرى (أي ممطر)، والثرى هو الأرض المبتلة، وشهر ترى أي تمطر السماء فينمو الزرع وتراه ، وشهر مرعى أي ينمو الزرع فيطول وترعاه الغنم (208) .

فمقاطع المثل الثلاثة متساوية من حيث عدد المفردات المكونة لكل مقطع (شهر ثرى) ، (شهر ترى) ، (شهر مرعى)، ومتوازنة صوتيا (شهر مكررة ثلاثة مرات ، مرة في كل مقطع) و (لفظة ثرى و ترى و مرعى لها نفس الطابع النطقي) ، كما أنها تنتهي بنفس الفاصلة في كل مقطع (الألف المقصورة)، وهذا ما يجعل فواصلها تشكل موسيقى متتالية متألفة.

في حين أن المثل الرابع - حديث نبوي - جاء التقسيم في آخره، وهو ثلاثة مقاطع قصيرة (ثلث طعام) و (ثلث شراب) و (ثلث نفس) يصور الرسول ρ فيه كفاية ابن آدم من الأكل والشرب والنفس ، فيقول في بداية الحديث (ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن)، وتقديره أشر من بطنه ، وفيه صيغة مبالغة على وزن أفعل التفضيل ، ثم يتبعها بقوله ، (حسب الرجل من طعامه ما أقام صلبه)، أي يكفيه من الطعام ما جعله يمشي مستقيماً أي ما كفى حاجته . وينصح بعد ذلك بقدر الطعام الكافي في الجزء الأخير من الحديث قائلاً (فإن أباي فثلث طعام و ثلث شراب و ثلث نفس)، فهو بذلك يقسم بطن الإنسان إلى ثلاثة أقسام و يجعل قسم للطعام و قسم ثاني للشراب و قسم أخير للنفس، وذلك تقسيم حكيم لرجل عرف بالحكمة و رجاحة العقل .

والكلام في هذا الجزء الأخير بدوره يقسم إلى ثلاثة أقسام أو ثلاثة مقاطع -حاله حال البطن- متساوية من حيث عدد المفردات و أوزانها و حركاتها أي في جانبها الصوتي ، ثم هي مع ذلك متكاملة من حيث معناها ، فإذا ما ذكرنا المقطع الأول (فثلث طعام) وتوقفنا أحسننا أن الكلام ناقص وجب تكملة، وهذا الحديث للرسول ρ يقابل حديثاً آخر وهو قوله: "نحن قوم لا نأكل حتى نجوع فإذا أكلنا لا نشبع" .

4-3-3- أسلوب الحكيم :

(208) - خير الدين شمسى باشا ، معجم الأمثال العربية ، 2 / 1397 .

ولعل أول من فطن إليه الجاحظ وأطلق عليه تسمية القول الموجب ، كما سماه الجاحظ اللغز في الجواب ، و عرفه القزويني بتسمية القول بالموجب « أنه ضربان ؛ أحدهما أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم فتثبت في كلامك تلك الصفة لغير ذلك الشيء ومن غير تعرض لثبوت ذلك الحكم أو انتفائه عنه، كقوله تعالى: [يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزَّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ] (المنافقون / 8)، والثاني حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه» (209).

وقيل يقصد بأسلوب الحكيم تلقي المخاطب بغير ما يترقبه ، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله ، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد إشارة إلى أنه كان ينبغي أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى (210)، و قد ورد في الأمثال العربية ما يشبه ذلك أو يقاربه مما يمثل له بما يأتي :

* أَفْرِخْ رَوْعَكَ (211)

* إِنَّ لِلَّهِ جُنُودًا مِنْهَا الْعَسَلُ (212)

* كُلُّ الصَّيِّدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا (213)

* لَوْ تُرِكَ الْقَطَا لَيَلَّا لِنَامَ (214)

* مَا أَنَا مِنْ دُدٍّ وَ لَا الدُّدَ مِنِّي (215)

* هُدْنَةٌ عَلَى دَخْنٍ وَجَمَاعَةٌ عَلَى إِفْدَاءٍ (216)

* وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ (217)

ففي كل مثل من الأمثال السبعة لغز يتضمنه لا يفهم إلا بالعودة إلى أصل إطلاقه ، فالأفراخ في المثل الأول استعمل في غير موضعه ليحمل كناية في قول معاوية في كتابه لزيادة بن أبيه (218)، مشيرا بها إلى طمأننته و إبعاد الخوف عليه لما كان يظنه ، كذلك جعل معاوية

(209) - الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ص 86 ، 87 .

(210) - عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية ، ص 600 .

(211) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 63 .

(212) - نفسه ، ص 98 .

(213) - نفسه ، ص 10 .

(214) - نفسه ، 384 .

(215) - نفسه ، ص 393 .

(216) - أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص 9 .

(217) - نفسه، ص 9 .

(218) - خير الدين شمسي باشا ، معجم الأمثال العربية ، 446/1 .

بن أبي سفيان العسل من جنود الله ليخفي شماته كانت في نفسه تجاه الأشر النخعي الذي أمر بقتله⁽²¹⁹⁾، واستعمل الرسول ρ عبارة المثل الثالث قاصدا منها تجنب لوم أبي سفيان ، فلم ينهره ولكن حاول بقوله ذلك كسبه للإسلام⁽²²⁰⁾.

أيضا جاء المثل الرابع في الرجل يحمل صاحبه على ما ليس من شأنه بالإكراه والظلم ، فيقارب قائله بين تنبه القطا لأدنى حركة و حساسية الرجل المستقيم للإكراه والظلم والرسول في المثل الخامس والسادس والسابع يكتفي على عدد من الصفات والأقوال، فالدد هو اللعب⁽²²¹⁾ نفيه للصفة عن شخصية إثبات لجدية موقفه في كل ما جاء به في الدين، كناية على أنه ليس ممن يلعبون بما يقولون و لا اللعب من شيمته، والدخن هو الدخان، والأفذاء الوسخ يكون في العين و الشراب⁽²²²⁾، ومعناه أن الهدنة على غير صحة والجماعة على غير موافقة بين أفرادها ، وفيه كناية على صفاء الظاهر تنافيه عداوة القلوب .

كما أنه أجاب من سأله عن الدنيا وزينتها بغير مباشرة ، فصوّر له الدنيا في صورة الربيع لأنها في بهجتها وجمالها تشبه الربيع في بهجة مجيئة وجمال أزهاره ، وأن ما ينبته قد يقتل حبطا [يقصد التخمّة] فتهلك الماشية⁽²²³⁾ ، وكذلك حال العباد في الدنيا ، فإن لم يعرف كل منا كفايته فأقبل عليها على غير هدى يأخذ ما يمكنه منها غير مراعاة فيه لا حرمة ولا حراما ولا نظاما، أدى به كل ذلك إلى الهلاك ، فإن لم يكن في الدنيا فبعد موته يوم تكشف الخبايا و يخرج المستور ، فكل نفس كما قال تعالى: [لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ] (البقرة / 286) .

وبذلك يكون النبي ρ قد أجاب عن سؤال السائل دون الحديث المباشر، واكسب كلامه -فوق معناه - جمالا بلاغيا يتمثل في هذا التشبيه التمثيلي العجيب و الجميل في آن واحد ، وهو فضلا على ذلك مجيد في تصوير المراد و توضيحه و تفصيله. فأسلوب الحكيم إذن مفاجأة للسامع ، وهو فوق كل ذلك أسلوب جميل ومعنى أجمل توشح به القطع الأدبية سواء منها النثرية أو الشعرية .

4-3-4 الاقتباس :

(219) - نفسه، 1 / 603 ، 604 .

(220) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص

(221) - نفسه، ص 393 .

(222) - وقيل أن الدخن هو فساد القلب ، أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (المدونة) ، ص 09 .

(223) - نفسه ، ص 09 .

والاقتباس هو أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية، أو آية من كتاب الله خاصة ، وهو على نوعين: نوع لا يخرج به المقتبس عن معناه، كقول الحريري: (فلم يكن إلا كلمح البصر)، ونوع يخرج به المقتبس عن معناه (224).

وقال الخطيب القزويني: « أما الاقتباس فهو أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث لا على أنه منه » (225)، أي أن الاقتباس هو أن يأخذ المتكلم شيئاً من القرآن أو الحديث ويجعله في كلامه ، سواء جاء ذلك كلمة واحدة أو عبارة ، دون أن يكون مقصوداً لذاته أي أنه لا يورد على أنه قرآن أو حديث إنما يضمن الكلام فقط ، وسنشهد لذلك بما جاء في الأمثال العربية باعتبارها كلاماً كسائر الكلام بل هي أكمله وأجزه كما وصفها القدماء، ومنها نورد ما يأتي :

* أَخْبِرْ مَنْ شِئْتَ تَقْلِهِ (226)

* حَدَّثَ حَدِيثَيْنِ الْمَرْأَةِ فَإِنْ لَمْ تَفْهَمْ فَأَرْعَا (227)

* الرِّفْقُ يُمْنٌ وَالْحَرْقُ سُؤْمٌ (228)

* هُمْ سَوَاءٌ كَأَسْتَانَ الْمُشْطِ (229)

* هُوَ إِمْعَةٌ (230)

* إِنِّي أَكَلْتُ لَحْمِي وَلَا أَدْعُهُ لِأَكْلِي (231)

* لَا يَجْنِي عَلَيْكَ وَلَا تَجْنِي عَلَيْهِ (232)

* وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ أَحَقُّ بِطُولِ سَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ (233)

* يَا حَرَزًا وَأَنْبَعْنِي النَّوَافِلَا (234)

* يَذْكُرُنِي حَامِيمٌ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ *** فَهَلَا تَلَا حَامِيمٌ قَبْلَ التَّقَدُّمِ (235)

(224) - عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية ، ص 457 .

(225) - الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، 137/6 .

(226) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 391 .

(227) - نفسه ، ص 50 .

(228) - نفسه ، ص 328 .

(229) - نفسه ، ص 197 .

(230) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 188 .

(231) - نفسه ، ص 213 .

(232) - نفسه ، ص 386 .

(233) - نفسه ، ص 21 .

(234) - نفسه ، ص 293 .

(235) - نفسه ، ص 313 .

وهذه عشرة نماذج عن الاقتباس في الأمثال العربية مقسمة إلى قسمين بحسب مصدر

اقتباسها :

أ- اقتباس من الحديث النبوي الشريف و يشمل الأمثال الخمسة الأولى .

ب- اقتباس من القرآن الكريم و يمثل الأمثال الخمسة الثانية .

فالمثل الأول مقتبس من قوله ρ: «أخبر تقله»، وحكي في تفسيره قيل إذا خبرت

[الناس] بدا لك من أكثرهم ما لا ترضى منهم حتى تقلبهم⁽²³⁶⁾، أي امتحنهم يظهر لك ما

يوجب قلوبهم و القلى البغض، ويضرب في توقع قلة الخير من الناس .

والمثل الثاني مقتبس من قوله ρ : «حدث حديثين المرأة فإن أبت فأربع»⁽²³⁷⁾، وأربع

هنا تعني أسكت، لأنها إن لم تفهم من الحديثين فلن تفهم من أكثر، وقيل (حدث حديثين المرأة

فإن لم تفهم فأربعة لا تفهما) .

كذلك كان المثل الثالث من قوله ρ : «الرفق يمن و الخرق شؤم»⁽²³⁸⁾، و الرفق ضد

العنف، واليمن البركة ، والخرق الحماقة والغلظة مع الخشونة أي العنف، والشؤم ضد اليمن

⁽²³⁹⁾ ، ويضرب الأمر بحسن التدبير والنهي عن الخرق فيه .

والمثل الرابع مقتبس من حديثه ρ: " الناس سواء كأسنان المشط و إنما يتفاضلون

بالعافية"، وزيد فيه في رواية أخرى: " ... ولا خير في صحبة من لا يعرف لك مثل ما تعرف

له"⁽²⁴⁰⁾، ويضرب في المساواة بين الناس ليس في الدنيا إنما في الآخرة أمام الله سبحانه

وتعالى .

والمثل الخامس (هو إمعة) ورد في حديث الرسول ρ عن الرجل يتبع غيره في آرائهم،

وكلما قال الناس قال هو أنا معكم، ودلالة ذلك ضعف الشخصية ، وجاء في الحديث: "إذا وقع

الناس في الشر فلا تكن إمعة"⁽²⁴¹⁾.

(236) - أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان ، كتاب الأمثال في الحديث النبوي ، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد ، الدار السلفية ، بومباي ، الهند ، 1987 ، الطبعة الثانية ، ص 155 ، 156 .

(237) - نفسه ، ص 410 .

(238) - نفسه ، ص 260 ، 261 .

(239) - خير الدين شمسي باشا ، معجم الأمثال العربية ، 1245/2 .

(240) - أبو محمد عبد الله محمد بن جعفر بن حيان ، كتاب الأمثال في الحديث النبوي ، ص 203 ، 204 .

(241) - خير الدين شمسي باشا ، معجم الأمثال العربية ، 2645/3 .

أما المثل السادس فقد جاء مقتبسا بعض كلماته من القرآن الكريم، فلفظة (أكل) ولفظه (لحمي) مقتبسة من قوله تعالى: [.. أَيْحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ] (الحجرات/ 12)، وأكل اللحم هنا بمعنى الغيبة، أي الحديث بعيوب الناس في غيابهم. والمثل السابع (لا يجني عليك و لا تجني عليه) فيه معنى الآية: [لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى] (فاطر/18) والمثل هنا لم يقتبس بلفظه وإنما اقتبس بمعناه، وقيل أنه حديث مرفوع قاله الرسول ﷺ في معنى أن لكل مسؤوليته في ما يفعل .

كذلك المثل الثامن فيه اقتباس من كتاب الله (والذي لا إله غيره)، وفيه قسم بالله تعالى، وهو قريب من عبارة (الله الذي لا إله هو)، التي وردت في سورة البقرة، وسميت بآيات الكرسي: [اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ...] (البقرة/255).

وجاءت لفظة (النوافل) أيضا في المثل التاسع ، وقد وردت أول مرة في القرآن الكريم في التعبير في ما زيد عن الفرض، وحكمه أنه إذا قام به المسلم يجازى، وإذا تركه لا يعاقب ، وقد وردت لفظة نافلة بهذا المعنى في قوله تعالى [وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا] (الإسراء / 79) .

وأیضا لفظة (حاميم) التي وردت في البيت الشعري مقتبسة من القرآن الكريم حيث نجدها في أوائل عدد من السور القرآنية (حم)، ومن تلك السور (غافر، فصلت، الشورى الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف)، وهي سور مكية، وقد ذكر أن هذه الحروف المتراكبة لم تفسر بمعنى معين، إنما نسبت إلى إعجاز القرآن ، فلا يعلم معناها غيره سبحانه .

وليست هذه نماذج الاقتباس الوحيدة الواردة في الأمثال، وإنما أخذت على سبيل التمثيل

فقط، وهذا الاقتباس إنما هو موجود لأن عددا من أحاديث النبي ﷺ صارت أمثالا تتوارد بين الناس لأنها تعالج قضايا مختلفة من حياتهم تعطي الحكم فيها .

أما بالنسبة للاقتباس من القرآن ففي غالبه لم يكن إقتباسا من كتاب الله بل هي ألفاظ و عبارات عرفتھا العرب و جاءت في كتاب الله لأنه يجمع كل كلامهم، وهو أيضا تحد لهم، لأن العدد الأكبر من الأمثال نشأ في الفترة الجاهلية أي قبل مجيء الإسلام و نزول القرآن.

أما عن غرض توظيف هذا الاقتباس فهو لجمال لفظي فيه و لقيمة معنوية به، ثم لأن القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف أصبحا مصدران من مصادر اللغة و الأدب بعد مجيء الإسلام ، لما وفراه من ثروة لغوية زادت العرب غنا و ثراء لما كانوا يملكونه قبل ذلك .

4-3-5 المذهب الكلامي :

والمذهب الكلامي نوع كبير من أنواع البديع المعنوي ، وقد عده ابن المعتز أحد الفنون البديعية الخمسة الأساسية التي بن عليها كتابه البديع ، ولكن ابن المعتز لم يذكر مفهوم الجاحظ لهذا الفن البديعي كما أنه لم يحاول هو تحديده، وكل ما فعله أنه ذكر بعض من الأمثلة له (242).

وقال الخطيب القزويني بشأنه هو: « أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام كقوله تعالى: [لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا] (الأنبياء / 22) » (243)، ورغم ذلك لم يكثر علماء البلاغة الحديث عنه ولا تعريفه وتفسيره، إلا أنني أحسبه ورد في الأمثال كما ورد في غيرها، لأن الجاحظ جعلها إلى جانب الخطابة مما يوجب البلاغة ويقف شاهدا عليها في كلام العرب ، ونحن فيما يأتي نستشهد لهذا المحسن البديعي - على عدم وضوحه - بعدد من الأمثال نظنها تمثل له :

- * أَكْذِبُ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثَتْهَا *** إِنَّ صِدْقَ النَّفْسِ يُزْرِي بِالْأَمَلِ (244)
- * أَمَلَكُ النَّاسِ لِنَفْسِهِ مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ عَن صَدِيقِهِ وَخَلِيلِهِ (245)
- * الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْإِثْمُ مَا حَكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ (246)
- * شَاهِدُ الْبُغْضِ اللَّحْظُ (247)
- * لَا تَحْقِرَنَّ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ صِلَةَ الْحَبْلِ (248)
- * لَا يَخْلُو رَجُلٌ بِمَغِيْبَةٍ إِنْ قِيلَ حَمُوَهَا ، أَلَّا حَمُوَهَا الْمَوْتُ (249)

وقد جعلنا هذه الأمثال شواهد لهذا المحسن البديعي، لأنه فيما يظهر يرد في كل منها دليل الحكم أو حجته ، ففي المثل الأول (بيت شعري)، يأتي الصدر على شكل أمر يرد به النصح (أكذب النفس إذا حدثتها) ثم يورد دليل ذلك و حجته أي لما يجب أن نكذب النفس في حديثنا لها ، ذلك أن صدقها يزري بالأمل أو يحبط وهذا ما احتواه عجز البيت الشعري .

(242) - عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية..... ، ص 588 ، 589 .

(243) - الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، 65/6 .

(244) - أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، ص 173 .

(245) - نفسه ، ص 59 .

(246) - نفسه ، ص 310 .

(247) - نفسه ، ص 486 .

(248) - نفسه ، ص 249 .

(249) - نفسه ، ص 160 .

كذلك المثل الثاني يمكن تقسيم عبارته إلى حكم و دليل، فالحكم هو أملك الناس لنفسه، أي من يوصف من الناس بأنه مالك لنفسه أي متحكم فيها لا يمسك غيره عنه زلة ولا خطأ ، وجود دليل هذا الملك للنفس في شطر المثل الثاني (من كتم سره من صديقه و خليله)، لأن السر مما يؤدي والصديق أو الخليل ممن لا يؤتمن على الدوام، وورد مثل هذا الدليل في مثل سابق-تتضمنه المدونة- (سراك أسيرك فإذا نطقت به أصبحت أسيره)⁽²⁵⁰⁾ .

والمثل الثالث يصف البر بحسن الخلق، ثم يذكر الإثم ولا يصفه بشيء إنما يدل عليه بأنه ماحك في الصدر أي ما حز كمثل السكين في الصدر أو في النفس، ودليله الآخر أن تكره أن يطلع الناس عليه أي أن يصيبك الحرج لمجرد إحساسك أن غيرك يمكن أن يعرفه.

وأيضاً جاء المثل الرابع (شاهد البغض للحظ) أي أن النظر والعين، مما يدل على البغض مثلما يدل على الحب ويقال (رب لحظ أنم من لفظ)، إذ العين تدل على ما يضمه المرء في نفسه، وقال علي- كرم الله وجهه - في إحدى حكمه (ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في صفحات وجهه وقلبات لسانه)، ولا أظنه يقصد بصفحات الوجه إلا العين، إذ هي أنم عضو على ما يخفيه الإنسان .

كما أن المثل الخامس فيه معنى الحث على صنع المعروف و لو بالأمر الضئيل، فهو في شطره الأول ينصح بعدم إحتقار المعروف مهما صغر شأنه (لا تحقرن شيئاً من المعروف) ، و يدل على ذلك بصلة الحبل وهي أقل وأهون ما يعطى أو يقدم للغير .

أما المثل السادس ففيه نهي عن اختلاء الرجل بمن غاب زوجها أي لا ينفرد رجل بامرأة ، و يدل على هذا النهي بقوله (وإن قيل حموها ألا حموها الموت)، وفي ذلك دلالة الإلزام بهذا النهي لقرب الحما من المرأة إذ هو بمثابة الأب في قربه ، ويقال في مثل هذا المعنى (ما خلى رجل بامرأة إلا كان ثالثهما شيطاناً) لما للشيطان من دلالة الخيانة والشر .

واختلف المختصون بالبلاغة تجاه هذا المحسن البديعي (المذهب الكلامي)، إذ وصفه بعضهم بالتكلف ونسبه إليه، وقال عنه البعض الآخر أنه أبلغ ما عرف في البلاغة وهو طريقة المتكلمين في حديثه بأن يورد الحجج والأدلة⁽²⁵¹⁾ .

(250)- نفسه، ص 58 .

(251)- عبد العزيز عتيق ، فن البلاغة العربية ، ص 588- 592 .

5- خلاصة عامة للفصل :

في ختام هذا الفصل كان لا بد لنا أن نشير إلى عدد من الاستنتاجات التي ترتبط بوجود البديع في كلام العرب بوصفه صورة للجمال الظاهر الذي يبدو جليا في اللفظ وتتميقه فضلا على ما يتضمنه من معنى راقى وقيم ، هذا بالنظر إلى سائر الكلام ، أما وإن هذه الدراسة تخص نوعا مميزا من أنواع هذا الكلام ألا وهو المثل فيجب أن تكون مركزة حوله وكل النتائج المستخلصة لا بد أن تخصه على غير سواه.

فالمثل بوجود البديع - بكل صورة - يكتسي طابعا جماليا و نغما موسيقيا مميزا إذا ما تعلق هذا البديع بصورة اللفظ و صوته كالسجع و الجناس، ثم هو يؤدي دورا في توصيل المعنى للمتلقي بكونه يحمل رسالة كغيره من أنواع الكلام الأخرى (كالشعر، القصة ...) . وهذا التجزيء الذي يمارسه البديع بمختلف صورته في بنية المثل وتركيبه هو تجزيء للمعاني المكونة له قبل أن يكون تجزيئا للألفاظ ، غير أن هذا التجزيء سرعان ما يتحول إلى وسيلة ربط تتكامل فيها معاني المفردات المكونة لصيغة المثل لتتجمع في المعنى الكلي الذي تتضمنه هذه البنية الظاهرة .

وهي -أي صورة البديع- فوق كل ذلك تجعل هذا المعنى يتشكل تشكيلا جديدا تصاحبه موسيقى خاصة تجعل من المثل بنية صوتية مميزة، يحسها السامع و يطرب لها بصورة تنفرد عن ما سواها مما يحمل مثل هذه الموسيقى كالشعر .

ولأن البديع ينسب في بعض المصادر إلى الإبداع ولكون المثل صورة للإبداع العربي ، فقد تزوج هذا مع ذلك في تشكيل لغوي رائع يحمل مضمونا معنويا أروع ، مما ضمن لهذا الشكل الإبداعي المثلي رواجاً وذبوع بين الناس، فهو أي المثل : إضافة إلى أنه يحمل هذا الجمال التشكيلي الظاهر في بنية صوتية متميزة ، هو أيضا ينبثق من صميم الحياة العربية و يعالج قضاياها ، ويوظف ألفاظها ويصور مظاهرها ويحمل ضمنه تشكيلة فكرية معينة تعبر عما يفهمه العربي آنذاك ويفكر فيه ، والأمثال العربية تنتمي في نشوئها -في خطها الأكبر- إلى الفترة الجاهلية ، ويبقى القسم الأقل منها مما صورته أحاديث الرسول التي سارت بين المسلمين وأصبحت أمثالا تضرب في مختلف المواقف والظروف إلى جانب عدد من أقوال الخلفاء والصحابه والتابعين كعمر وعلي بن أبي طالب وغيرهم .

المدخل:

المثل العربي من المشافهة إلى التدوين والدراسة

- 1- تعريف المثل.
- 2- الفرق بين المثل والحكمة والقول السائر
- 3- المثل وعلاقته بالحياة العربية.
- 4- المثل مادة للتأليف عند العرب.
- 5- توظيف المثل في القرآن الكريم
- 6- المثل موضوع البحث والدراسة.
- 7- المدونة موضوع البحث (تنظيمها وقيمتها)

1- تعريف المثل:

يطلق المثل في اللغة على الشيء الذي يضرب لشيء مثلاً، فيجعل مثله، يقال تمثّل فلان: ضَرَبَ مثلاً، ، وتمثّل بالشيء ضربه مثلاً، والمِثْلُ والمَثَلُ كالمَثَلِ والجمع أمثال⁽¹⁾، قال تعالى: [والله المَثَلُ الأَعْلَى] (النحل/60) ، يريد أنه سبحانه أمر عباده بتوحيده ونفي كل إله سواه، فالمثل الأعلى (هنا) التوحيد الخالص، والصفات الإلهية العليا التي لا ينازعه فيها أحد⁽²⁾.

والمِثْلُ بكسر الميم الشبه ، يقال مِثْلٌ ومَثِيلٌ وشَبَهُ وشَبَّهُ بمعنى واحد ، كما ورد في قوله تعالى: [ليس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ] (الشورى/11) ، أراد ليس كذاته شيء فالنفي المطلق يؤكد على حقيقة وحدانيته وبنزاهه عن النظير والمثيل جل وعلا⁽³⁾.

وفي حديث المقدم أن رسول الله ﷺ قال: " أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ" ، قال ابن الأثير [في تفسير ذلك]: وهذا يحتمل وجهين من التأويل ، أحدهما أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو مثل ما أعطى من الظاهر المتلو، والثاني أنه أوتي الكتاب وحياً وأوتي من البيان مثله أي أَنْ له أن يبين ما في الكتاب فيعم [به] ويخص ويزيد وينقص فيكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن⁽⁴⁾.

ونقول مَثَلُ الشَيْءِ يَمَثُلُ مَثُلاً ، قام منتصباً ، ومثل بين يديه مثولاً أي انتصب قائماً، ومنه قيل لمنارة المسرجة مائلة ، وورد في الحديث الشريف: " مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَمَثُلَ لَهُ النّاسُ قِيَامًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ" ⁽⁵⁾، وهو [أي المائل] من الأضداد ، يكون المائل القائم، ويكون اللاطئ بالأرض⁽⁶⁾.

فعبّر بلفظ الأمر (فليتَّبِعُوا) وقصد معنى الخبر لتقرير استحقيقه دخول النار، والتحذير من تلك الصفة التي تؤدي بأصحابها للهلاك ، وهكذا تتصل الدلالة اللغوية للمثل بالعنصر الحركي التصويري.

ومن معاني المثل في اللغة أيضاً المدح والثناء ، ومنه قالوا: مَثَلُ الرجل يَمَثُلُ مَثَالَةً إذا فَضَّلَ وَحَسَّنَ حاله ، فالمثالة حسن الحال ، والمَثِيلُ: الرجل الفاضل، والأَمَثَلُ، الأفضل ،

(1) - ابن منظور، لسان العرب، دار الصادر، بيروت، لبنان، ط1 (1410هـ-1990م) ط2 (1412هـ-1992م) ط3 (1414هـ-1994م) ، مج11، مادة(مثل) ، ص611.

(2) - نفسه، ص611.

(3) - نفسه، ص610.

(4) - نفسه، ص610-611.

(5) - نفسه، ص614.

(6) محمد بن القاسم الأنباري، كتاب الأضداد ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ، لبنان، 1407هـ-1987م، ص288.

وهو أمثل قومه أي أفضلهم ، وفلان أمثل بني فلان، أدناهم إلى الخير، وهؤلاء أمثال القوم أي خيارهم⁽⁷⁾.

وورد كذلك في قوله عز وجل: [وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى] (طه/63)، وقال أيضا: [إذ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا] (طه/104)، والطريقة المثلى هاهنا أشبه بالحق، ومعنى الأمثل ذو الفضل والصواب، الذي أمثل القوم وأفضلهم⁽⁸⁾.

والتمثال الصورة المصورة ، والجمع تماثيل، وفي ثوبه تماثيل أي صور حيوانات[...].، ومثّل له الشيء صورّه حتى كأنه ينظر إليه ، وأمثله هو[أي] تصوره ، مثّلت له كذا تمثيلا إذا صورت له مثالة بكتابة وغيرها⁽⁹⁾.

فالأصل في كلمة مثل كما نرى مستمدة من دلالة حسية تتعلق بالشخص والأشكال المنحوتة والصور والرسوم وغيرها.

أما في الاصطلاح فقد قال المرزوقي في معنى المثل: « المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها ، أو مرسلة بذاتها، تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول ، فتنتقل عما وردت فيه إلى كل ما يصلح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها ، وعما يوجبها الظاهر إلى أشباهه من المعاني ، فلذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها، واستجيز من الحذف ومضارع ضرورات الشعر فيها ما لا يستجاز في سائر الكلام»⁽¹⁰⁾.

فالمثل عند المرزوقي إذن هو جملة موجزة في أصلها ، مما يعطيها سمة القبول، والشيوخ بفعل التداول ، ويطلق في موقف موافق أو مشابه لحادثته الأصلية، دون تغيير يذكر في صيغته اللفظية ويستجاز فيه ما لا يستجاز في غيره من الكلام.

أما الفارابي فعرفه بقوله: « المثل ما تراضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتى ابتذلوه[ذاع وشاع بينهم] فيما بينهم، وفاهوا به في السراء والضراء، واستدروا به الممتع من الدر(جواهر الكلام)، ووصلوا إلى المطالب القصية، وتفرجوا عن الكرب والمكربة، وهو ابلغ الحكمة لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة ، أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة»⁽¹¹⁾.

(7)- ابن منظور، لسان العرب ، مادة (مثل)، مج 11، ص 613.

(8)- محمود السيد حسن، التعبير اللغوي في أمثال القرآن، المكتب الجامعي الحديث الازاريطة ، الاسكندري، مصر 2001، ص 20.

(9)- الفيومي ، المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت ، 1987، ص .

(10)- عبد الرحمان جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة، شرحه وضيّبه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه محمد

أحمد جاد المولى- علي محمد البجاوي- محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الجيل ، بيروت، لبنان، 486/487/1.

(11) عبد الرحمان جلال السيوطي، المزهري في علوم اللغة، 486/1.

ونخلص إلى أن المثل قول موجز العبارة، بليغ القصد، صدر عن العامة وارتضته في حياتها ، وقد جاء معبرا عن تصرفاتهم تجاه مواقف اعترضتهم ، فينشأ في البداية عن قصة أصلية أو حادثة تدعى (مورد المثل) ، ويضرب بعد ذلك في موقف معين أو حادثة مشابهة أو مقارنة بوجه ما للحادثة الأصلية والتي تسمى بدورها (مضرب المثل).

والمثل كلمة لها أصل لغوي ، ويراد بها في الاستعمال القول المقتضب المشهور الذي تتداوله السنة الناس وينزل بموقع في أذهانهم لفشوه وانتشاره، فيصير في أفضليته وبيانه كالعلامة أو الشاهد الذي يقاس عليه، فكأنه يجعل مقياسا لغيره⁽¹²⁾.

والأمثال بعدّها رموزا وإشارات يلوح بها على المعاني تلويحا ، صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصارا ، ومن أجل ذلك قيل في حد المثل-أيضا- إنه القول الوجيز المرسل ليعمل عليه، وحيث هو بهذه المثابة فلا ينبغي الإخلال بمعرفته⁽¹³⁾.

2- الفرق بين المثل والحكمة والقول السائر:

إذا انتقلنا من مجال التعريف إلى إطار الاستعمال وجدنا تداخلا في الكثير من الأحيان بين مصطلحات ثلاثة هي المثل ، الحكمة، والقول السائر، إلا أن ذلك لا يعني تطابقها ، فبينها فارق في المعنى ولو كان غير واضح في الاستعمال.

فالمثل والحكمة قد يتطابقان في الكثير من تعريفاتهما، وذلك لوجود نوع من التشابه بينهما ، فهي-أي الحكمة- ترتبط به ارتباطا وثيقا لوحدة الغرض الذي جعل لكل منهما، حتى أن كتب الأمثال لا تكاد تميّز بينهما .

إن أكثر المؤلفين ممن مارسوا الكتابة في مثل ذلك يعدون الأمثال حكما والحكم أمثالا⁽¹⁴⁾، إلى حد أننا نجد أبا عبيد القاسم بن سلام في مقدمة كتابه(الأمثال)- فيما أورده أبو عبيد البكري-: « هذا كتاب (الأمثال) وهي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها ، فتبلغ بها من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خصال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه»⁽¹⁵⁾.

(12) محمود السيد حسن، التعبير اللغوي في أمثال القرآن ، ص18.

(13) ابن الأثير ، المثل السائر، تحقيق محمود محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان، 1995، 41، 42/1.

(14) خير الدين شمسى باشا، معجم الأمثال العربية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 1423هـ-2002م، 11/1.

(15) - عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، المزهرة في علوم اللغة، 1/

وقال ابن وهب: «وأما الأمثال فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضرِبون الأمثال ، ويبينوا للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشباه والأمثال، ، ويرون هذا النوع من القول أنجع مطلبا ، وأقرب مذهبا، ولذلك جعلت القدماء أكثر آدابها ومادونته من علومها بالأمثال والقصاص»⁽¹⁶⁾.

وأضاف الزمخشري في ذلك قوله: « هي قسارى فصاحة العرب العرياء، وجوامع كلمها، ونوادِر حكمها، وبيضة منطقها، وزبدة حوارها وبلاغتها، حيث أوجزت اللفظ وأشبعَت المعنى وقصرت العبارة ، فأطالت المغزى ، ولوحت فأفرغت في التصريح وكننت ، فأغنت عن الإفصاح»⁽¹⁷⁾.

وهكذا نجدهم تحدثوا عن المثل والحكمة معا فلم يفرقوا بينهما، رغم وجود فارق نجمله في عدد من النقاط نوردُها كما يأتي:

إن المثل يتحدث عن حاجات الإنسان ، ويمس شخصيته، معتمدا على حادثة معينة ويضرب في مواقف مماثلة أو مشابهة له مع إمكان أن تكون الحادثة التي ضرب لها خيالية خاصة في الأمثال التي تروى على لسان ما لا ينطق من حيوان أو جماد⁽¹⁸⁾.

كما يمكن أن تكون وقعت فعلا أو هي محض تجربة حدثت أو أسطورة رويت أو خرافة حكيت، فضلا على أنها قد ترتبط بيوم من أيام العرب في الجاهلية-خاصة- والأمثلة على ذلك كثيرة⁽¹⁹⁾.

إلى جانب أن المثل يرد في الأغلب الأعم ارتجالا وعفو خاطر، يخاطب العاطفة بأسلوب سهل نندوقه بيسر معتمدا على التمثيل والتشبيه ، تشوبه الفكاهة، وقد تكون أحيانا ساخرة ، ومرات قليلة فاحشة⁽²⁰⁾.

أما الحكمة ، فهي القول الذي يحمل مع إيجازه معنى صائبا مستتبطا من التفكير والتأمل، معتمدا أحيانا على شيء من الفلسفة، لا على حادثة أو قصة كالمثل، والحكمة فضلا على ذلك تخاطب العقل بأسلوب تغلب عليه الرصانة والجد، وقد تبلغ حد الوعظ أمرا ونهيا ، غير معتمد على التمثيل والتصوير، بل هو واقعي كأسلوب الحكماء الذين خبروا الحياة وأدركوا أسرارها ، ونفذوا إلى أغوار النفوس البشرية ، وتبينوا ما تتطوي عليه من نوازع

(16)- خير الدين شمي باشا، معجم الأمثال العربية، 11/1.

(17)- نفسه، 11/1.

(18)- نفسه ، 11/1.

(19)- نفسه ، 11/1.

(20)- نفسه، 11/1.

الخير والشر، فامتألت بها عقولهم حكمة بتجاربها ، فأرسلوها كلمات تسير وتحفظ
كالأمثال (21).

إلى جانب ذلك فالمثل أفعل في النفوس من الحكمة ، لأنه ألصق بها ويمسها
مباشرة، على حين تكون الحكمة فلسفة أخلاقية عامة كالموعظة تثقل بواقعيتها على النفس ،
على أن من الأمثال ما يكون واقعيًا ، وذلك إذا خلا من التصوير والتشبيه (22)، وهذا ما
يشكّل النوع الثالث الذي يسمى المثل السائر أو القول السائر ، فهو-أي القول السائر- فوق
المثل ودون الحكمة يشيع ويتداول كالمثل من جهة، ويتضمن فكرة فلسفية أكثر موافقة للعقل
كالحكمة من جهة أخرى.

فالمثل السائر بين المثل والحكمة، زيادة على أنه-أي القول السائر- يحوي «جملة
من الجوانب الرفيعة التي هي أروع ضروب البيان» (23).

وبذلك نكون قد رسمنا الحدود الفارقة بين المصطلحات الثلاثة (المثل ، الحكمة،
القول السائر) ، ليسهل علينا بعد ذلك التمييز بينها في إطار الدراسة أو حتى في
الاستعمال، ولو أن غرض إيرادها واحد يتلخص دوماً في إعطاء العبرة وإسداء النصيحة.

3- المثل وعلاقته بالحياة العربية:

إن الأمثال بعدّها أقوالاً مشهورة اكتسبت مكانتها الرفيعة عند العرب لا لشيء إلا
لأنها مثّلت جانبا واسعا من حياتهم وقسما وافرا من تراثهم الزاخر، فهي إذن تختزل الحياة
بطولها في مواقف وحوادث تحمل من خلالها تجارب أصحابها وتصرفاتهم الانفعالية تجاه
هذه الحوادث ، والتي تعبر بدورها -في الكثير من الأحيان- على إدراكهم الكبير لمعنى هذه
الحياة وفهمهم المستفيض لكل ما يجري فيها.

إن إيراد الأمثال يقترن دائما بذكر قصصها الأصلية وغالبا ما أوضحت هذه الأصول
أن تلك الأمثال انبثقت من صميم الحياة ، بما في ذلك بيئة العرب الاجتماعية وظروفهم
وأحوالهم التي كانوا يعيشونها ، وارتبطت بالأحداث والمناسبات والحروب ونجمت في الكثير

(21) - خير الدين شمسى باشا، معجم الأمثال العربية ، 12/1.

(22) - نفسه، 12/1.

(23) - محمود السيد حسن، التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم، ص29، 28.

من الأحيان عن القيم العربية الأصلية التي امتزجت بفطرتهم البدوية ومن ثمة نطقت أمثالهم بالحث على مراعاة تلك القيم والتعاقد والتناصر وحماية الذمار⁽²⁴⁾.

ولأجل ذلك نجد العرب يميزون في أمثالهم بين عدة أنواع أهمها، الأمثال الحكيمة والتي نجدها في قولهم (الجار قبل الدار، الحرب خدعة، العتاب قبل العقاب....)، ونحوها مما تناقلتها الألسنة في الأعقاب، وترويه الأمم بعضها عن بعض.

وأقدم مجموع لها (أمثال سليمان) وأكثر الأمم أخذت عنها، وهي عند العرب مقتبسة من التوراة، كذلك أمثال الهند والفرس والروم، فضلا عما يروونه على أسلافهم وحكمائهم كأكثم بن صيفي وغيره، وينسبون أمثالا كثيرة إلى لقمان الحكيم^{(*) (25)}، وأيضا إلى صالح عبد القدوس في الأمثال الشعرية.

أما النوع الثاني فكان الأمثال المبنية على الحوادث، وهذا النوع بدوره خاص بالعرب، لأن الحوادث جرت لهم [أي لم يأخذوها عن غيرهم كما هو حال النوع الأول]، كقولهم: قطعت جهيذة قول كل خطيب، والصيف ضيعت اللب [..]، وهم يؤثرون تلك الأمثال عن قائلها، وقد يروون عشرات الأمثال قالها الواحد في حادثة واحدة⁽²⁶⁾.

وما نميز في هذين النوعين أن الأول-أي الأمثال الحكيمة- يجري مجرى الحكمة وأحيانا يأخذ صورة النكتة الأدبية البارعة، ويقتصر في جملته على عدد معلوم من الألفاظ، ويكون له الأفضلية في الاستشهاد متى كان الموطن مناسباً، أما النوع الثاني فمنتزع من الواقع الاجتماعي الذي ألفه العرب واشتمل على بيئتهم⁽²⁷⁾.

ولم تكن هذه الأمثال مبهمة لديهم، بل كانت سهلة واضحة لما ترتبط به مع واقعهم الاجتماعي، غير أن ذلك لا يعني أن الأمثال العربية دوماً تعبر عن حقيقة واقعية، بل قد تمتزج في الكثير من الأحيان بالطابع الأسطوري، كأن ترد على لسان الوحش والطيور [كقولهم: كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك، الذي ورد على لسان حية تخاطب إنسانا]، وصاغوه على مقدرة عجيبة [وسموا هذا النوع بالأمثال الأسطورية أو الرمزية].

(24) - محمود السيد حسن، التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم، ص 555.

(*) - وهو من قدماء الحكماء، يشبه شاعرا حكيما ينحو هذا الاسم عند اليونان Aecman من أهل القرن السابع قبل الميلاد وهو من أقدم من نظم الشعر الغنائي عندهم.

(25) - جورج زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، تقديم إبراهيم صحراوي، سلسلة الأنسي موفم للنشر، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة، الجزائر، 1993، 84/1.

(26) - ابن الأثير، المثل السائر، 41/1.

(27) - محمود السيد حسن، التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم، ص 33.

وجعلوا عناصر القصص الرمزي يؤدون أدوارهم تبعا لما تقتضيه العواقب [لأن هذا النوع إما أن يحث على فضيلة أو يزرع لرديلة]، فجعلوا الحية رمزا للشر المحض، وكلامها يعني الوعيد والتحذير ، والثعلب رمز الحيلة والدهاء وكلامه للتدبير وحسن التخلص من المآزق [...] ونسبوا الكلام إلى الضب والجمال والجرذان وغيرها، وتلك الأمثال تفصح عن أغراض تعليمية وتوجيهات تحفزهم نحو صون قيمهم الأصلية⁽²⁸⁾.

وكان بذلك المثل يخلق في أجواء البيئة العربية التي قضوا [أي العرب] ردها من الزمن وتلاءموا في معاشهم مع الطابع المعهود الذي جبلوا عليه وشبوا في سجاياه، ولهذا تولدت أمثالهم من واقع بيئتهم ، وهو ما سننوه عنه بهذا الإرهاص في عرضنا للأمثال العربية على سبيل الاستشهاد والتعريف [...] ثم لا يلبث أن يأخذ صفة العموم ، فيشيع بين جمهور الناس، فيتخاطبون به ويشتهر في مجالهم، وقد يتسرب أثره إلى البيئات الأخرى فيلقى لديها الرواج والازدهار لحسنه واشتهاره⁽²⁹⁾، فتستعمله وتعبر به عن مختلف القضايا في شتى شؤون حياتها.

4- المثل مادة التأليف عند العرب:

لما كان للأمثال ذلك الارتباط بحياة العربي ، ارتأت العرب أن تحفظها من الضياع، وبذلك تحفظ جزءا كبيرا من تراثها، فهي أي الأمثال بكل ما تحتويه وما أشارت إليه كانت من جهة ما تمثل تلك «الآداب البارعة التي كشفت عن روعة البيان العربي ، وأعطت العرب الأهلية في السابق والتفوق عن سائر الأمم ، ومن ثمة أبدى العرب اهتماما واعيا بحفظ الأمثال القديمة، وتداولتها ألسنتهم على صورتها المألوفة ، وتحروا الدقة في نقلها عن الأصل ، لأن هذه الأمثال انبثقت عن صميم وجدانهم ، وكشفت عن اتجاهات شتى تتعلق بالبيئة الاجتماعية التي ترعرعوا فيها وفطروا عليها»⁽³⁰⁾.

وبالتالي يمكن عدّ الأمثال من أقدم بقايا النثر العربي، لما يبدو من أن بعضها كان سائرا مشهورا في الجاهلية، لأن هذه الأمثال كثيرا ما تشير إلى حوادث ووقائع معينة حصلت قديما ، ولكنها انطوت في زوايا النسيان، بيد أن من عنوا بجمعها من الأدباء لم يقعوا مرة

(28) - نفسه، ص556،555.

(29) - نفسه، ص31،30.

(30) - محمود السيد حسن ، التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم، ص27.

في حيرة من تفسيرها وإيضاحها، ولكن ما روي في هذا التفسير ليس أجدر بالثقة من قصصهم في شرح الأبيات المبهمة⁽³¹⁾.

ولأنها احتلت مكانة كبيرة لديهم ، بل إنها سبقت غيرها من الألوان الأدبية في الشيوخ والانتشار وسائر فنون اللغة كالشعر والخطابة، وبالتالي تيسر أمر حفظها وتدوينها⁽³²⁾.

وخير شاهد وأصدقه على عناية أسلافنا العرب بجمع الأمثال وتدوينها ما بين أيدينا من آثارهم الكبيرة التي تناقلتها العصور وما سمعنا به مما عدت عليه عوادي الزمن، فأصبح أثرًا بعد عين حتى فاقوا بعملهم ذاك جميع الأمم التي سبقتهم أو عاصرتهم[...]. وجدير بنا أن ننوه على روائع التراث العربي ومن كان سببا في ترسيخ أصوله فيما يتعلق بالأمثال⁽³³⁾.

وقد ذكر ابن النديم أن عبيد بن شَرِيَةَ الجَرَهَمِي من أهل اليمن ألف كتابا في الأمثال في خمسين ورقة في أواخر القرن الأول الهجري بأمر معاوية بن أبي سفيان، وكان أول من جمع الأمثال ورويت عنه، وقد توفي هذا عام 70 للهجرة⁽³⁴⁾، أو قبل ذلك بقليل.

وهذه الرواية تدل -بلا شك- على مبلغ أهمية الأمثال، وروايتها ولو عند من وضع حكاية عبيد بن شرية مع افتراض عدم صحتها واختراع قصته، ومن هذا الباب أيضا ما رووه أن رجلا اسمه **عُلَاقَةُ الكُلَابِي** قد جمع الأمثال في عهد يزيد بن معاوية⁽³⁵⁾.

هذا إلى جانب أن كثيرا من أدباء البصرة والكوفة قد اشتغلوا في إبان التمدن الإسلامي بجمع أمثال العرب منهم **صَحَّارُ العَبْدِي**، كان معاصر لأبي شرية⁽³⁶⁾، ويونس النحوي المتوفى سنة 182هـ، وأو عبيدة سنة 211هـ، وثعلب سنة 291هـ، فضلا على أبي عبيد القاسم بن سلام سنة 223هـ والمفضل بن محمد الضبي وأبي هلال العسكري ومحمد ابن زياد الأعرابي ومحمد بن حبيب البغدادي وحمزة الأصفهاني وغيرهم [...].

وأجمع العلماء على أن المفضل الضبي المتوفى سنة 168هـ هو الذي عاش النصف الأول من القرن الثاني الهجري، وقد ألف كتابا في الأمثال العربية ، وصل إلينا ، وطبع ،

(31) - كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، الإشراف على الترجمة العربية محمود فهمي حجازي، نقل الكتاب إلى العربية: رمضان عبد التواب وسعيد حسن البحيري وآخرون، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1993، القسم الأول (ج1، ج2) ، ص187.

(32) - محمود السيد حسن، التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم، ص29.

(33) نفسه، ص37، 38.

(34) - ياقوت الحموي الرومي، معجم الأدباء -إرشاد الأريب إلى المعرفة الأديب، تحقيق إحساس عباس ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى، 1993، 1581/4-1583.

(35) - ياقوت الحموي الرومي، معجم الأدباء -إرشاد الأريب إلى المعرفة الأديب، تحقيق إحساس عباس، 1630/4.

(36) - ابن النديم ، الفهرست، حققه وقدم له مصطفى الشوملي، دار التونسية للنشر، تونس، 1406هـ-1985م، ص413.

وتداولته أيدي العلماء الباحثين ، ومن المسلمّ به أن هذا وقت مبكّر بالنسبة لتدوين الأدب العربي⁽³⁷⁾.

وتولى الكثير ممن اهتموا بذلك شرح العديد من هذه الكتب وأضافوا إليها من الأمثال الحادثة في الإسلام ، ولعل من أهم هذه الكتب الباقية إلى حد الآن نجد المستقصي للزمخشري(ت538هـ) ، مجمع الأمثال للميداني(ت518هـ)⁽³⁸⁾.

ويتضمن الأخير نخبة ما احتوته كتب المتقدمين، جمعه مؤلفه -الميداني- من نحو خمسين كتابا في الأمثال ورتبه على حروف المعجم، وقد أودعه أكثر من ستة آلاف مثل، هي مزيج من الأمثال العربية الجاهلية والاسلامية، كما تشتمل على قدر من الأمثال المولدة التي شاعت في البلاد العربية والإسلامية نتيجة الاختلاط بالعناصر الأجنبية ثقافيا وحضاريا ، وكتابه هذا طبع مرارا بمصر والشام وغيرها⁽³⁹⁾.

أما كتاب الزمخشري المستقصي في الأمثال ، فهو معجم للأمثال العربية مرتب على الهجاء حسب أوائل الأمثال ، ومنه نسخة في دار الكتب المصرية في 178 صفحة وفي مكاتب أوربا⁽⁴⁰⁾.

وقد ذكر أن الميداني والزمخشري أخذوا مادة كتابيهما عن مجموعة من الكتب الأصلية التي لم يبق منها غير القليل من مثل كتاب الأمثال لأبي القاسم بن سلام الذي طبع في غوتجن سنة 1836 مع ترجمة لاتينية وشرحه البكري بعد ذلك، وكتاب الأمثال للضبي ، الذي طبع في الأستانة سنة 1882⁽⁴¹⁾، وجمهرة الأمثال للعسكري المطبوع في الهند سنة 1307هـ، وأمثال لقمان التي طبعت مرارا في أوربا ومصر(في باريس 1347هـ مع ترجمة فرنسية)، وتجد فيها كثيرا من أمثال العرب في كتب الأمالي وكتب اللغة وكتب الأدب ونحوها⁽⁴²⁾.

إضافة إلى ذلك نجد كتاب الأمثال لزكي الدين بن أبي الأصبع المصري الذي يتضمن ما جمعه ابن أبي الأصبع من أمثال أبي تمام وأمثال أبي الطيب المنتبي ، وما ولده

(37) - محمود السيد حسن، التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم، ص39،38.

(38) - نفسه، ص39.

(39) - جورج زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية، 86/1.

(40) - نفسه ، 79/3 ، 86/1.

(41) - جورج زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، 86/1.

(42) - نفسه، 86/1.

أبو الطيب من أمثال أبي تمام⁽⁴³⁾، وصدر الجميع بما وقع في الكتاب العزيز من الأمثال، وزاد على ذلك أمثال دواوين الإسلام والحماسة وأمثال أبي نواس، وختم كل ذلك بأمثال العامة وبما سار من أمثال الطغرائي في لامية العجم:

حُبُّ السَّلَامَةِ يُثْنِي عَزْمَ صَاحِبِهِ *** عَنِ الْمَعَالِي وَيُعْزِي الْمَرْءَ بِالْكَسَلِ
أَعْلَى النَّفْسِ بِالْأَمَالِ أَرْقُبُهَا... *** مَا أَضْيَقَ الْعَيْشَ لَوْلَا فَسْحَةُ الْأَمَلِ
وَأَتَمَّا رَجُلٌ الدُّنْيَا وَوَأَحَدُهَا... *** مَنْ لَا يُعُولُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ⁽⁴⁴⁾

ونخلص إلى أن الأمثال القديمة قد حظيت باهتمام ملحوظ ومكانة كبيرة من قبل العرب، وقد كان بعضها سائرا مشهورا متداولاً على الألسنة في الجاهلية، ولاقت في أوساطهم ومجتمعاتهم ومنتدياتهم رواجاً واسعاً، فتناقلوها بينهم مشافهة وحرصوا على حفظها، والتذكير بها من غير تبديل أو تعبير في صياغتها، ولو خالفت القياس اللغوي والتركيب النحوي، وما ذلك إلا لاعتدادهم بالأصول المنبثقة عنها تلك الأمثال، فلم يرضوا أن يخالفوا أسلافهم فيما صاغوه وذكره منها⁽⁴⁵⁾، لكنها لم تبق كذلك-مشافهة- بل عمدوا إلى تدوينها وتضمينها دفات الكتب لكي يضمنوا حفظها من مختلف عوامل الضياع، وسهولة تناقلها بين الناس، كما أنهم لم يكتفوا بذلك بل شرحوها وفصلوا القول في أصولها وحوادثها التي كانت سببا في نشأتها.

5- توظيف المثل في القرآن الكريم :

إن المثل بعدة مادة الكلام الذي أبدع فيه العرب وتفننوا في إطلاقه في مختلف المواقف التي كانت تعرض لهم، صار وسيلة الاقتناع لديهم وطريقة الإيضاح والإفهام عندهم، ولأن القرآن الكريم-من جهة أخرى- معجزة الرسول ﷺ كان تحد للعرب الجاهليين في كل ما أبدعوا فيه من فنون القول، فقد جاء متضمنا لعدد من الأمثال التي أراد الله سبحانه وتعالى من خلالها أن يفهم العرب بإعجازه من جهة، وأن يبلغ به درجة الإفهام والتوضيح وإعطاء المثل والعبرة من جهة أخرى.

⁽⁴³⁾ - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية-علم المعاني، البيان، البديع-، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص470،469.

⁽⁴⁴⁾ - ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعبتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1991، 188/1، 187.

⁽⁴⁵⁾ - محمود السيد حسن، التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم، ص555.

وإذا عدنا إلى كتاب الله نجده سبحانه قد وظّف عددا من الأمثال لغاية وغرض محددين ، فمنها ما كان للنصيحة ومنها ما للتوضيح والشرح، وغير ذلك مما عدّ ودرس ، وفي هذا الشأن يقول الإمام محمد بن علي الترميزي الحكيم رحمه الله: «أما بعد فإنك سألتني عن شأن الأمثال وضربها للناس، فاعلم أن الله تعالى ضرب الأمثال للعباد في تنزيله لقوله: [وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] (النور/35)، وقال جل ذكره: [وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ] (إبراهيم/45)، وأيضا قوله: [وَضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ] (الروم/28).»⁽⁴⁶⁾.

ولم يتوقف عند هذا ، بل تحدث عن غرض ضرب هذه الأمثال ، وورد ذلك في قوله: « ثم اعلم بأن ضرب الأمثال لمن [لما] غاب من الأشياء ، وخفيت عليه [...]، ف ضرب الله لهم مثلا من عند أنفسهم لا من عند نفسه ليدركوا ما غاب عنهم، فأما من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فلا يحتاج إلى الأمثال، تعالى الله عن ذكر علوا كبيرا»⁽⁴⁷⁾، أي أن الله سبحانه وتعالى كان يمثل للبشر بما لديهم من الأشياء ويعلمونها عن أشياء لم يعرفوها ولم يألفوها ، وذلك لأنه عالم بكل شيء ونحن الجهلاء فالغرض ههنا كان للإبانة وإيضاح أشياء من خلال التمثيل لها بأشياء أخرى معلومة ومعروفة، ففي قوله مثلا: [وَالْقَمَرُ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ] (يس/39) تمثيل لمراحل القمر، فهو في أول الشهر يختلف عن وسطه وعن آخره، ويشبهه بالعرجون القديم لأنه-أي العرجون- مدرك من قبل البشر ومعروف بإمكانه إيصال الفكرة المراد بلاغها ، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة، فنجد أن الله تعالى قد مثل لكل شيء، إلا أننا سوف نورد البعض من هذا على سبيل التمثيل.

ففي حديثه عن المنافقين قال في محكم تنزيله: [وَإِذَا لُقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَابِئِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16) تَلَّهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17) صُمُّ بُكْمٌ عُمِّي فُهُمٌ لَا يَرْجِعُونَ (18)] (البقرة/14-18) [...] قال قتادة هذا مثل ضربه الله تعالى للمنافق الذي تكلم بكلمة الإيمان ظاهرا ، فناكح ووارث بها دمه وماله، فلما كان عند الموت ولم يك مصدقا بها سلبت عنه

⁽⁴⁶⁾ - الحكيم الترميزي، الأمثال في الكتاب والسنة، تحقيق السيد الجميلي، دار ابن زيدون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1985،

ص13.

⁽⁴⁷⁾ - نفسه ، ص14، 13.

فترك في كرب وظلمة، فتحير فيها كما كانت معاملته في الدنيا في حق الله سبحانه وتعالى⁽⁴⁸⁾.

فضلا على ذلك فقد ورد تمثيله للكفار في غير ما سورة في القرآن الكريم، وخير مثل على ذلك قوله في محكم تنزيهه: [وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعَقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يِعْقِلُونَ] (البقرة/172)، وهذا التمثيل مستوحى من البيئة الرعوية، والمراد تشبيهه واعظ الكافرين وداعيتهم بالراعي الذي ينعق بالغنم والإبل، أي يصيح بها وهي لا تسمع إلا دعاءه ونداءه ولا تفقه ما يقول، فهم كذلك في إعراضهم عن إجابة دعوة الحق ، وكأنما قد صموا وأعمتهم غشاوة الباطل وختمت على قلوبهم⁽⁴⁹⁾.

كما ورد في قوله سبحانه وتعالى :- في تمثيل الحياة الدنيا- [إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا وَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] (يونس/24)، فالله سبحانه وتعالى هنا يرينا عاقبة أمر الدنيا وفنائها بما عاينوا من انقضاء أيام الربيع كيف تلاشت زينتها وبهجتها، كذا حال زينة الدنيا⁽⁵⁰⁾.

ومما جاء أيضا من تمثيل في كتاب الله أنه مثل المؤمن والكافر والمنافق مثل ثلاثة نفر أتوا نهرا عظيما في مفازة ، فوق واحد منهم في النهر ، فسبح سبحا ثم خرج ووقع الثاني، فكلما كاد أن يصل إلى شطر النهر ناداه الثالث الذي لم يدخل بعد في النهر أن يا فلان هلم إليّ فإن الطريق مخوف فتهلك ، ارجع إليّ فإنني أعلم بطريق آخر يعبر بالسلامة على القنطرة، والذي خرج يناديه أن إليّ فإن الطريق آمن وعندي من النعيم ما لا يوصف فما زال يذهب إلى هذا وإلى ذلك حتى غرق في الماء ويهلك.

قال قتادة-رحمه الله- فالأول الذي عبر مؤمن مخلص، والذي لم يعبر كافر، والذي دخل منافق يدعو المسلم من ورائه [المنافق وراء المؤمن الذي عبر] ، والكافر يدعو من خلفه [الكافر وراء المنافق لأنه لم يعبر بعد]، وهو متردد متذبذب، حتى يأتيه الموت، فيموت منافقا فيبقى في قعر جهنم في أسفل السافلين⁽⁵¹⁾.

(48)- الحكيم الترميذي، الأمثال في الكتاب والسنة، تحقيق السيد الجميلي، ص17، 18.

(49)- محمود السيد حسن، التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم، ص289.

(50)- الحكيم الترميذي ، الأمثال في الكتاب والسنة، تحقيق السيد الجميلي ، ص29.

(51)- نفسه، ص327، 328.

إلى جانب ذلك مثل سبحانه لمعجزة الخلق بذكر أمر عيسى عليه السلام في قوله: [إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ] (59) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60)] (آل عمران/59-60) أي شأن عيسى الغريب عند الله كشأن آدم في خلقه من غير أب، وهو من تشبيهه الغريب بالأغرب، ليكون أقطع للخصم وأوقع في النفس ، فكذلك عيسى قال له: كن من غير أب فكان، وقوله: [الْحَقُّ مِنْ رَبُّكَ] فيه حذف تقديره أمر عيسى: الحق من ربك فلا تكن من الشاكرين فيه⁽⁵²⁾.

ونخلص أخيرا إلى أن توظيف الأمثال في القرآن الكريم كان أكثر من أن يحصى، إنما حاولنا أن نمثل لبعض من وجوهه وأمثله، وكان ذلك لأشهر الأمثال التي تكررت في مواضع عدة وسور كثيرة، وجاء الغرض منها مثلما هو في غيره للوعظ والإرشاد والنصح والتذكير بقدره الله تعالى وذكر نعمه وفضائله... إلى غير ذلك.

6- المثل موضوع البحث والدراسة:

إن هذه الشهرة التي اكتسبها المثل انطلاقا من شيوعه وتداوله عند العرب أولا، ثم توظيفه في القرآن الكريم -وهو ما هو في نفوس المسلمين- ثانيا جعله لا يبق قيد الشفاهة إنما دُونَ وتضمنته دفات الكتب العديدة .

وما لبثت هذه المدونات المثلية أن تحولت بدورها إلى موضوعات تستحق الدراسة والاهتمام، والتي اشتغل بها عدد من الباحثين الذين ذاع صيتهم في مجال البحث والنقد لما وجدوا فيها من مجال خصب لمختلف التطبيقات اللغوية والنقدية والبلاغية .

ولعل من أهم هؤلاء نجد: الدكتور عبد المجيد عابدين الذي قدم كتابه المعنون ب(الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية) ، والمشتغل فيه بمقارنة الأمثال العربية بالأمثال السامية الأخرى، ومحاولة كشف التأثير والتأثر ومراحل التحول (التطور) ، وقد قدم لهذا بحديث عن أنواع الأمثال [...]. ، ولم يخل كتابه من بعض الإشارات اللغوية التي تتعدّ طور الإشارة إلا نادرا⁽⁵³⁾.

⁽⁵²⁾ القرآن الكريم بالرسم العثماني وبهامشه تفسير الجلالين ، جلال الدين المحلي وجمال الدين السيوطي، دار الجبل ، بيروت ، لبنان، الطبعة الثانية، 1415هـ-1995م، تدقيق ومراجعة وإشراف مروان سوار ، ص57.

⁽⁵³⁾ محمد جمال صقر ، الأمثال العربية-دراسة نحوية ، مطبعة المدني، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى ، 1421هـ-2000م،

وأيضاً الدكتور عبد المجيد قطامش، والذي اشتغل في رسالته للدكتوراه حول (الأمثال العربية-دراسة تاريخية تحليلية)، وعمل فيها على التأريخ للأمثال، وتدوين مضامينها وما تدل عليه وتشير إليه.

كذلك الدكتور ممدوح حقي الذي قدم كتابه (المثل بين العربية والانجليزية) ، وقد ضمّنه الأمثال العربية وبعض ما يشابهها من الأمثال الإنجليزية ، ومهد لذلك بحديث مقتضب عن أنواع الأمثال⁽⁵⁴⁾.

إلى جانب ذلك نجد الدكتور محمد توفيق أبو علي في كتابه الذي كان موضوعاً لرسالته في الدكتوراه (الأمثال العربية والعصر الجاهلي)، وتحدث فيه عن مضامين الأمثال وما تدل عليه، ومهدّ له بحديث عن الأمثال وتدوينها ، وقد أفاد فيه من كتاب المستشرق زلهام^(*)، وكتاب عبد المجيد عابدين وكتاب ممدوح حقي⁽⁵⁵⁾.

إضافة إلى هؤلاء كان السيد عبد الرحمن التكريتي قد قدم كتابه الموسوم بـ(دراسات في المثل العربي المقارن)، والذي اكتفى فيه بمقارنة أمثال بعض الأقطار العربية ببعض، ثم جاء الدكتور عفيف عبد الرحمن الذي أنجز بحثه الصغير وسماه (الأمثال العربية القديمة) . كما قدم الدكتور عبد الفتاح الحموز كتاباً عنونه بـ(الحذف في المثل العربي) ، متخذاً مجمع الأمثال للميداني مصدراً لبحثه داعماً إياه بالإحصاء ، ويأتي الدكتور إمام حسن حسن الجبوري الذي جعل رسالته للماجستير في الأمثال بعنوان (المسائل النحوية والصرفية في كتاب مجمع الأمثال للميداني) ، وكانت وسيلته لتبيان قدر الميداني النحوي⁽⁵⁶⁾.

فضلاً على ذلك عنون الدكتور السيد ياسر إبراهيم الملاح رسالته للدكتوراه بـ(التركيب اللغوي في الأمثال العربية القديمة)⁽⁵⁷⁾.

وأخيراً -فيما نعلم- ما قام به الدكتور محمد جمال صقر والمتمثل في إنجاز بحث حول الأمثال العربية كان موضوعاً لرسالته في الماجستير، والموسومة بـ(الأمثال العربية

⁽⁵⁴⁾- نفسه ، ص15.

⁽⁵⁵⁾- المستشرق زلهام قدم كتابه (الأمثال العربية القديمة) ، والذي تحدث عن تدوين الأمثال وأنواعها.

⁽⁵⁶⁾- محمد جمال صقر، الأمثال العربية القديمة-دراسة نحوية-، ص16،15.

⁽⁵⁶⁾- نفسه، ص16.

⁽⁵⁷⁾- نفسه ، ص16.

القديمة-دراسة نحوية- من خلال مجمع الأمثال للميداني) ، والذي طبع فيما بعد في شكل كتاب .

حيث عالج فيه البناء النحوي للأمثال، مع تقديم أشاد فيه بأهمية دراسة الأمثال وما تتميز به هذه الدراسة من صعوبة وغموض من جهة أخرى، كما أشار فيه إلى الدراسات السابقة محللا ومنتقدا، وموضحا وجه الصواب فيها، وما اعترأها من نقص أحيانا كما هو حال غيرها من الدراسات .

لكنه مع ذلك لا يبخصها حقها في أنها كانت سبيلا ميسرا لما هو من نوعها من الدراسات فيما بعد، ثم تحدث عن الميداني وعرف به ، مبينا أهميته، وأهمية كتابه ، كما قام بتصنيف أمثاله تصنيفا جديدا يخالف ما وردت عليه في مجمعه ، حيث وضعها في ثلاثة أنواع، حوارية وحكمية وتعبيرية وعرف بكل نوع وما يتميز به عن غيره ، واعتمد هذا التصنيف فيما بعد في كامل الدراسة ، فهو في كل جزء منها يعتمد ميزات كل نوع من الأنواع الثلاثة على حدا.

فهو إذ يتحدث عن حالات المسند يستعرضها في كل نوع ، وكذلك إذا تحدث عن المسند إليه، والمسند قد يكون فعلا وقد يكون خبر، وأيضا المسند إليه، وحتى في حالات الإحصاء ، فيحصى تبعا لما يقتضيه كل نوع من الأنواع الثلاثة في تصنيفه الجديد للأمثال المتضمنة في المجمع.

وأحسب هذه الدراسة دراسة موفقة وقيمة تضاف إلى مجموع الدراسات المنجزة التي سبقته في هذا المجال.

7- المدونة موضوع البحث(تنظيمها وقيمتها):

إننا في هذا البحث نحاول أن نتتبّع أثر هؤلاء الباحثين الذين ذكرناهم آنفا في دراستنا هذه، والتي سوف نتناول فيها مدونة من بين أهم مدونات الأمثال وأشهرها لمالها من قيمة وصيت، والمسماة(فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري)، وهي عبارة عن شرح لكتاب الأمثال لأبي القاسم بن سلام^(*)، الذي ذكر له من الفضل الكثير خاصة عند

٥ - أبو عبيد القاسم بن سلام ، وقيل ابن سلام بن مسكين بن زيد ، وكان زيد حمالا ، وكان أبو عبيد يخضب بالحناء ، أحمر الرأس والحية ذا وقار وهيئة خبر كل ذلك في فهرست ابن النديم.

أهل الأندلس، الذين أولوا كتاب الأمثال اهتماما كبيرا في حياتهم الثقافية، وقد أحرز مقاما عاليا في نفوس الدارسين الأندلسيين⁽⁵⁸⁾.

أما عن الشرح أي المدونة موضوع البحث فنجد أن البكري قد بين في فاتحة هذا الشرح منهجه في كتابه حين قال: «أما بعد فإنني تصفحت كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام، فرأيت أنه قد أغفل تفسير كثير من الأمثال فجاء بها مهملة، وأعرض عن ذكر كثير من أخبارها فأوردها مرسله، فذكرت من تلك المعاني ما أشكل، ووصلت من تلك الأخبار بأمثالها ما فصل، وبيّنت ما أهمل، ونبّهت على ما ربما أجمل، إلى أبيات كثيرة غير منسوبة نسبتها، وأمثال جملة غير مذكورة ذكرتها، وألفاظ عدة من الغريب فسرتها»⁽⁵⁹⁾.

وذلك يعني أن هذا الشرح قد احتوى كثيرا مما خلا منه كتاب الأمثال لأبي القاسم بن سلام من حيث نسبه الأشعار، وذكر الأصول وشرح المبهم وإضافة بعض الأمثال. أما عن مضمون المدونة فإن شأنها شأن كل كتب الشروح، حيث نجد أن أبي عبيد البكري شرح الأمثال وعقّب عليها وذكر أخبارها، وبين نسبتها وأضاف إليها أمثالا أخرى لم يذكرها أبو عبيد القاسم وحذف البعض مما ذكره، وكشف النقاب عما أضمره من أسماء الأشخاص والأماكن التي تتعلق بأصل المثل، ولم يكتف بذكر قصة المثل الأصلية التي أشار إليها أبو عبيد القاسم، بل نجده عدّد -أبو عبيد البكري- القصص للمثل الواحد، وأعطى التخريجات المختلفة لكل ذلك.

وقد اتبع أبو عبيد البكري في عرض مادة هذا الشرح طريقة تتوافق مع ما جاء في الكتاب الأصلي (كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم)، حيث قام بتصنيف شرحه وفق عشرين بابا يتفرع منها عدة فروع أخرى، فكان الباب الأول في حفظ اللسان ويتفرع منه أبواب في معناه، وجاء الباب الثاني في معاني المنطق ويتفرع منه أبواب في معناه، ويأتي الباب الثالث في جماع أحوال الرجال واختلاف نعوتهم وأحوالهم وما يتفرع عنه، والباب الرابع في تعاطف ذوي الأرحام وحنان بعضهم على بعض ويتفرع منه أبواب، وهكذا... ويكون الباب الخامس عشر في البخل وصفاته وأشكاله وما يتفرع عنه، إلى أن يصل إلى الباب العشرين وهو الباب الأخير والذي يعنونه ب(في اللقاء والنفي للناس والطعام، ويتفرع منه أبواب في معناه).

(58)- أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، حققه وقدم له إحسان عباس وعبد المجيد عابدين، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ص12.

(59)- أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، حققه وقدم له إحسان عباس وعبد المجيد عابدين، ص13.

وقد تضمن كل باب من هذه الأبواب عددا من الأمثال تقل وتكثر على حسب معانيها ومواقفها ، ولكن ما يظهر جليا في هذا الشرح أن أبي عبيد البكري يحاول في كل مرة أن يبرز قدرته على التحليل والتصويب وصحة النسبة ويذكر في كل مرة بعجز أبي عبيد القاسم في معرفة نسبة الأبيات الشعرية إلى أصحابها ، ويصحح روايتها أحيانا ، كما أنه يكشفه عن أسماء أماكن أو أفراد قد أضمرها أبو عبيد القاسم لا يضيف شيئا في إفادة المثل في الكثير من الأحيان، مما ينبأ عن موقف ما له إزاء أبي عبيد القاسم.

II

{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ
مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}

ω

(الزمر/27)

فهرس الموضوعات

مقدمة.....	(أ-د)
مدخل : المثل العربي من الشفاهة إلى التدوين والدراسة.....	1
الفصل الأول: صور البيان وأشكاله في المثل.....	20
1- توطئة	21
2-مصطلح البيان واضطراب دلالاته.....	28
3-علم البيان فرع من فروع البلاغة.....	29
4-أقسام البيان.....	31
4-1-التشبيه.....	31
4-2-الكناية.....	51
4-3- المجاز.....	73
4-4-الاستعارة.....	79
5-خاصة عامة للفصل.....	87
الفصل الثاني: ألوان البديع في المثل.....	88
1-توطئة.....	89
2-البديع عند علماء البلاغة.....	90
3-البديع وارتباطه بموسيقى الشعر عند المحدثين.....	93
4-توظيف البديع في الأمثال.....	95
4-1-محسنات بديعية صوتية (التناسب الصوتي).....	96
4-2-محسنات بديعية دلالية (التناسب الدلالي).....	107
4-3- محسنات بديعية صوتية دلالية (التناسب الصوتي الدلالي).....	128
5-خلاصة عامة للفصل.....	143
الفصل الثالث: الأساليب ودراسة المعاني في تركيب المثل.....	144
1- توطئة.....	145

146.....	-2	علم المعاني (مفهومه وموضوعه)
147.....	-3	أضرب الأسلوب في عبارة المثل
163.....	-4	أحوال الإسناد في المثل
179.....	-5	القصر في المثل
182.....	-6	الفصل والوصل في المثل
186.....	-7	الإيجاز ، الإطناب والمساواة في المثل
201.....	-8	خلاصة عامة للفصل
203.....		تعقيب : أثر الجانب البلاغي في تداول الأمثال
217.....		الخاتمة
220.....		قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم (برواية ورش عن نافع).

1/ ابن الأثير (أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلية ت 637هـ)، المثل السائر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 1995.

2/ ابن الأثير (نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي)، جوهر الكنز-تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة-، تحقيق محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الاسكندرية، مصر.

3/ أحمد أمين، النقد الأدبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1387هـ-1967م.

4/ الأنباري (محمد بن القاسم الأنباري)، كتاب الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 1407هـ-1987م.

5/ البخاري (أبي عبد الله محمد ابن اسماعيل البخاري الجعفي)، صحيح البخاري، ضبطه ورقمه وذكر تكرار مواضعه وشرح ألفاظه وجمله وخرج أحاديثه في صحيح مسلم ووضع فهرسه مصطفى ديب البغا، نشر مشترك موفم للنشر الجزائر ودار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع عين مليلة، 1992.

6/ البكري (أبو عبيد البكري)، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، حققه وقدم له إحسان عباس وعبد المجيد عابدين، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة.

7/ الترميذي (أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترميذي)، الأمثال في الكتاب والسنة، تحقيق السيد الجميلي، دار ابن زيدون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1985.

8/ تمام حسان، الأصول-دراسة إبستيمولوجية في الفكر اللغوي عند العرب- النحو- فقه اللغة- البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1420هـ-2000م.

9/ الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت 255هـ)، البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1419هـ-1998م.

10/ الجرجاني(عبد القاهر الجرجاني):

* أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق وتعليق سعيد محمد العام، دار الفكر العربي، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى، 1999.

* دلائل الإعجاز في علم المعاني، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، حققه وضبطه وعلق عليه محمد رضوان مهنا، مكتبة الإيمان، المنصورة ، مصر.

11/ الجرجاني(محمد بن علي بن محمد الجرجاني ت729هـ) ، الإشارات والتبويضات في علم البلاغة، تحقيق عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، 1418هـ-1997م.

12/ جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر ، 2000.

13/ جورجى زيدان ،تاريخ آداب اللغة العربية،تقديم ابراهيم صحراوي، سلسلة الأنيس، موفم للنشر، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، وحدة الرغبة ، الجزائر ، 1993.

14/ ابن حجة الحموي(الشيخ تقي الدين أبي بكر بن علي)، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1991.

15/ حماسة (محمد عبد اللطيف حماسة) بناء الجملة العربية، دارغريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر ،. 2003.

16/خير الدين شمسي باشا، معجم الأمثال العربية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، 1423هـ- 2002م.

17/ ابن رشيق(ابن رشيق القيرواني الازدي)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد المجيد، دار الجيل، بيروت ، لبنان، الطبعة الخامسة، 1401هـ-1981م.

18/ السكاكي(أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي)، مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأولى، 1356هـ-1937م.

19/ السيد أحمد خليل، مدخل إلى دراسة البلاغة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر،بيروت ، لبنان، 1968.

20/ السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ، لبنان، الطبعة الثانية، 1421هـ 2000م.

- 21/ السيوطي (عبد الرحمن جلال الدين السيوطي)، المزهرة في علوم اللغة ، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- 22/ الشافعي(أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي)، ديوان الشافعي، جمعه وعلق عليه محمد عفيف الزعبي، مؤسسة الزعبي ، دار الجيل ، بيروت، لبنان.
- 23/ عبد الإله سليم، بنيات المشابهة في اللغة العربية- مقارنة معرفية-، دار توبقال للنشر،الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2001.
- 24/ عبد العزيز عتيق:
- * في البلاغة العربية: علم المعاني- البيان - البديع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان.
- * تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1406هـ- 1986م.
- 25/ عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1998.
- 26/ ابن عبد الله شعيب ، البلاغة العربية الواضحة-علم البيان، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.
- 27/ عبد الواحد حسن الشيخ، العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي- دراسة تطبيقية-، سلسلة اللغة العربية، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، المنتزه، مصر ، الطبعة الأولى، 1419هـ- 1999م.
- 28/ الفيومي (أحمد بن محمد بن علي المقرئ)، المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1987.
- 29/ قادة بوتارن، الأمثال الشعبية الجزائرية-بالأمثال يتضح المقال-، ترجمة عبد الرحمان الحاج صالح، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر العاصمة ، الجزائر.
- 30/ القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ت739هـ-1338م)، الإيضاح في علوم البلاغة، قدم له وبوبه وشرحه علي بوملحم، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، الطبعة الأخيرة، 2000.

31/ القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ت739هـ-1338م)، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، المجلد الثاني، الجزء السادس.

32/ كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، الإشراف على الترجمة العربية محمود فهمي حجازي، نقل الكتاب إلى العربية رمضان عبد التواب وسعيد حسن البحيري وآخرون، المنظمة العربية للتربية والثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، 1993.

33/ المبرد(أبو العباس محمد بن يزيد ت285هـ-898 م)، الكامل في اللغة والأدب، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت، لبنان.

34/ محمد جمال صقر ، الأمثال العربية- دراسة نحوية-، مطبعة المدني، القاهرة، مصر الطبعة الأولى، 1421هـ-2000م.

35/ أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان، كتاب الأمثال في الحديث النبوي، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، الدار السلفية ، بومباي، الهند، الطبعة الثانية، 1987.

36/ العمري(محمد العمري):

* البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب، 1999.

* الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية - نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ، المغرب، 2001.

37/ محمود السيد حسن، التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم، المكتب الجامعي الحديث، الأزاريطة، الاسكندرية، مصر ، 2001.

38/ ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري)، لسان العرب، دار الصادر، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى، 1410هـ- 1990م.

39/ الميداني(أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري)،مجمع الأمثال، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ، لبنان، 1985.

40/ ابن النديم(محمد بن اسحاق النديم الوراق الأنباري البغدادي)، الفهرست، حققه وقدم له مصطفى الشويبي، الدار التونسية للنشر ، تونس، 1406هـ- 1985م.

41/ أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين-الكتابة والشعر-، حققه وضبط نصه مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى، 1401هـ-1981م.

42/ ياقوت الحموي(ياقوت الحموي الرومي) ، معجم الأديباء-إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،.1993

43/ يوسف أبو العدوس، البلاغة والأسلوبية، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة العربية الأولى، 1999.

ختاما لهذه الدراسة يمكننا أن نشير إلى عدد من النتائج التي توصلنا إليها من خلال المراحل المختلفة لهذا البحث وفق أهداف رسمناها في البداية وأسئلة كانت منطلقا ومثيرا أولا في خوض غمار هذا البحث :

تحقق أخيرا لدينا أن المثل فعل كلامي مارسه العرب مثلما مارسوا الشعر والخطابة وغيرها من فنون القول، وقد تميز هذا الفن المثلي- من خلال ما تكشف لنا في الدراسة - بعدد من الخصائص البلاغية التي توزعت في مستويات ثلاثة هي البيان والبديع والمعاني . والمثل من جهة الصور البيانية يتوفر على عدد غير قليل منها ، فالتشبيه بداية كثر في عبارة المثل وتنوع بمختلف وجوهه، وقد لاحظنا منه -وعلى وجه أخص- الجانب الحسي حيث المشبه به شيء حسي يقصد من خلاله توضيح الأمر وإجلائه، وتشخيص الصورة وتجسيدها على عكس أنواعه الأخرى التي يكون فيها الطرفان أما معقولان معا أو حسيان معا أو كان المشبه به معقولا، لأن المثل -كما هو مفهوم- تصوير لحوادث جرت عند العرب أو عند غيرهم، وهذا التمثيل بالأمر الحسية هو ما يسهل إيصال غرض المثل .

إضافة إلى ذلك نجد أن التشبيه البليغ له حضور كبير في عبارة المثل، لأنه نتاج انفعال حدث في نفس العربي مقرون بهذه الحوادث، وقد يتحول هذا التشبه إلى استعارة أو مجاز ،ذلك أن استعمال الثلاثة مقرون بالمشابهة بين الأشياء والتعبير ببعضها في الاستيعاض عن بعض ، فما الاستعارة إلا تشبيه حذف أحد طرفاه، والمجاز أيضا عدول بالأشياء عن حقيقة معناها لتعبر عن معان أخرى لقريظة مشابهة أو اشتراك فيكون بذلك غير بعيد عن التشبيه، وكان له حضور كما للاستعارة في الأمثال العربية.

كذلك كانت الكناية طريقا في التعبير عن فكرة المثل التي ينقلها، والعرب كانت تكني عن الأشياء دون تصريح لأنها أتقنت ذلك وفهمته، والمثل هو كناية عن غير تصريح في موقف ما من حادثة ما .

أما عن البديع فقسمناه في عبارة المثل إلى مستويات ثلاثة صوتي ودلالي وصوتي دلالي، والذي ظهر أكثر وكان له فعله في الأمثال هو المستوى الصوتي، لأن المثل في

البداية نشأ مشافهة وتناقلته الألسنة لأثر هذه المحسنات البديعية الصوتية كالجناس والسجع والتصريع، فالأذن العربية آنذاك كانت تدرك هذا الجمال الصوتي والنغم الموسيقي الذي يحدثه النطق بهذه الأمثال ، فكثير استعمالها في حديثهم ، وهذا ما أوضحناه في التعقيب الذي ضمنناه آخر الدراسة، كما كان للمستوى الدلالي أثره لكن بعد تدوين الأمثال .
والمهم أن البديع شكل حضورا قويا في الأمثال أكثر من غيرها على اعتبار إيجاز عبارتها وسهولة النطق بها وسرعته .

وكان الأسلوب الخبري هو الأغلب في عبارة المثل، لأنه ينقل تصوير الحوادث التي هي مصدر الأمثال وأصل نشوئها، لكن هذا لا يعني انعدام الأسلوب الإنشائي فيها، بل يوجد بصورة أقل ، وربما كان أصله أخبارا وردت بصيغ إنشائية .

كما أن عناصر الإسناد في عبارة المثل قد تعددت حالاتها بين التعريف والتكثير، وبين الحذف والذكر، والتقديم والتأخير، وكل ذلك جاء لأغراض ومقاصد، منها ما شمل وروده في فنون القول الأخرى، ومنها ما كان خاصا بالمثل فقط .

إضافة إلى مواضع الفصل والوصل التي كشفنا وجودها في الأمثال، ولم تختلف في أغراض ذلك مع ورودها في غيرها .

فضلا على ذلك تناولنا الإيجاز والإطناب والمساواة، وكان للإيجاز حصة الأسد في استحواده على جل الأمثال ،حيث صار صورتها المميزة وصفتها الملازمة، لأن المثل قول موجز مقتضب العبارة، يحمل فكرة صائبة ويلخص قصة جرت وكانت أصل نشوئه .

أما الإطناب فورد فيه بشكل أقل، لكنه ظهر بنوعيه في الجملة وفي عدد الجمل ، وكان في نوعه الثاني ابلغ اثر، وورد في أكثره في الأحاديث النبوية، لأنها مما يحتاج إلى التفصيل والشرح، إذا لم تكن شرح في ذاتها، وما جاء منه في نوعه الأول أي الجملة قصد به التوكيد واثبات الحكم المتضمن في جزء المثل الأصل .

وجاءت المساواة في الأمثال العربية حين التعادل بين معاني المثل والمفردات المكونة لعبارته، وهي الطريق العادي في كل كلام، ثم هي الوحيدة التي تكاد تكون بعيدة عن أي غرض بلاغي سوى الوضوح .

بعد ذلك كان التعقيب الذي أوضحنا فيه مدى اثر الجانب البلاغي في شيوع الأمثال

وتداولها قبل التدوين وبعده، ووصلنا من خلاله إلى فكرة مفادها أن المثل لم يشع ويتداول لمضمونه فحسب، إنما كذلك كان للجانب البلاغي دوره في هذا الشيع، فهو لموسيقاه في جانبه الصوتي وللمعاني التي يحتويها في ناحيته الدلالية، ثم للوظيفة التي يؤديها وللنسيج المحكم الذي تتميز به عبارته تتحقق له هذه الفعالية في الحياة اليومية والاستعمال الإبداعي .

والمثل أخيرا بنية لغوية متميزة تتضمن محتوا فكريا راقيا، لا تختلف في نقله مع فنون القول الأخرى ، وتتفرد عنها بإيجاز العبارة ورونق الأسلوب وزخرف القول ، كما أنه يؤدي وظيفته ويحقق غرضه على أكمل وجه وبأحسن طريقة وأضمنها في إيصال الفكرة، ولعل خير دليل على ذلك ما له من فعالية في الحياة الاجتماعية قديما وحديثا.

وختاما نرجو من الله العلي القدير أن نكون قد وفقنا في تحقيق ما نصبو إليه ونأمل أن نكون قد حققنا الإفادة لكل من يطلع على هذه الدراسة، عساها تكون محاولة جادة في بحث موضوع المثل، وأن تفتح أطرا أخرى للمواصلة في مثل هذه الموضوعات، وما توفيقنا إلا من عند الله يؤتي علمه من يشاء وهو على كل شيء قدير .

مفتاح شرح الرموز الواردة في المذكرة:

« ... » : النقل الحرفي للنصوص .

[كذا في وسط النصوص المنقولة] : إضافة من عند الباحث .

[....] : علامة الحذف عند النقل الحرفي .

-.....- : جملة اعتراضية .

(*) : لشرح ما ورد في المتن من ألفاظ أو التعقيب عليه في الهامش .

مج : تعني مجلد .

.. / .. : رقم الجزء / رقم الصفحة .

لاشك في أن العرب قد أبدعوا في الشعر وأجادوا فيه حتى سماهم غيرهم بأمة الشعر، وقيل: إنه ليس من أمة أبدعت في الشعر مثلما أبدع فيه العرب، فكان ديوانهم الذي أرخ لأمجادهم وتضمن حياتهم وأيامهم، إلا أنه لم يكن الوحيد الذي أجادوه، بل برعوا في غيره، وتركوا فيه تراثهم الزاخر من مثل أنواع النثر المختلفة كالوصايا وأدب الحكم والأمثال، وعلى ذكر ذلك نشير إلى أن بحثنا هذا سوف يتناول مدونة في الإطار ذاته، وقد وسمناه بـ: "الأمثال العربية من خلال فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري- دراسة بلاغية-".

وكان اختيارنا لهذا الموضوع بسبب قلة الدراسات التي تناولت الأمثال، مما شجعنا على خوض غمار هذه التجربة، فاخترنا مدونة من المدونات القديمة حبا منا في إمطة الستار على هذا التراث العربي القديم الذي ظل يشع بما يحتويه من درر نفيسة، وكان طريقنا في ذلك البحث البلاغي الذي نكن له اهتماما خاصا لأنه علم العرب الذي أوجدوه، وجدوا في تطويره.

أما منهجية الدراسة فهي عدد من المناهج، لأن اختلاف أجزاء البحث تبعه اختلاف في المنهج، ف جاء المنهج التاريخي في كل ما يتصل بنشأة البلاغة وظهور علومها الثلاثة وتطورها، وكان المنهج الوصفي التحليلي في الجانب التطبيقي عند وصف الأمثال وتحليل معانيها المتعلقة بالجانب البياني، مع ربط ما ورد في قصصها الأصلية بما تدل عليه في صورها البلاغية، والبيانية منها خاصة، وإعطاء بعض التفسيرات والتأويلات التي نجدها ملائمة لمختلف المواقف التي تضرب فيها الأمثال، كما نقابل بين هذه الأمثال الفصيحة ونظيراتها الشعبية لتوضيح معانيها، وإضافة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأبيات الشعرية التي تدل عليها أو تشرح لبسا قد يعثر بها.

وقد قسمنا بحثنا هذا وفقا لطبيعته إلى مدخل وثلاثة فصول وخاتمة، ضمنا المدخل انتقال المثل العربي من المشافهة -وهي حالته الأولى التي عرف عليها - إلى التدوين -أي

عندما صار مادة للتأليف والكتابة- وصيرورته بعد ذلك ليصبح موضوعا ومجالا خصبا للبحث والدراسة، تطبق عليه مختلف المناهج وأنواع الدراسة كغيره من النصوص، لأن المثل بكل ما يحتويه وما يحيل إليه من مرجعية في القصة الأصلية التي يشير إليها هو نص مثله مثل القصيدة والرواية.

ثم عنونا الفصول الثلاثة بحسب محاور البلاغة، فجعلنا الفصل الأول في (صور البيان وأشكاله) ، وتندرج تحته عدد من العناوين الفرعية، تبدأ بتوطئة نتحدث فيها عن نشأة علم البلاغة ومختلف المراحل التي مر بها في التطور، مع أهم الاتجاهات والمدارس التي أثرت فيه، ثم يأتي الحديث عن مصطلح البيان وانتقاله من الدلالة على معنى العلم ككل أي البلاغة إلى الدلالة على محور منه، بعد ذلك نعرف بعلم البيان على اعتبار دلالاته الثانية، بعد ذلك ننتقل إلى الحديث عن أقسام هذا العلم، ممثلين في كل مرة لصوره بما ورد في المدونة من الأمثال، مع إتباع ذلك بالكثير من الشرح والربط والاستشهاد، وتكون خلاصة الفصل في الأخير.

أما الفصل الثاني فقد أسميناه (ألوان البديع)، فقدّمنا فيه بتوطئة ضمناها الحديث عن البديع ووجود الصنعة عند العرب ، وما اكتسبه من أهمية في إنتاجهم ، ثم عرفنا البديع عند علماء البلاغة ، وارتباطه بموسيقى الشعر لدى المحدثين، بعدها كان انتقالنا إلى توظيف البديع في الأمثال، حيث قسمنا المحسنات البديعية -على خلاف العادة - إلى أنواع ثلاثة، يعود النوع الأول فيها إلى الأصوات فقلنا محسنات صوتية، ويتعلق النوع الثاني منها بالمعاني أو الدلالة فهي محسنات بديعية دلالية، ويربط النوع الثالث بين الأصوات والمعاني فأسميناه المحسنات البديعية الصوتية الدلالية ، وفي الأخير خلاصة الفصل الثاني .

والفصل الثالث عقدناه للأساليب ودراسة المعاني، حيث ابتدأناه بتوطئة أفردناها للتداخل بين علم المعاني وعلم النحو، وطريقة كل منهما في دراسة الجملة، ثم يأتي العنصر الثاني في تعريف علم المعاني وموضوعه، بعد ذلك العنصر الثالث في أضرب الأسلوب، حيث نقسم الأسلوب كما عرفه علماء البلاغة إلى إنشائي وخبري، مع التمثيل والاستشهاد بما ورد في مدونة البحث من أمثال مع الشرح، ويتبع بالعنصر الموالي في الحديث عن حالات الإسناد في الجملة العربية فيما أورده علماء البلاغة عن ذلك، فنذكرها في مواضعها

معتبرين لما هو في عبارة المثل، على اختلاف أنواع الأمثال في المدونة (حكمية ، أحاديث نبوية)، ونختم الفصل بملخص عامة له .

ونعقد قبل المرور إلى الخاتمة عنواننا آخر، وندعوه تعقيب هو أثر الجانب البلاغي في تداول الأمثال، حاولنا أن نصل فيه إلى فكرة مفادها أن تداول الأمثال وشيوعها بين الناس لا يرتبط بما تتضمنه من أفكار صائبة تعبر عنها وحوادث تصورها فحسب، لأن بدايتها كانت المشافهة ، وذلك ما يعني الجانب الصوتي قبل المحتوى من ناحية ، كذلك كانت صور البلاغة مما يظهر في النطق خاصة ما يتعلق بالبديع، فضلا على ما يكون في المعنى وهو ما يتعلق بالبيان والمعاني، وكل ذلك لابد أن يكون له الأثر في شيوع المثل وتداوله .

فالمثل يجلب أنظار الناس ويطربهم بموسيقاه قبل أن يدركوا معناه، فإذا تمعنوا فيه أعجبوا به أكثر لما يحتويه من تشخيص وتجسيد لمختلف الحوادث التي يعبر عنها، ولذلك تداولوه وشاع بينهم .

وفي الأخير تأتي الخاتمة لتكون خلاصة للبحث تختزل كل نتائجه، وتجيب على عدد من تساؤلاته ،وتقيم ما وصل إليه وما حققه من أهداف .

وقد اعترضتنا- مثلما هو الحال في كل البحوث- مجموعة من الصعوبات في سبيل الوصول بهذا البحث إلى نقطة النهاية، ذلك أن الدراسات البلاغية فيما يشبه تصورنا الذي وضعناه للعمل قليلة، فضلا على أن الدراسات التي تدور حول الأمثال الفصيحة ليست بالمتوفرة كما أشرنا ، لكن رغم ذلك حاولنا وبذلنا الجهد بما أتيح لنا من إمكانيات.

وقد استفدنا في بحثنا هذا من عدد من الكتب التي كانت في أغلبها مصادر ، ومنها (البيان والتبيين) للجاحظ و (العمدة) لابن رشيق القيرواني ، (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) للإمام عبد القاهر الجرجاني و(المثل السائر) لابن الأثير و(الصناعتين) لأبي هلال العسكري.

فضلا على ذلك فقد وظفنا عددا من المراجع الحديثة لأجل توضيح بعض المفاهيم الواردة في المصادر القديمة أو لاستجلاء بعض الأمثلة والنماذج ، ومنها (الإشارات والتنبيهات) لمحمد بن علي بن محمد الجرجاني و(البلاغة العربية أصولها وامتداداتها) و(الموازنات الصوتية) لمحمد العمري، (جواهر البلاغة) للسيد أحمد الهاشمي و(في البلاغة العربية) لعبد العزيز عتيق و(بناء الجملة العربية) لعبد اللطيف حماسة، إضافة إلى مدونة البحث ومعجم الأمثال العربية بأجزائه الثلاثة لخير الدين شمسي باشا ومجمع الأمثال للميداني، وعدد من مدونات الأمثال الأخرى ، كذلك دراسة نحوية في الأمثال لمحمد جمال صقر، ودراسة لغوية أخرى في أمثال القرآن الكريم، وعدد آخر من الكتب التي يتعذر ذكرها لكثرتها، لأننا نذكّر للتمثيل فقط .

وفي الأخير نرجو أن نوفق في الوصول إلى ما نصبو إليه ، وما توفيقنا إلا بالله عليه نتوكل وبه نستعين.